ثلاثية
الانفوشي وليالي القهر
محمد عزام

ثلاثية الأنفوشي

(الأنفوشي/ ازميرالدا/ ليال القهر)

محمد عزام

الطبعة الأولى 2023
ISBN: 9789189288614
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 46-17 26-04-2023
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.
© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. المؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

في استحياء نظر لقطعة المرآة على الحائط وهمس :

- ما أجمل حاجبي، ثم إلى جسده ، قوة قد حان وقتها

فأخيرا سوف يزف إلى عروسه ويغلق عليهما باب واحد تحسس الجاكيت ثم البنطال الواسع ، الكل متناسق، ثم نظر إلى قدميه ، إلا هذا الحذاء ، فقد استعاره من شقيقه سالم ، حاول بقدر ما يستطيع أن يجعله في صورة الحذاء الجديد ، مسح يديه من بقايا ورنيش الحذاء وبلل بدلته بماء الورد ثم التفت حول نفسه ، تنبه إلى صوت شقيقته من الخارج تحثه على الخروج فقد حضر المأذون ، كان واثقا أن هذه الزيجة رابحة ، فزوجته من عائلة مازالت تحمل علامات الثراء من أراض مشتتة بين أقاليم وجه بحرى ورصيد لا بأس به من المال ، كان كل ذلك يمنحه الطمأنينة والأمن ، فإن عمله في حرفة النجارة مازال عمل موسمي ينتعش ثم يخمد أوقات كثيرة فلا مانع أن يأكل من ثروتها حتى يأتيه الفرج نظر مرة أخرى إلى تناسق ملابسه ، كان ما يحزنه هذا الحذاء فالناظر إليه يعرف من أول نظرة أنه حذاء مستعمل ، أصوات الزغاريد تقترب فتح أخيرا باب الغرفة استقبل التهاني والمباركة التف حوله أصدقاؤه وأبناء عمومته ، فهم لا

يحضرون إلا في اجتماع عرس أو توديع متوفى إلى مثواه بالقبور، جلس يسامرهم ويضحك مختلسا النظر إلى حذاؤه المختبئ تحت مقعده عسى أن لا يراه أحد ، كانت هناك عين تراقبه سالم شقيقه صاحب الحذاء ، كان يخفى ابتسامته وقد فهم حركات شقيقه بمحاولته إخفاء قدميه تحت المقعد ، تمت مراسم الزواج ، وانطلقت الزغاريد من النساء ، بدأ العرق يتساقط في ظهره متجها إلى مؤخرته أمسك بيد عروسه فائزا بها والتي ستكون له سندا في شقاؤه في هذه الحياة ، تقدمت أمامهم الراقصة تزفهم سلط بصره على جسدها الممتلئ لحما وشحما وأنوثة تفوح من نهديها وشفتاها الغليظتان كل شيء كان يهتز بجسدها ، تعجب على قناعتها مقابل ما تبعثر من خصوصيتها على الجميع بنصف ريال فضة دفعه ابن عمه محمد أفندي زوج شقيقته جميلة صاحبة فكرة زواجه من هذه العروس الثرية ،بنت صاحب الأطيان الراحل من الحياة وشقيق واحد متزوج وزوج أم عم العروس المتولي أمور الأموال والأطيان ، انتهزت شقيقته جميلة كل هذه الظروف لتزوجه بها ، أخرجته يد العروس من تأملاته بإراحة يدها من قبضة يده ، أعطى لها الحرية انسابت أمامه على درجات السلم تلملم ذيل فستانها وطرحتها فطابور المودعين بدأ يهرسه بالأقدام ابتسمت له تمنى أن تدوم هذه البسمة على شفتيها ولكن كان يعرف جيدا

بأن هذه البسمة ستكون لها نهاية ، متى؟ لا يعلم ، كانت هذه فلسفته التي عاش عليها منذ قدومه إلى الحياة وفراق أبوه لأمه وزواجه من أخرى ، كانت أمه تميل دائما إلى اهلها وعائلتها المحترمة طبقة البروليتاريان واختلافها مع زوجها والنظر إليه بأنه من طبقة أرستقراطية رغم تعثرها فما زالت تلبس هذا الرداء، كانت تفضل تناول الطعام على الطاولة القصيرة التي تكاد تعلو بضع بوصات عن الأرض ، تاركة الطاولة العريضة العالية المزودة بالرخام الأبيض لزوجها (والبيرة) المثلجة بجانب الطعام بدلا من الماء ، قد اختار هو تقديم الولاء لأهل أمه وتربعها على الطاولة القصيرة وحبه لخاله صانع الموبيليا ، الرجل الكادح منذ ولادته يحمل علامات الشقاء على وجهه وكفيه تاركا جميلة وشقيقه سالم في كتلة الارستقراط مع والده وزواج جميلة من ابن عمها محمد افندي الرجل المترف وحبيب عمه والد جميلة

وصل أخيرا إلى نهاية درجات السلم ، أخذ بيد عروسه مودع لأصحابه وأقاربه ، تنبه إلى عروسه تنظر لاهثة كان يعرف عن ماذا تبحث ، فأم العروس لم تحضر الحفل ، خالتها وشقيقها فقط وأهل حارتها حضروا للمباركة ، دفعها برفق إلى الحنطور المزين بأكوام من الزهور ، كانت عيناها تراقب المارة تبحث عن أمها تحرك الحنطور ابتسمت له وأمالت

برأسها على كتفه، اخذ يرشد السائق (العربجي) بين شوارع وحوارى حتى وصل إلى الأنفوشى حيث منزل الزوجية ، انزلها بحرص شديد ، فهو يريد أن يشعرها من أول يوم أنه يحبها حبا كبيرا ، امسكت بذيل فستانها لتصعد درجات السلم الأربع ، فشقة الزوجية في الدور الأول ، توقفت العروس التفتت أسفل قدميها ، رد على نظراتها أن هناك سكان يقطنون في بدروم المنزل أسفل شقتها ، اخيرا جمعتهم شقة الزوجية ، كانت الشقة مرتبة جيدا تركت يده وتوجهت إلى غرفة النوم ، جلس هو الآخر ليستريح من عناء هذا اليوم ، تذكر الحذاء خلعه بسرعة من قدميه ليخفيه عن أعين عروسه ، نظر إلى الطعام على طاولة السفرة ، جلس بجانبه حاول أن يختلس النظرات إلى غرفة النوم وتردد هل يدخل أم ينتظر ليرى ماذا ستكون الخطوة القادمة ، خرجت إليه ترتدى قميص نوم حريري أظهرها في صورة صارخة الجمال ، كانت مثل فاتنة من فاتنات هوليود حبيبات فراشه الرطب الخشن في مسكن أمه اقترب منها اخذ بيدها وقبلها كما شاهد في السينما ثم دلف إلى غرفة النوم لخلع ملابسه وارتداء جلبابه ، خرج جلس إلى جوارها أخرجت أول كلماتها في مسكن الزوجية :

- الطعام لم يبرد خالتي دائما ترتب كل شيء أحسن من أمي

وضعت وجهها بين كفيها وهى تجهش بالبكاء:

- هي فين أمي ؟!

ربت على ظهرها وبحنان مسح دموعها بظهر يديه وتشجع ليظهر لها مدى تعاطفه معها :

- يآستي أنت تعرفين أمك وظروف عمك ، من يوم ما تزوجته وهى بعيدة مطمئنة بوجود خالتك بجانبك

دلف الأثنان إلى غرفة النوم

***

مرت الأيام ، كانت من أحلى أيام عمره ، فهو يحاول بقدر ما يستطيع أن يوفر لها أسباب الحياة الكريمة المتوسطة المستورة ، كما يفهمها هو أما هي فدائما تشعره بأنها بنت حسب ونسب كان واضحا في بروتوكول المعيشة من طعام وملبس وسلوكيات وخاصة مع الجيران وأولهما جارتها الست أم حلويات التي وضعت زوجته في موضع كاتمة الأسرار لها ولأولادها ومتنفسا للشكوى من زوجها بائع الخضار المتجول هي تنفذ كلمات زوجته شريفة بكل عناية واقتناع ، فكم كانت

تشعر شريفة بالسعادة بمدى اقتناع أم حلويات بها ، أخرجته حرارة الشمس من تأملاته أنهى احتساء كوب الشاي ، حضر النادل لأخذ الحساب ليسلم الوردية لزميل بعد الظهيرة نظر لطفى إلى ساعته ، قد اقتربت من الثالثة خرج معكر المزاج ، ثلاثة أيام مضت ولا يوجد عمل بورشة النجارة ، أخذ يفكر كيف يواجه شريفة بعد نفاذ نقوده ، لم يبقى معه إلا غير قروش قليلة أسرع في السير، عازما على أن ينهى الموقف بمواجهة زوجته شريفة ومعرفة أحواله ، وصل أخيرا إلى المنزل وكما اعتاد ثلاث دقات على الباب فتحت له شريفة تستقبله بابتسامتها الفاتنة اسرعت بمساعدته في ارتداء الجلباب نظر للطعام على المائدة ، اصناف كثيرة ، لم تعطى له فرصة بالسؤال أخبرته بذهابها إلى سوق الميدان وجاءت بخزين الأسبوع ، استغل لطفى حديثها وأخبرها بأنه لم يعمل منذ ثلاثة أيام و شحيح مادة الكحول بسبب حرب الألمان وارتفاع سعره بإسعار لا تناسب صاحب الورشة التي يعمل بها واكتفاء صاحب الورشة بمساعدته هو وزملاؤه بقليل من القروش لحين انخفاض سعر الكحول ، ابتسمت شريفة ، أخرجت (الجوزلان) من صدرها وأفرغته بجانبه ، كان به من المال ما يكفى على اكثر من شهر من المعيشة المستقرة تناول يدها وقبلها انسحبت متجهة إلى غرفة الطعام أحضرت الشاي كانت جلستهم المفضلة خلف

قضبان النافذة المطلة على شاطئ بحر الأنفوشى هذه من أهم الميزات التي كان يفتخر بها بين أقاربه بمسكنه أمام الشاطئ وقصر رأس التين ومشاهدة للملك فاروق في أوقات كثيرة خلال العام ، أخذ يرتشف الشاي مختلسا النظر إلى شريفة كان مفتونا بجمالها وهذا التناسق العجيب من الوجه حتى القدم ،لاحظ وجهها الشاحب لم تعطه فرصة للسؤال اتجهت مسرعة إلى الحمام تقيأت فهم إنها حامل عادت إليه في خطوات مترددة تنظر إليه تنتظر اجابته على حملها ، قام بإلقاء القبلات على جبهتها مباركا للحمل ، أخذ يرتشف الشاي في هدوء ناظرا إلى البحر

***

هبت شريفة من النوم على دقات باب الشقة ، نظرت بجانبها لم تجد لطفى ، كانت هذه عادته أن يخرج في صمت ، أسرعت بفتح الباب ، وكانت المفاجأة أمها أم صابر وشقيقتها الخالة نرجس ، رحبت شريفة بخالتها كثيرا التي ازاحتها في صدر أمها ، أخذت تبكى في حضن الأم ، قامت الخالة بإنهاء العتاب الباكي بين شريفة وأمها ، بدأت تستدرج شريفة في كشف أحوال معيشتها مع لطفى ، أخبرتهم بأنه عاطل عن العمل معللة بشحيح الكحول من السوق ، أسرعت الأم إلى

كيسة النقود من صدرها ، وضعت في حجر شريفة الكثير ، خيم الصمت عليهن ، انسحبت شريفة إلى الحمام تقيأت عادت لترى ملامح الخبر على الأم والخالة ، ومدى تقبلهم للحمل كانت الأم جامدة لم تبدى أي فرح على وجهها كانت الخالة عكس ذلك ضمتها إلى صدرها مرحبة بهذا الخبر مطمئنة لها بسرعة حل مشكلة العمل لزوجها بإخبار صابر شقيقها بإيجاد عمل للطفى ، مركزه قوى بالقوات البحرية ، لم تنتبه شريفة وخالتها بغياب أم صابر وخروجها من المنزل ، سألتها عم من يزورها من أقارب زوجها ، كان الرد موجزا بعدم حضور أحد غير أبناء عمه سعد ومصطفى للجلوس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ واعجابهم بمرور العربات الملكية إلى قصر رأس التين انتبهت شريفة وخالتها بوصول أم صابر تحمل أكياس ممتلئة بالطعام والفاكهة ، همت شريفة وخالتها بإعداد الطعام فقد اقترب ميعاد وصول زوجها لطفى ، خرجت شريفة من غرفة الطعام إلى بباب الشقة ابتسمت فالقادمة أم حلويات ساكنة البدروم ، تحمل طبق من الليمون المخلل ، علقت أم صابر :

- طبعا مخلل رشيدي حتما يكون معتق

ضحكت شريفة وأمها ، بينما وقفت أم حلويات ، لم تعرف كيف ترد على أم صابر غير انها ضحكت استأذنت بالعودة إلى شقتها ، ودعتها شريفة لتعود للجلوس مع الخالة والأم في انتظار عودة زوجها لطفى

مرت الساعات ولم يحضر أدركت خالتها الموقف أمرت شريفة بمساعدتها في إحضار الطعام حرصا على ما تحمل في أحشائها والاهتمام بصحتها قامت أم صابر بالاسترخاء ثم تبعتها أختها نرجس ، جلست شريفة بجانب النافذة تنتظر زوجها مرت ساعة أخرى ولم يحضر استسلمت للنعاس مستندة على حافة النافذة وذهبت في نوم عميق

***

سماء صافية ، هواء منعش ، نوافذ مفتوحة وأخرى مغلقة امرأة تلملم غسيلها وأخرى تنادى على بائع الفول المدمس وجارة تكلم جارتها من الأسطح وشاب ينظر مستجمعا نظراته في صدر امرأة معلقة على جدار الشرفة غير عابئة بمنظر صدرها وبروزه كان لطفى يشاهد هذه اللوحة من خلال جلوسه في مقهى سوق الترك خلف شارع فرنسا ، هي المركز الرئيسي لإصحاب مهنته نظر إلى كوب الشاي اقترب على

الانتهاء نظر إلى ساعته كانت عقاربها تقترب من الخامسة مساء ، أنتبه لخلو المقهى من العاطلين أمثاله ولم يتبقى إلا هو لم يفكر في العودة إلى المنزل أخرج قطعة القماش أخذ يمسح وجه ليس من التراب ، بل من الدموع فقد بدأت تنساب من عينيه رغم محاولته صدها ولكن لا فائدة تناول كوب الماء ابتلع قطرات قليلة عسى أن تأخذ مرارة الأسى نظر إلى المارة مرة أخرى كانت المفاجأة خاله قادم نحوه أراد أن لا يلتفت إليه ويمر دون أن يلاحظه فهو مثله عاطل عن العمل لنفس السبب شحيح الكحول من السوق ، بادره خاله بالتحية ثم جلس بجانبه في صمت أسرع النادل اليهم أمره لطفى

بإحضار كوب من الشاي بادره خاله :

- بدون سكر

ابتسم لطفى لخاله:

- حتى يا خالي السكر والحلاوة لا تلزم ولا في التمتع بالمذاق

ضحك الخال وأمسك بيد لطفى وقبض عليها بشدة :

- يدك هذه تأتى لك بالسكر والخير بدلا من الجلوس في المقهى ، وهل أنت مبسوط على هذا الحال ؟!

شرح له لطفى عدم رحمة المعلم صاحب الورشة بأحواله هو وزملاؤه وموقف زوجته شريفة وتعاونها معه في أعباء ومصاريف المنزل وعدم قدرته على التصرف في أي شيء ينقذه ويخرجه من هذه الضائقة الصعبة ، وعدم وجود حل غير الجلوس بالمقهى حتى يأتي الفرج ، قطع خاله الحديث :

- أنت بعيد عن الحل ويجب أن تفكر ، أنت الآن مسئول عن بيت ومصاريف والتزامات

قاطعه لطفى :

- علاوة عن قدوم مولود في الطريق

ضحك الخال وأكمل حديثه ، بأن المسئولية أصبحت أكبر ، ويجب أن تسعى لإيجاد عمل لتغطية حاجاتكم من طعام وغيره من الأشياء المهمة في حياتكم

أحضر النادل كوب الشاي كانت الفرصة للطفى ليسرح مع أحلامه مع شريفة والمولود القادم همس :

- يا ترى ماذا أحضر لي خالي من المفاجآت ، نقود لا أظن فإن حاله مثلى

كان الفارق بينه وبين خاله ، أن خاله أعزب لم يتزوج وليس عليه مسئولية ، فهو قادر على أن يعيش بأقل قدر من

المال ، كما أنه من الممكن أن يكتفى بوجبة واحدة طوال اليوم مثله قبل الزواج ، وتذكر كيف كان دائما يحمل في جيب بنطله كسرة الخبز فإذا شعر بالجوع أخرج الكسرة وتناولها مع كوب من الشاي ، لاحظ خاله ينظر إليه ويبتسم ، اطمئن فخاله يحمل إذا أخبار سارة أخيرا تكلم الخال :

- غدا تسافر إلى دمياط ، تذهب إلى الحاج بسيوني تاجر الموبيليا ، أسبوع وشهر حتى يأتي الفرج ويتوفر الكحول بالإسكندرية وتعود

- قاطعه لطفى وهل الكحول متوفر في دمياط ؟!

أخبره خاله بأنهم هناك يعملون لكل يوم حسابه وليس مثل أهل الإسكندرية يعيشون يومهم فقط ، فأنت جالس بالمقهى وشرب شاي ولا على خاطرك من يوم مثل هذا وقد حصل ، ماذا فعلت ؟!

طأطأ لطفى رأسه إلى الأرض ، يريد أن يهرب من مواجهة خاله ، فهو أحب الناس إليه ، أمسكه خاله من كتفيه وأكمل الحديث

- ياس يدى أنا أعرف ، لا تريد أن تبتعد عن حضن امرأتك لكن الضرورة لها حكمها ، والأيام القادمة ستدخل على مصروفات وعلاج ودكتور وولادة وسبوع

نظر إليه بنظرة تحدى وإصرار على مواجهة الموقف كما أمره قام بالاستفسار عن كيفية السفر وليس معه نقود ؟ هل يعود إلى المنزل ويقترض من زوجته مصاريف السفر؟

كانت إجابة خاله سريعة ، أخرج حافظة نقوده ووضع بعض النقود في يده ، لم يقدر أن ينبس بكلمة واحدة غير أن يشكره وأخباره بالقيام بالسفر غدا إلى دمياط حتى يأتي الفرج إلى الإسكندرية ، أمره خاله بالعودة إلى امرأته فإن الوقت قد تأخر ، شكره مرة أخرى وودعه بالقبلات أسرع بالعودة إلى المنزل وفى الطريق أخرج نقود خاله ، كانت تكفى لمدة ثلاثة أيام ، أحس بالراحة وتذكر عدم وجود خبز عرج إلى حارة (الشارونى) حيث يوجد عم محمد بائع الخبز وعم ياقوت البقال ، أحضر ما يلزم واصل السير في اتجاه المنزل ، بدأ في ترتيب فكره لمواجهة امرأته وسفره إلى دمياط ، وكيف يكون وقع الخبر عليها ؟ فقد كان زواجها منه المفاز الآمن بعد العناء والاضطراب التي كانت تعانيه من أمها وزوج أمها كانت شريفة دائما تشعره بأنه قد أنقذها من عذاب الصباح والمساء من أم لاهية وعم لا يريد غير أن يشبع رغباته من أمها ، فهو لا عمل ولا أعمال ميراث شقيقه، يجلس عليه متربعا يصرف بسخاء على نزواته ، وكان أول ما يبدأ به مع أمها أم صابر اقترب من المنزل ، مسح العرق من على جبهته

، فقد حان وقت المواجهة ، كانت شريفة تنظر من النافذة في انتظاره ، ابتسم لم ترد الابتسامة أسرعت باستقباله، نظرت إلى عينيه ، وقبل أن يتكلم حملت ما معه من خبز وشاي ،انتشي لطفى رائحة الطعام تملأ الغرف مع طغيان رائحة اللحم المسلوق ، نظر إليها وكانت الإجابة :

- خالتي وأمي حضروا اليوم وانتظرنا كثيرا ، ولكنك تأخرت ، حاولت تأخيرهم وإقناعهم بالانتظار ولكنهم أصروا على الرحيل

اتجهت الى غرفة المطبخ ، توجه إلى غرفة النوم لخلع ملابسه ، وجد أكياس الفاكهة بجانب الفراش زادت فرحته ، فهناك لحم وفاكهة ، أسرع بالخروج على صوت شريفة بإعداد الطعام ، نظرت إليه بابتسامة رضا وسعادة فقد حضر ليذهب عنها القلق وتكتمل فرحتها بفرحه للطعام ،خيم الصمت عليهم مشوشا بحركة الأيدي من المائدة إلى فم يستقبل وأسنان تمضغ ، أما لطفى كان الصمت يدق بداخله أجراس السعادة ، أقبلت شريفة تحمل أكواب الشاي ولكنه كسر قاعدة احتساء الشاي بعد تناول الطعام فهي لا تعلم باحتراق قلبه في صباح هذا اليوم واحتساؤه الشاي بالمقهى وهو على لحم بطنه ذكرها بالفاكهة عادت إليه تحمل الفاكهة وطبق الجبن المملح ،

أستراح من وحم أمرأته فهي تتوحم بقناعة وعلى قدر المستطاع وفى متناول يده ، تابع التلذذ بالتهام الفاكهة ، دلف إلى حجرة النوم تدور رأسه بكيفية إخبارها بسفره غدا للعمل بمدينة دمياط ، مر الوقت بطيئا ، أحس أن هذه الليلة ستكون طويلة أمسك بفراش نومه ، كان من الحرير الأملس وردى اللون مزركشا بالخيوط الذهبية ،همس :

- كم يتغيب عن هذا الفراش الناعم ؟! لا يعلم فالأمر متوقف على مدة العمل بمدينة دمياط

لاحظ غياب شريفة من اللحاق به في غرفة النوم خرج إلى الصالة ، كانت تبكى ارتبكت وقامت تبتسم له ، معلنة بحضور خاله إبراهيم وإخبارها بسفر زوجها إلى مدينة دمياط للعمل ، أستراح من عمل خاله وأداء مهمة إبلاغها وأن لطفى عمله بدمياط لن يزيد عن شهر ثم العودة إلى حبيبته الإسكندرية

* * *

استيقظ مع آذان الفجر دون أن تشعر شريفة ، تناول كوب الشاي مع كسرة الخبز ، ارتدى ملابسه ، وقف مترددا هل من الأفضل أن يترك لها بعض النقود ؟ أخرج من جيبه ريال فضة ، بهدوء عاد إلى غرفة النوم متجها إلى منضدة تسريحة شريفة

، فوجئ بجنيهات مرتبة بجانب المرآة ، أطمأن وهم بأخذ بعضها ، تراجع واكتفى بما يحمل من نقود خاله إبراهيم ، انسحب متجها إلى الشارع ، وقف منتظرا الترام ولم ينس أن يملأ أنفه بالهواء المعطر بيود بحر الأنفوشى ، لم ينتظر طويلا حضرت ترام الخط الدائري ، جلس بجانب النافذة ينظر للشاطئ ، كانت الترام خاوية من الركاب ، تذكر أيام سفره إلى مدينة رشيد ، فهي من أهم صفحات حياته وذكرياته خاصة في بداية عمله بحرفة الأس ترجى (ملمع) الموبيليا ، تذكر امرأته ، هل مازالت نائمة ؟ أم استيقظت لتفاجئ بمغادرته البيت وسفره مسح وجهه بقطعة القماش التي حاكتها له شريفة لتكون كمنزلة المنديل ، انتصب واقفا فقد جاءت محطته(محطة مصر) ، أسرعت خطواته نحو موقف السيارات ، حاول الالتفات إلى الجرائد المعلقة على سور المحطة ، كان يريد أن يتسكع ، همس :

- لماذا التردد فزوجته ترعاها خالتها وأمها وأيضا جارتها أم حلويات ، فلا داعى للقلق

واصل المسير تحت أصوات منادى سيارات الأجرة بالموقف، وصل إلى سيارة دمياط ، دس جسده بالسيارة مستسلما للمجهول ارتعشت أطرافه هل من برودة الهواء ؟ أم

من برودة السفر وترك حبيبته شريفة ؟ أم من عدم توفيقه بالعمل ؟ أو وفاة الحاج بسيوني صاحب معارض الموبيليا بمدينة دمياط ؟ أم من عدم حاجة الحاج له ؟ تذكر كلمات خاله إبراهيم :

- لن تمكث بدمياط أكثر من شهر ثم تعود إلينا

اكتملت السيارة ثم انطلقت مغادرة لحبيبته الإسكندرية ، داهمه النوم وكان هذا ما يتمناه ، فتح عينيه قد وصل أخيرا إلى دمياط ، فرك عينيه وبدأت خطواته البطيئة متجها إلى محلات الحاج بسيوني متبعا لأشارت خاله بمكان المعارض ، ارتعشت أطرافه كانت المحلات مغلقة ، نظر إلى ساعته تقترب من الرابعة بعد العصر ، تذكر إنه ميعاد الراحة والغداء ، التفت حوله يبحث عن مكان منتظرا لفتح المحلات كان على ناصية الشارع مقهى يختلف اختلافا كبيرا عن مقاهي الاسكندرية حبيبته المقاعد من الخوص المجدول ، قصيرة ليست لها ظهر يستند عليه الجالس ، يجب على الجالس أن ينتصب في جلسته لا استرخاء بهذا المقعد ، وفى هذا المقهى ، كانت هذه عادة أهل دمياط حياتهم كلها منتصبة محسوبة ابتداء من مصروف الجيب إلى ادخارهم في كل شيء ، ابتداء من حفنة الملح إلى عدة سنتيمترات من خيط الحياكة ، جلس منتصبا يشاهد النادل

مرتديا الجلباب المخطط واضعا على رأسه عمامة تميل على أذنه اليسرى ، يتمايل بين المقاعد الخوص حاملا لصينية المشروبات يرفعها في الهواء أعلى ثم ينزل بها حتى ركبتيه ، ابتسم فكم يشبه النادل الفنان شكوكيو ، طلب كوب من الشاي أخرج من جيبه كسرة الخبز، كان الماء داخل صفيحة جبن صغيرة نظيفة بيضاء من الداخل ، نظر لطفى إلى قاع الماء ، كم يشبه قاع بحر الأنفوشى ، يسبح فيه وجه امرأته تبتسم له ، أرتشف الماء محاولا ابتلاع وجه حبيبته ، نظر إلى محلات الحاج بسيوني مازالت مغلقة ، بدأ القلق يدب في أوصاله وبدأ المجهول يفترسه ، اهتزت يده انسكب كثيرا من الشاي على ملابسه ، أخرج قطعة القماش مجففا لقطرات الشاي من على بناطله بقدر ما يستطيع من إزالة لون الشاي ألتفت إلى المحلات ، أخيرا فتحت ابوابها ، أسرعت دقات قلبه ماذا سيكون موقف الحاج بسيوني معه ؟ هل سيرحب به ؟ هل يوجد عمل في هذه الأيام الصعبة وشح الكحول ؟ إشارة بيده أقبل شكوكيو ملبيا لإشارته ، كان مجاملا للطفى معترضا على أخذ الحساب ، كان مندهش لموقف النادل فهو يعرف أهل دمياط وحرصهم على كل قرش ، أصر على دفع الحساب أتجه إلى محلات الحاج بسيوني ، دقات قلبه تسرع تزلزل جسده ، أقترب من باب المحل زادت دقات قلبه وجاءت المواجهة ،

الحاج بسيوني يقف أمامه لم يقوى على تحية الحاج ، تفرس الحاج في وجهه وأخذ يدقق ، كان لطفى في انهيار ، فالحاج الآن هو طوق النجاة له ، أخيرا تكلم الحاج بسيوني :

- أنت تشبه الأسطة إبراهيم الأس ترجى الإسكندراني صح؟!

رد بسرعة :

- نعم يحاج أنا لطفى ابن اخته وهو معلمي للمهنة

أخذ الحاج بسيوني بيد لطفى أ دخله في مكتبه رحب به سأله عن خاله وأحوال العمل ، فهم الحاج ظروف الإسكندرية ، رفع الحاج رأسه منتشي :

- أنتم يا أهل الاسكندرية ، أحوالكم عجيبة ، اللي في جيبكم مصروف وخارج ، معلميكم لم يحسبوا لمثل هذه الأيام ، لكن نحن كنا مجهزين أنفسنا مستعدين دخلنا على الخمارات وأخذنا الكحول ، كان حلنا سريع وحل رجالة مع تجار الكحول والخمارات ابتسم لطفى فهم انه يوجد عمل ، فوجئ بالحاج يسأله :

- أنت معلم مثل خالك ولا مدلع في الصانعة ؟

لم يعطى فرصة للطفى للإجابة ، امسك الحاج بيده دقق في اصابعه :

- كلها جملكة ، أصابع معلمين لا نستعجل ، عملك هو الحكم عليك

ارتفع صوته مناديا على الأسطة سلامة ، رحب بالطفى وأمره الحاج بتسليمه قطعة موبيليا لبدء الاختبار والعمل ، دخل الورشة واثقا بنجاحه في الاختبار ، خاصة بأن خاله لم يحرمه من أسرار مهنة التلميع ، التف حوله زملاؤه في المهنة ، فوجئ بتكرار سؤالهم عن أخبار السينما في الإسكندرية وآخر الأفلام ، انتشى بالفرح فهي متعته وخاصة الأفلام الأجنبية ، فهو يحفظ اسماء النجوم ، تلا عليهم اسماء شارلي شابلن ، فريد استير، ريتا هي واريت أخبرهم بأنه قد ترك الدراسة وهو في مرحلة متقدمة من التعليم ويعرف من اللغة الإنجليزية الكثير مما زاد من إعجاب السطوات به وزيادة مراسم الترحيب ، تعجب عما سمعه من شح وبخل أهل دمياط وتعاملهم معه ، كما انه كلما زاد في الحديث عن السينما زادت الحفاوة به ، كان حريص على إخفاء أسرار مهنته ، لاحظ العيون ترصد عمله بزعم ذهابهم إلى دورة المياه والمرور عليه لمشاهدة ما يصنع من تركيبة من الصبغة ، توقف عن

العمل ، أتجه إلى الحاج بسيوني معتذرا عن إكمال العمل ، فعليه أن يأخذ بعض الراحة ثم يكمل عمله بعد انتهاء فترة العمل وذهاب زملاؤه ، وافق الحاج بسيوني على الفور مما زاد من القلق بالموافقة بهذه السرعة ، كان توقعه صحيحا ، بدء العمل بالورشة وحده لاحظ عين تراقبه من خلال ألواح من الخشب بزاوية الورشة ، حاول بقدر ما يستطيع إخفاء مشاهدة عمله بإعطاء ظهره للعين الراصدة غير مكترث واثقا بإخفاء ما يحمل من أسرار المهنة

***

مرت الأيام بسرعة على لطفى ، كان همه وشاغله الوحيد ، شريفة وأحوال الحمل ، هل مازالت خالتها ترعاها؟ وما موقف عائلته منها ؟ أسئلة كثيرة كانت تحاصره تصرخ في جوف رأسه ، ولا توجد إجابات ، كان منقذه الوحيد للخروج من دوامة حيرته النظر عبر باب الورشة والتسلية بمشاهدة المارة وعلى رأسهم شكوكيو النادل وهو يتمايل حاملا للطلبات بالمقهى مرتديا الطرطور المائل حتى أذنه اليسرى ، ملفتا لزبائنه ، باعثا الضحك بحركات المنولوج من يديه وكلماته المقطعة ، أخرج منديله مسح وجهه ، خرج من تأملاته بيد

الحاج بسيوني تربت على كتفه ، أستدار مستسلما ليد الحاج ، أخذ بيده إلى مكتبه ، جلس في صمت ، نظر إليه الحاج وهو يبتسم يخبره بالسماح له بالعودة إلى حبيبته الإسكندرية وزيارة أهله ، يعلمه بتوفر الكحول بها خيره الحاج بالعودة إليه مرحبا به في أي وقت للعمل عنده ، لم يعطه فرصة للإجابة ، دس في يد لطفى ظرف بداخله الحساب عن مدة عمله و مصاريف الانتقال من ذهاب وعودة إذا أراد العودة لمدينة دمياط أعطى لطفى إجابة سريعة للحاج بالعمل بالإسكندرية وإخباره بالسفر غدا ضحك الحاج بسيوني ، شكره لطفى على معاملته له وجبر خاطره ثم استأذنه ليجهز عدته للعودة إلى حبيبته الإسكندرية

* * *

الساعة تقترب من السادسة صباحا ، مازالت الشوارع خالية من المارة ، نظر ناحية المقهى، شاهد شكوكيو يعد المقاعد الخوص ، ابتسم لحظ هذا اليوم السعيد أتجه نحو المقهى ، جلس في نفس المكان الذى جلس فيه عند قدومه إلى مدينة دمياط ، راجع مشترياته وأهمها اقراص المشبك المشبع بالعسل الأبيض والهريسة الدمياطي المتخمة بالزبيب وقطع جوز الهند الغارقة بالسمن البلدي ،أحضر شكوكيو كوب الشاي مسلطا نظره على هذا الزبون القادم في هذا الميعاد المبكر ،

غض لطفى بصره لم يعطى له فرصة للحديث ، انسحب النادل تاركا الجناح لكتفيه تنخفض وترتفع مع خطوات الانسحاب ، أخرج لطفى كسرة الخبز من جيبه وبدأ إفطاره ، لاحظ كثرة المارة ودبيب الحياة بالشارع ، التقط حقائبه بعد محاسبة النادل غير عابئ بنظراته إليه ، أتجه نحو موقف السيارات وبدأت رحلة العودة أخذ لطفى يتخيل

محبوبته شريفة ومنظر بطنها المنتفخ ، فهي قصيرة همس :

- هذا هو حال الدنيا

أغمض عينيه ليذهب مع أحلامه ، كان الوقت يمر بطيئا ، مقيدا يديه على صدره خائفا أن تذهب إحداها لتصفع السائق على رأسه ليسرع ويطير بالسيارة مازال الوقت يمر بطيئا عكس بداية رحلته إلى مدينة دمياط ، استسلم للنوم ، تنبه لصوت السائق بسلامة الوصول ، بدأ متردد ، هل يركب الترام الدائري ؟ أم يأخذ سيارة الأجرة؟ فهو يريد أن يصل إلى حبيبته الأنفوشى ومنزله الهادئ في أسرع وقت ، اشار إلى سيارة الأجرة ، دلف بداخلها مكوما حقائبه ، نظر إليه السائق من خلال المرآة المعلقة أمامه ، أمره بالذهاب إلى الأنفوشى ، أخذ مراجعة حقائبه وما تحمل من هدايا وموقف امرأته شريفة بما

يحمل من هدايا تمنى وجود خالتها وأمها لمشاهدة ما يملك من نقود مرت السيارة أمام سينما الأنفوشى ، نظر إلى لوحة الإعلان الكبيرة على جدار السينما ، همس :

- عال فيلم لنجيب الريحاني غدا ندخل السينما

أمر السائق بالتوقف أمام المنزل على الناصية المقابلة للسينما ، أعطى السائق حسابه ، مسلطا نظره ناحية نافذة محبوبته شريفة كانت النافذة خالية ، أسرع في خطواته نحو المنزل ، ظهرت أم حلويات على درجات السلم ، رحبت به وهى تسرع لتدق على باب شريفة ، كان مسرورا بتصرفها هكذا فتح الباب في بطئ شديد ، أطلت شريفة برأسها ،كانت شبه نائمة نظر إلى بطنها ، وكما توقع منتفخة بارزة حتى إنه لا يرى قدميها تراجعت أم حلويات معللة وجود الطعام على الموقد ، قام بتوجيه كلمات الشكر لها ولم ينسى أن يخرج قرص المشبك وقطع الهريسة هدية عودته أغلقت شريفة الباب وكان اللقاء الحار ، حب ودموع وشوق وعتاب لطول الغياب ، سرد ظروف عمله كان منظرها مثيرا للشفقة قصيرة وبطن منتفخة واقدام لا ترى ولا تقدر على حملها ، همس :

- فكيف بالمولود القادم ؟!

تركته متجهة إلى الحمام ، عادت إليه تعلنه بأن الحمام جاهز للاستحمام

كان الحبيبان في نشوة السعادة ، شعر بسعادة شريفة وحركاتها بين الغرف والمطبخ والحمام ، كأنها عروس في أول لياليها ، أخبرته بحضور خالتها كثيرا أما أمها جاءت إليها مرة واحدة ،كما حضر شقيقها صابر لزيارتها ومعرفته بالظروف التي تمر بها ووعده بإيجاد عمل ثابت للطفى ، أستراح بعد سماعه هذه الأخبار حتى لا يفارق حبيبته الإسكندرية وزوجته شريفة ، أخبرها بالذهاب غدا إلى سينما الأنفوشى فرحت بفسحتها المفضلة بالسينما ، لاحظ متابعة شريفة لخطواته داخل المنزل تنظر مرة إلى وجهه ومرة إلى أقدامه ثم إلى صدره ، كما كانت تراقبه عند حديثه مع جارتها أم حلويات وتساءل أهي الغيرة ؟ أم الشك ؟ أم الاثنان معا ؟!!

أم وصلتها وشاية من أهله ؟ فهم دائما يسخرون منه لميله إلى أهل أمه وعمله بحرفة حقرت من شأنه أمامهم من أصابع ملطخة بمادة (الجملكة) دهان الموبيليا حتى أدى به هذا الحال من تنحيته من حياتهم العائلية أفراح وأعياد ميلاد حتى المآتم ! فقد لا يدعى لهذا الواجب أخرجته شريفة من مشهده الحزين بذهابها إلى غرفة النوم ، أراد أن يسبح مرة أخرى في مآسيه ،

تراجع ، فرك عينيه لا يريد أن ينام ، يريد أن يتمتع بمشاهدته لمنزله متجولا بين الغرف ، كان شعوره أن هناك شيء يفتقده المنزل إنه المذياع ، غدا سيقوم بالشراء ، ماركة فيلبس فهو أحسن الماركات مستعمل ، وفى حالة جيدة اطمئن إلى قراره ، ثم دلف إلى حجرة النوم

* * *

السماء تخلو من السحاب ، مياه بحر الأنفوشى هادئة حتى فكر لطفى كان هادئ صافيا ، نظر إلى السماء بابتسامته التي دائما لا تفارقه كان المشاهد للطفى يقع في حيرة أمام تقاسيم وجهه لا يفرق بين سعادته وحزنه ، لطفى الوحيد يعرف مغزاها ، كان مسرورا بالعمل الثابت في قاعدة رأس التين البحرية فقد سعى شقيق زوجته حتى ثبته في هذا العمل الدائم ، واكتملت سعادته بولادة ابنته ثريا ،كان وجهها يحمل خليط من الوجه المصري والعيون الزرقاء الأوروبية والجسد الأبيض فهي تحمل جميع صفات أهله وأهل أمها وأيضا جارتهم أم حلويات من خفة الدم واحمرار الوجه ضحك فقد قامت شريفة بإرضاء الجميع ، من أهل وجيران انتبه إلى قطعة القطن داخل قطعة القماش المشبعة بالصبغة ، واهتزاز يخت

المحروسة الملكية ، كان فرحا بالجلوس على مقعد الملك فاروق وتنقله بين الغرف ، كان كل شيء يفوح برائحة الملك اعاد ترتيب قطع الموبيليا بعد الانتهاء من تلميعها مثل قطع الآبنوس القاتمة ، نظر إلى ساعته قد قاربت على الثانية والنصف بعد الظهر وعليه الذهاب إلى الورشة وتبديل ملابسه والعودة إلى منزله ، فعمله في قاعدة رأس التين ومنزله على بعد خطوات منها كل شيء مهيئ لسعادته أمرأه جميلة عمل مستقر ومولودة بينهم بدون ولادة متعثرة على يد الحاجة نفوسة (قابلة بحرى المشهورة) اقترب من المنزل ، كانت أم حلويات تحمل ابنته ثريا على باب المنزل ، أخبرته بأن صابر خال ثريا قد حضر ليأخذ شريفة للذهاب لأداء بعض المصالح وحتى الآن لم ترجع ، نظر لأبنته ثريا وهى نائمة على كتف أم حلويات ، كان مطمئنا بوجود ثريا معها فهي تمتلك من الأولاد تسعة ومازالت تنتظر المولود العاشر، وحيرته بتسميتها أم حلويات ولا توجد حلويات بين أولادها ؟!! دلف إلى الداخل كل شيء مرتب حتى الخبز على المائدة بجانب أطباق الطعام المغطاة ، فهم أن شريفة ستعود متأخرة همس :

- كم هي ذكية !!

كل شيء مرتب ومعد ومستعدة له ، دلف إلى حجرة النوم بدل ملابسه تناول الطعام الذى أنهاه بسرعة فلا أحد يشاهده وكيفية التهامه بهذه الصورة الشرهة الجائعة التي لا تشبع أتجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي جلس بجانب النافذة أمام الشاطئ ينتظر وصول محبوبته شريفة ، تذكر المذياع ، بدأ البحث ، توقفت أصابعه على صوت أم كلثوم تغنى أنصت إليها تارك جحوظ عينيه عبر الشارع عسى مشاهدة حبيبته عند عودتها ، بدأت الشمس في المغيب ، جاء الفرج ، العربة الحنطور تقف أمام المنزل ، تهبط منها شريفة وخالتها نرجس مع حقيبة ممتلئة تحملها شريفة ، أسرع باللحاق بهن ، حمل الحقيبة ، لم ينسى أن يرحب بالخالة ، هبطت شريفة إلى أم حلويات صعدت بثريا ، اسرعت إلى غرفة النوم لإشباعها من صدرها ، جلست الخالة نرجس تسترد أنفاسها ، أشارت إلى لطفى بالجلوس بجانبها ، أخبرته بمأمورية اليوم ومدى أهميتها وخاصة لزوجته ، فتحت حقيبة اليد فهي لا تفارقها هي من أهم مراسم فسحتها وخروجها ، أخرجت رزمتان من النقود ، وضعتهم أمام لطفى ، تابعت النظر إلى وجهه حبس أنفاسه ولكن دون جدوى ، فضحته قسمات وجهه بابتسامة الفرحة لهذه النقود ، سردت له مأمورية اليوم وأن جزء من الميراث قد تم تصفيته مع صابر شقيق زوجته وانتهاء الأمر على خير

نظر إلى نصيب حبيبته شريفة ،كانت إجابته سريعة ، إيداع المبلغ بدفتر توفير باسم زوجته ، عسى أن ينفع في السنوات القادمة ، قطع الحديث صوت شريفة بالموافقة على اقتراح زوجها ، اطمأنت الخالة ، تسللت إلى الحمام ، دلف هو الآخر إلى شريفة ليخبرها بدخول الليل والإمساك بخالتها نرجس للمبيت معهم ، خرج قبل أن تلاحظه الخالة ، فتح المذياع بدأ البحث بين المحطات عسى الاستماع إلى ما يزيد بهجة هذا اليوم متابعا إلحاح امرأته على الخالة بالمبيت والتي انتهت بالموافقة وذهابهن إلى غرفة المطبخ لإعداد العشاء فاحت رائحة اللحم المحمر بالسمن البلدي ، تمايل مع نسمات رائحة اللحم ، أسرع بإعداد المائدة، أنطلق صوت ثريا من غرفة النوم بالبكاء، استجابت شريفة إليها ، جلس مع الخالة نرجس حول مائدة الطعام في انتظار شريفة ، كاد أن يلتقط قطعة من الخبز تراجع فإن الخالة ستحسبها عليه ، حبس عواطفه أمام رائحة اللحم والبطاطس المحمرة ، نظرت الخالة إليه بابتسامة فاضحة لقسمات وجهه خاصة أنفه وانتفاشه أمام هذه المشهيات ، مدت يدها بالبداء بالتهام الطعام ، مشجعة للطفى ان يشاركها ، معللة بأن مأمورية اليوم كانت شاقة عليها ، بدأ بتناول الطعام متجنبا لقطع اللحم لمحمر حتى تأتى حبيبته شريفة ، تنفس الصعداء انضمت اليهم لتنقذه من عذاب النظر إلى طبق اللحم المحمر،

جلس بجانب المذياع منتظر إحضار أكواب الشاي حضرت شريفة تحمل أطباق هريسة محلات (العصافيرى)، معقبة بأمها فهي دائما تحضرها اليهم ، دلفت حبيبته شريفة إلى غرفة النوم تبكى نظرت إليه الخالة نرجس مشيرة إليه باللحاق بزوجته ، وقف في حيرة ، كيف يبدأ الحديث مع شريفة كان مطيعا للخالة لحق بحبيبته ،خرجت الكلمات منه غير ما توقع ، قد أقنعها بكلماته وتذكيرها بأنها أصبحت امرأة مسئولة عن أسرة ولا تعتمد على أمها عليها مواجهة الأمور في بساطة وبشجاعة ، هدأت وعادت إلى الصالة ، كانت الخالة قد سبقتهم إلى النوم على الأريكة في زاوية الصالة أنسحب مع شريفة بهدوء إلى غرفة النوم

* * *

مرت أحوال لطفى بدرجة عالية من الرفاهية طعام ولحوم وفاكهة وذهاب إلى سينما الأنفوشى أسبوعيا ، نظر إلى ساعته أقترب ميعاد الانصراف من العمل كان يشعر بالقلق في هذا الوقت يشغله هذا الخاطر وهو في طريق عودته إلى منزله ، همس :

- هبوط زائرين كل يوم سعد ومصطفى أبناء عمه للاستمتاع بشاطئ وبحر الأنفوشى ، هو مناسب لهم مشروبات وطعام بغير ثمن ، فقد نشأوا معه في بيت واحد ، بيت العائلة ، أخوة له رضى أم لا يرضى كان يسعد بحضورهم وأحيانا تأكله الغيرة لعدم الكلفة بينهم وبين أمرأته وملازمتهم له وامرأته ، فقد علموا بنبأ ميراث زوجته فلا مانع من الحضور كل يوم والسهر والعشاء وتناول الفاكهة واحتساء الشاي أقترب من المنزل ، كاد يطير من الفرح ابنته ثريا تجلس على درجات السلم تنتظره أراد مفاجأتها ، لمحته وأرسلت إليه الابتسامة الملائكية، احتضنها صعد درجات السلم دفع باب الشقة أتجه بهدوء إلى شريفة بغرفة المطبخ قطعت المفاجأة ثريا أطلقت ضحكاتها انتبهت إليهم شريفة لتكتمل ضحكات ثريا بضحكاتها

* * *

الساعة تقترب من السادسة نظر عبر النافذة ، رأى ما توقع سعد ومصطفى ، ابناء عمه يقتربون من المنزل ، أتجه إلى شريفة أخبرها بالزائرين ، عاد إلى النافذة ، نظر إلى سعد وضخامته رغم أنه مازال طالبا بالحقوق ، أما مصطفى فهو

بكلية التجارة التفوا حول صينية الشاي بجانب النافذة المطلة على الشاطئ ، كان لطفى مستعدا لهذه الجلسة فقد شحذ ذهنه للحديث معهم حتى لا يشعر بالفارق بينه وبينهم ، فقد ترك دراسته في المرحلة المتوسطة بعد فراق والده لأمه ، قطع سعد تأملات لطفى:

- شريفة لم تحضر شيئا مهما

اكمل مصطفى الملاحظات :

- سندويتشات الجبن التركي

همس وهو يضحك :

- نعم فهي عزبة أبوكم

اعتدل في جلسته ، أشار عليهم بالإنصات ، كانت شريفة تراقبهم من زاوية الحجرة ، نظر إليها ، تراجعت بالاختفاء ، نظر سعد ومصطفى إلى لطفى ، أقترب منهم أكثر ، أطلق كلماته :

- هل تعلموا من كان بقصر رأس التين اليوم ؟!!

أشاروا بالنفي

كان فى القصر الملك فاروق ومعه الممثلة كاميليا في رحلة غرام على يخت المحروسة

قطع حديثه سعد :

- هذا حال بحر الأنفوشى ، منذ كليوباترا موعود بالحب والغرام

كان تعليق سعد مثل فلنكات القطارات بالابتعاد عن الحديث عن الملك أو الخوض في السياسة حتى ولوكان عن الفاتنة كاميليا ، ولكن أسرع مصطفى بالحديث :

- كاميليا يهودية ، وهناك كلام كثير عنها وعلاقتها بالمخابرات الإسرائيلية

أعجب لطفى بكلمات مصطفى الساخنة ليكمل حديثه :

- وهل المخابرات المصرية جالسة تشاهد الملك ومغامراته فقط ، لابد ان هناك محاولات لإنهاء هذه العلاقة ولكن دون إغضاب للملك

شارك سعد الذى انتشى لطفى فرحا بعودته للحديث مرة أخرى

- لابد من الدبلوماسية أن تتدخل لاستعادة الملك وعيه وهى قادرة على ذلك ، و أن هناك محاولات لقطع علاقة الملك بكاميليا ، ولكن دون إغضاب للملك ، كما أن اسرة الملك لها دور ، خاصة أن كاميليا يهودية وجميلة وفاتنة

سر لطفى بفتح الحوار ، ليشبع ذاته وانه قادر على الجلوس بين المثقفين ومجاراتهم في الحديث ، أشار سعد بفتح المذياع عسى أن يجد ما يغلق الحديث عن الملك ، تركهم لطفى ليطمئن على شريفة كانت نائمة محتضنة ثريا عاد إلى ابناء عمه ، شاهد سعد متأملا للبحر وأمواجه سلط مصطفى عينيه على لطفى ، لم يترك له فرصة للجلوس طلب أكواب الشاي ، فرح فهذه فرصته للذهاب إلى المطبخ فهو جائع ولابد من كسرة الخبز أو البحث في (النملية) دولاب حفظ الطعام ، وجد ما يريد ، قطع وشطائر الفطير مازالت ساخنة ، حمل صينية الشاي مع شرائح الفطير ، لم يجد مصطفى ، وجد سعد يجلس وحيدا ، أخبره بمرور بعض السائحين لحق بهم مصطفى كعادته ، فهو يحن إلى أهل أمه اليونانية فهو كثير الشبه بأخواله ، رد لطفى :

- هذا شئ طبيعيا على رأى ستي الحاجة (الدم يحن لسابع جد)

أكمل سعد حديثه بأن عند إنهاء مصطفى من دراسته سيرحل إلى اليونان ، إلى أهل أمه ، ولن تعرف أن تتحدث معه ، أنا عارف مصطفى ، أصله خواجة مثل أهل أمه وهم

يفرحون بذلك ويميزونه عنى ، تناول لطفى وسعد قطع الفطائر واحتساء الشاي سرح سعد مع تأملاته لشاطئ البحر

** *

بدأ انسحاب الصيف ، افترش السحاب بالسماء واكتملت بوادر فصل الشتاء بالبحر هياج أمواجه كان مناخ الأنفوشى غريبا على شريفة ، حتى أصبحت كثمرة الكرنب هي وابنتها ثريا بدأت العمل فى حشر قطع القماش بين فتحات النوافذ المطلة على شاطئ البحر مع سد أعقاب الأبواب ، كانت تفعل كل ذلك لإكمال التدفئة للشقة وتكون الأحوال كلها مهيأة للضيف القادم ، هي في الشهر التاسع من الحمل ، تنتظر بين يوم وآخر تشريفه بالأنفوشى ، انتبهت إلى دقات على باب الشقة أسرعت إلى الباب تمسك بزيل فستانها ثريا التقطت أم حلويات ثريا كان منظرها غريبا ترتدى الكثير من الثياب ، هي نحيفة طويلة القامة شال أسود على رأسها ملتفا على رقبتها متدليا على وسطها نظرت أم حلويات إلى شريفة مبتسمة على منظرها اقتربت منها وأطلقت آخر الأخبار :

- اليوم الخميس ستدخل عروس جديدة ، زوجة ابن صاحب المنزل

سألت شريفة :

- سعيد ابنه الأكبر ؟

أمالت أم حلويات برأسها بالإيجاب ، التصقت مرة أخرى بشريفة :

- أخت ميما بائع الحلوى

لم تفهم شريفة ماذا تقصد (بميما)هذا ؟ نفد صبر أم حلويات جحظت عيناها وأكملت حديثها السرى :

- لص وبائع الحشيش ، خارج من بيت خالته السنة الماضية بدأ الغيظ يملأ وجهها بسؤال شريفة عن بيت خالته ، هزت أم حلويات رأسها وأوضحت الأمر إلى شريفة بأن بيت خالته السجن ، خمس سنوات بداخله اعتدلت فهمت ما تقصده أم حلويات سيدخل المنزل زوار مشبوهين وهذا إنذار بالخطر ضحكت أم حلويات اقتربت من شريفة همست في أذنها بالخبر السيء عن العروس ، إنها جميلة ولعوب ومعروفة بين رجال (الموازينى) قد اوقعت سعيد بشباكها قطعت شريفة متعة أم حلويات بالسرد لتدخلها في متعة أكبر :

- إذن المنزل سيكون

- وأول من ستبدأ بهم هم رجال المنزل

أمسكت شريفة بيد أم حلويات :

- لطفى وأبو حلويات ؟!

ضحكت أم حلويات ضحكة المرأة الواثقة ، أجابت بالنفي معلنة بأن هذا الصنف من النساء لا يكترث إليه الرجال عندنا أيدتها شريفة مصطنعة الثقة بزوجها ، استدارت أم حلويات مصوبة بصرها إلى باب الشقة :

- العريس سعيد عنده إشقاء شباب مثل الورد مع امرأة لا ترحم معروفة بحبها للرجالة

دقت شريفة على صدرها ارتبكت أم حلويات دقات على باب الشقة كان ميعاد عودة لطفى أسرعت بفتح الباب كانت في ذيلها أم حلويات مودعة لهم أنتبه لطفى إلى خروج أم حلويات من الشقة لم تعطى شريفة زوجها فرصة أخذته إلى غرفة النوم ، وضعت ثريا بهدوء على الفراش قامت بسرد تفاصيل العروس لم يهتم لطفى بدأ في تبديل ملابسه ،همست شريفة :

- لا فائدة بالسرد طالما هو جائع

تناول كوب الشاي أمرها بإخباره عن هذه الأخبار أخفت ابتسامتها قامت بسرد حكاية العروس وأطلقت لخيالها العنان في تقديم صورة كاملة عن العروس اللعوب ومغامرات هذا

الصنف من النساء ، لم تنسى النظر إلى لطفى خلسة لترى مدى اهتمامه وإلى أي مدى سيواصل معها الحديث طلب كوب شاي آخر، ذهبت إلى المطبخ فهي تعرف زوجها وحبه بمشاهدة الأفلام الأجنبية فكم وصف لها صدر اليزابيث تايلور ووجه ريتا هي واريت ورجولة كلارك جبيل ورشاقة فريد إستير كان يحفظ اسماؤهم كأنهم أصدقاء له وابناء حارته كانت سعيدة فقد أثارت انتباهه لحديثها المشبع بالجنس ، لم تصبر بصب الشاي بالكوب حملته في البراد ومعه الكوب وعلبة السكر خرجت إليه لاحظت الابتسامة تملأ وجهه همست :

- يا ترى هل كشف سرها وعرف مدى متعتها بالحكي عن هذه العروس اللعوب

جلست بجانبه ، تناول كوب الشاي بدأت في تكملة قصتها قاطعها بمدى حزنه على العريس الشاب سعيد وأسرته المحترمة وأن سبب اختراق هذه العروس؟ هوان العريس أمه متوفية أما والده فقد كان همه وشغله الشاغل هو متابعة العمل بطاحونة الغلال ، معتمدا على أن سعيد أصبح رجلا يمكن الاعتماد عليه في اختياره لعروسه ، مكتفيا بالعناية بأخوته

من زوجته الثانية ، قطع الحديث أصوات بالخارج اعلنها بالخبر :

- أخيرا وصلت العروس

عاجلته شريفة :

- وصلت المتعوسة

ضحك مشارك لها بالمشاهدة عبر النافذة كان جمعا كثيرا من النساء والرجال ملتفون حول العروسان ورجل يرتدى ملابس صيادي بحرى يمسك في كل يد مديه تلمع طويلة السلاح ، يمثل مشاهد معركة بالسلاح الأبيض كانت شريفة تشاهد الرجل في دهشة

شرح لها أن هذا الرجل دائما يحضر ليزف افراح الأنفوشى ، فهو رجل المناسبات المشهور "حلال عليه" ، تركته جلست لتستريح ولتريح ما في أحشائها فقد شعرت بضربات تعرفها ، ضربات تنذر بقرب قدوم المولود كانت ضربات ضعيفة ، لم تخبر لطفى كما فعلت في ثريا ، تماسكت وبدأت تعد نفسها للوضع مقدرة الميعاد إنه صباحا ، رتبت ملابس المولود وأعدت ملابسها وما يلزم من أدوات داخل الحمام ، أخرجت رأسها عبر باب غرفة النوم مازال لطفى مع

مشاهد العرس اطمأنت رقدت بالفراش فغدا يوم شاق وعليها أن تستعد له من هذه الليلة

***

استيقظ لطفى على صوت الترام ، نظر إلى ساعته تقترب من السادسة صباحا ، خرج بهدوء إلى الصالة فتح المذياع على اغنيته المفضلة (أرض بلادي محلاها ملاينة وروود) ، أدار مفتاح المحطات ليكمل استمتاعه لصوت الشيخ محمد رفعت ، تناول كوب الشاي مع قطعة الخبز هم بالخروج توقف بسماع شريفة تتأوه أسرع إليها ، كانت تتألم من ضربات الطلق أمرته بإخبار أم حلويات ، ثم التوجه إلى الحاجة نفوسة (القابلة) لإعلانها بحالة الوضع ويذهب إلى عمله كان يشعر بالاطمئنان هذه المرة دس يده في جيبه تحسس قطعة الخبز تذكر الخالة نرجس فيجب إخبارها بحال شريفة فكم عنفته في ولادة ابنته ثريا وعدم إخبارها نظر إلى ساعته مازال من الوقت متسعا توجه إلى عم جمعة بائع الخردوات والحلوى أدار له رقم تليفون الخالة أبلغها بحالة شريفة واللحاق بها

اصر عم جمعة بعدم قبول أجرة المكالمة رغم إلحاح لطفى عليه وتهنئته بالمولود القادم

***

الساعة تدق الثانية عشره ظهرا مازالت الحاجة نفوسة وأم حلويات مع شريفة الولادة متعثرة الخالة نرجس تفتح المصحف على سورة (ياسين) عسى ان يأتي الفرج متابعة لغرفة النوم خرجت أم حلويات همست للخالة :

- إنه ولد ولكنه لم يتحرك والحاجة نفوسة تحاول معه

همت الخالة بالدخول إلى غرفة النوم توقفت مع صوت بكاء المولود احتضنت أم حلويات خرجت الحاجة نفوسة من غرفة النوم تبتسم متوجهة إلى الحمام تعلقت بها الخالة ناولتها ريالان من الفضة القادم صبى ولابد من تكريمه دلفت الخالة وأم حلويات إلى غرفة النوم كانت شريفة نائمة محتضنة مولودها الصغير شرحت أم حلويات للخالة بأن المولود ملتصق بكثير من بقاياه فقد تأخر في الخروج أكثر من يومان شكرتها الخالة وأمرتها بالعودة إلى شقتها فيكفى ما قدمت اليوم فرحت بكلمات الخالة اتجهت مع إلى باب الشقة وكانت المفاجأة أم صابر تقف أمامهم تحمل حقيبة ممتلئة بما يلزم

ابنتها سعدت بخبر المولود وكم عانت شريفة تركتها الخالة لإعداد الطعام فقد اقترب ميعاد عودة لطفى وإعلانه بالخبر السعيد وكذلك إطعام شريفة فكم عانت في هذا اليوم

***

مرت الشهور وبدأ لطفى يرى علامات نفاذ النقود على امرأته ، والأمر أصبح الآن مختلفا ، الطعام يطبخ (قرديحى) بدون لحم وتكرار رائحة واحدة للطعام في أيام كثيرة عنده وعند الجارة أم حلويات كان لا يهتم بل كان اهتمامه بثريا وشقيقها على ، قد بدأوا في النمو وقريبا ستدخل ثريا المدرسة وعليه زيادة دخله الشهري ، أحضر النادل كوب الشاي قبض عليه بكلتي يديه فالشتاء قارص وخاصة الجلوس في مقهى (أنح) المقابلة لبحر الأنفوشى على بعد خطوات من منزله تذكر خاله إبراهيم ، منقذه في هذه الظروف الصعبة أبتلع الشاي ثم خرج متوجها إلى خاله بمنطقة الحجا ري ، كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء كان يعرف أين يجده ، عند أمه فالخال يسكن بجوار أم لطفى وعليه الاطمئنان عليها خاصة بعد زواج ابنها لطفى عرج إلى بائع الفاكهة أخذ البرتقال البلدي كانت مقابلته لأمه محسوبة كلمات قليلة عن أحواله أحضرت كوب الشاي مع قطعة الخبز نظر إلى ساعته تقترب

من السابعة وعليه الانصراف فالخال إبراهيم لم يحضر ، هم بالانصراف انتبه إلى دقات على باب الشقة تنفس الصعداء تمنى أن يكون القادم خاله إبراهيم وكان ما تمنى الخال يقف أمامه فهم الخال وعلم أن في الأمر شيء ، أخذ لطفى من يده اتجه الخال إلى مسجد المرسى أبو العباس جلس الاثنان على درجات السلم فهو المكان المناسب لدراسة وضع لطفى بعيدا عن أعين المارة والضوضاء فهم الخال موقف لطفى وحاجته إلى العمل الإضافي توجه الخال ولطفى إلى حارة اليهود ، كانت هناك ورش النجارة شرح الخال حالة ابن شقيقته وحاجته للعمل الإضافي فالعمل الصباحى لم يعد يكفى لسد حاجة الأسرة خلال الشهر وافق المعلم سيد بعمل لطفى عنده يوميا بعد الظهيرة مع راحة يوم الأحد نظير مبلغ خمسة عشرة قرشا يوميا ولكن بشرط أن العمل سيكون أمام الورشة في رحاب الشارع وذلك لتكدس الموبيليا وسطوات النجارة وزملاؤه في التلميع لم يعترض لطفى فقد وجد ما يسد به نفقات أولاده دس الخال بعض النقود في جيب لطفى وأمره بالعودة إلى منزله بالأنفوشى ، خطوات بطيئة إلى المنزل أقدامه لا تقدر على السير نظر إلى الشاطئ المظلم جلس على سور الكورنيش بدأ يفكر كيف سيواجه امرأته بخبر العمل بعد الظهيرة ؟ هل ستقبل ؟ فهي معتادة على عودته من العمل

بقاعدة رأس التين بقصر الملك والجلوس عبر النافذة المطلة على الشاطئ أم تأخذ بحكمة (دوام الحال من المحال) تناول قطعة الخبز وبدأ المضغ ابتسم لحاله فكم يشبه الشاه في مضغ كسرات الخبز

* * *

جلس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ منتظرا لطعام الغداء فاليوم الأحد ينعم بالجلوس مع أسرته ثريا تلعب بعروستها القماش المنتفخة بقطع القماش القديم أما شقيقها على فقد امتطى دراجته ذات الثلاث عجلات كل شيء قد سار بما يرضى شيء واحد يهتز له وترتعش أطرافه كلما تذكره جارته العروس اللعوب ، أخت ميما بائع الحشيش فكم من المرات تحرشت به على درجات السلم وكم تفادى نظراتها وتشوقها لرجولته أحضرت شريفة الطعام لم يهتم بهذا الصنف المتكرر من الطعام كان فكره مع المرأة اللعوب أراد أن يشبع رغبته بنظراته إلى امرأته شريفة ولكن لم تثمر هذه النظرات ذهب جمالها وظهرت علامات شقاء الأيام وهموم أولادها ثريا وعلى ومواجهة حياة أخذت تضيق وتذكر الملك وشهواته مع

كاميليا وأخواتها وبعثرة الأموال في بقاع ومشارق اوروبا وعلى طاولات القمار وهو صاحب أسرة لا يقدر على أن يزيد قرشا واحد على دخله اليومي من ورشة بعد الظهيرة ومرتبه من عمله بالقاعدة بقصر رأس التين بل لا يطمئن حتى على دخل الخمس عشرة قرشا من الورشة أخذت ثريا تداعب أذنيه قبض ابنه على قدميه شعر كأنهم يحاولون تثبيته في موقع أسرته فلا يبتعد عنها مهما كانت الأحوال أحضرت شريفة كوب الشاي أخذت ثريا وعلى وتركته يحتسى مع سكونه ذهب مرة أخرى مع صورة جارته اللعوب كانت امرأة خليط من الإثارة والجمال كل قطعة بجسدها تهتز وتتحرك كالمتفجرات التي تطيح بكل من يحاول النظر أو الاقتراب أدار برأسه خلال حديد النافذة عسى أن يطرد ما يسيل لعابه من هذه المرأة اللعوب الشاطئ نائم مع غروب الشمس النجوم تبرق في السماء مشهد الشاطئ يوحى بعودة الصيف ارتخت أعصابه ذهبت اللعوب من دهاليز رأسه بدأ يفكر في أحوال عائلته والقطيعة بينه وبينهم نكاية به لتحزبه لأمه وعائلتها طبقة البروليتاريان الكادحة ، وإهماله من العزائم والمناسبات نظر إلى أصابعه وتراكم طبقات مادة التلميع (الجملكة) عليها فكم حاول مرارا إزالتها ولكن لا فائدة حاول العمل بقفاز ولكنه فشل ، فحرفته لابد لها أن تترك

بصماتها على كفيه ، انتفض من جلسة الكآبة ولكنها مازالت تلازمه ، تذكر أبناء عمه سعد ومصطفى ، أين هم ؟! مضى من الوقت الكثير ولم يرى أحد منهما ، هل ذهبا بذهاب نقود امرأته؟ أم بعمله طوال ساعات اليوم ؟!أو الاثنان معا ؟ حك رأسه بكلتا يديه عسى أن يذهب صداع الهموم والكآبة دلف بهدوء إلى غرفة النوم امرأته تغط في نوم عميق محتضنة كل من ثريا وعلى حاول النوم ولكن لا فائدة لم يفلح ترك الفراش مد يده ليلتحف بجاكيت العمل اتجه إلى باب الشقة خرج في هدوء نحو شاطئ البحر جلس في مواجهة منزله عاد إلى أيامه الجميلة مع شريفة ليلة عرسه همس :

- ما احلاها من ليلة !

نظر إلى نافذة جارته اللعوب كانت الأنوار مضاءة ، خيالات تذهب وتعود خلف الستائر أحس بسعادة فهو يريد أن يتسلى نظر إلى نافذة شقته ، الضوء خافت كما تركه عاد إلى متابعة شقة جارته اللعوب انطفأت الأنوار إلا غرفة واحدة كان يعرفها جيدا غرفة النوم لم تطفئ يتحرك خيال خلف الستائر فجأة تحركت ظهرت جارته اللعوب عارية كانت حركاتها مثل عارضة الأزياء توارت بغلق الستائر لم يحرك رأسه يمينا أو يسارا ولكن إلى الأمام وإلى أعلى عسى مشاهدة

خطوات الحب حتى إن كانت كخيال الظل الذى كان يشاهده ويتمتع به في أيام صباه ولكن الآن يشاهده بحلاوة أخرى اختفت الخيالات لم يتحرك من مكانه كان يريد إكمال لذته لم يفلح شعر بالبرد يخترق أوصاله وعليه العودة نظر نظرة الوداع ولكن لا فائدة

***

أمتلأ شاطئ الأنفوشى بالمظلات ونصبت برادات الشاي ونبتت الرؤوس متناثرة فوق سطح الماء وظهر غطاس الإنقاذ (رمزى) ، المشهور بمنطقة بحرى وحكاياته في الإنقاذ في الصيف أما الشتاء ، هو منقذ لكل خاتم أو ساعة أو قطعة نقود أو فردة حلق تكون من نصيبه في مياه البحر الباردة تناثرت العوامات البلدي السوداء الشعبية يتابعها عم أحمد هي رأس ماله نظير تأجيرها لفاقدي الحيلة في السباحة الجميع يلهوا في المياه فوق الرمال تحت المظلات ماعدا ثلاثة ، كانوا على الشاطئ ولكن لهدف آخر جمع قطع الخشب المتناثرة على الرمال وبين ورش صناعة قوارب الصيد ثريا تمسك بكلتا يديها ذيل فستانها الأمامي غير مكترثة بظهور ساقيها على

شقيقها وصبحى ابن جارتهم أم حلويات يقذفان بقطع الخشب في حجرها امتلأ حجر ثريا بقطع الخشب ولتنتهي مأموريتهم بالعودة إلى المنزل استقبلتهم أم حلويات كانت السعادة تغمر وجه شريفة بدأت في إعداد كانون الخشب في زاوية مدخل المنزل أحضرت أم حلويات وعاء الكيروسين قطرات منه فوق الخشب اشتعل الكانون بدأت شريفة في شواء السمك البلطي صغير الحجم الممتلئ بالبطارخ يطلقون عليه أهل بحرى (بالخنانى الملبس) أعطت أم حلويات لثريا وعلى وصبحى ارغفة الخبز أمرتهم بالجلوس في انتظار أول دفعة من الشواء كانت شريفة منهمكة في الشواء تريد أن تنهى عملها على خير قبل عودة لطفى أو حضور خالتها نرجس لترى هذا المشهد المأسوي لابنة الحسب والنسب قد اضطرت للاقتصاد من المصاريف و انضاج الطعام على الكانون لتوفر بعض القروش غير مكترثة بزحف ادخنة النار على وجهها لتدبر شراء ما يلزم من تاجر النوتة الأسبوعية فالخالة نرجس و أم صابر قد نفدت أموالهم بعد هروب زوج أمها بما لديهم من أموال

***

بدأت طلبات ثريا وعلى تتراكم على شريفة وزوجها لطفى حتى اضطرت بالذهاب إلى شقيقها صابر وعرض احوالها وأحوال أسرتها كانت المقابلة فاترة من صابر وقاسية عليها من أخ وحيد يعيش حياة رغدة ولكن امرأته لا تشبع قام بوداعها مع وضع جنيهان في يدها على درجات سلم (الترام) اقتربت من محطة مصر شاهدت محل (العصافيرى) الحلواني تفوح رائحة السمن البلدي وتنتشر بين نسمات الهواء لم تفكر في الشراء فهناك أمور تحتاج إلى هذه النقود وصلت أخيرا إلى الأنفوشى اتجهت إلى المنزل تجر اقدامها تحمل خيبتها من مقابلة الشقيق صابر، كان الوقت مبكرا لحضور لطفى أرادت أن تستريح فالطعام جاهز جلست بجانب النافذة مع دموعها

* * *

شهر أغسطس الحر يمتلك أحوال الناس فلتان في الأعصاب فلتان في ملابس النساء كان لطفى يرى الصيف بالشاطئ من خلال حديد النافذة فستان على اللحم بنت بحرى

تظهر مفاتنها من خلال الملائة اللف كأنها لا تلبس شيء أخرى ترتدى الفستان القصير ولا شيء يحكم نهديها من التحرك والهز همس:

- أه من الصيف!!

كانت شريفة وثريا وعلى في الشاطئ مع أم حلويات رغم إنه يوم الأحد ولكن تحت إلحاح أم حلويات وافق على ذهاب أسرته مع اسرتها إلى الشاطئ كانت الشقة هادئة إلا من خطوات جارتهم اللعوب أخذ يتسلى بمتابعة صوت خطواتها في الحمام حجرة النوم ثم تسكن وتهدأ لتعود مرة أخرى سرح لطفى مع خياله لماذا الحمام ؟ ثم حجرة النوم فزوجها لم يحن ميعاد حضوره فدائما يأتي متأخر ليلا سكنت الخطوات تنبه بدقات على باب الشقة أسرع في فتح الباب المرأة اللعوب تدفعه إلى الداخل وتغلق الباب جمد في مكانه كلوح الثلج فتحت الروب ليرى ما كان يتلصص عليه دفعته مرة أخرى إلى الوراء حبس أنفاسه أراد أن يفر عجز عن التحرك أسقطت الروب وهجمت عليه كانت شرسة في تعاملها معه لم يقدر على المقاومة لا يدرى كيف يتصرف أخذت تناوش رجولته مازال بارد كاللوح الثلج أصرت على اغتصابه وأصر هو على عدم إجابتها ولكن كانت تعرف خطواتها

أخيرا تحركت رجولته أخذت ما تريد ظهر الإشباع على وجهها مسحت شفتيها اختبأت داخل الروب خرجت من الشقة وهى تنظر إليه استجاب لنظراتها لم يقدر على التحرك من مكانه نظر إليها وهى تبتعد ماذا كان يريد ؟ هل الرغبة مرة أخرى أم أراد أن يضع يده على رقبتها وينهى هذا العذاب أخذ يرتعش من متعته المحرمة نهض إلى الحمام يدلك جسده بقوة أرتدى ملابسه خرج لا يعرف أين يتجه؟ ترك أقدامه تقوده فلا حيلة له أخيرا وقف أمام مسجد سيدى ياقوت العرش كانت الشمس قد بدأت في المغيب ، صعد درجات السلم توجه إلى الميدة توضأ كانت قطرات الماء تمتزج مع دموعه ذهب إلى مقصورة قبر الشيخ اندس بين مريدين المقصورة تساءل هل هم مثله في متعته المحرمة وحضروا للتوبة ؟ نظر إلى رجل يمسح وجهه بقضبان المقصورة النحاسية آخر يحك ظهره قطع الصمت إقامة الصلاة أنهى صلاته انتابه الشعور بالهدوء توجه إلى الأمام سرد عليه حكايته تفرس الإمام في قسمات وجهه ثم أخرج كلماته كطلقات المدفع:

- أنت السبب في كل ذلك كنت تريد هذا الأمر، همس :

- يا له من شيخ أهو مثل شيخه الراقد في المقصورة له بركات

أكمل الشيخ :

- وعليك أن تترك هذا المكان إلى سكن آخر لتبتعد عن هذه المرأة هي لن تتركك أبواب السماء مفتوحة للمغفرة وأنت رجل طيب اذهب واعزم على البحث عن سكن آخر

شكره لطفى ومد يده مودعا للشيخ كانت يد الشيخ تحمل بعض النقود دسها في يده أخذها لطفى دون أن ينبس بكلمة واحدة خرج من المسجد ومازالت حيرته تمتلكه

* * *

مرت الأيام على لطفى كسوط يهوى بعدد الأيام على ظهره كان يتلوى في فراشه عذبته متعته المحرمة أخذ يبحث عن سكن آخر دون علم شريفة ولأول مرة يستغنى عن مشورة خاله إبراهيم كيف يحدثه بهذا الفعل المعيب ؟! نظر من النافذة شاهد ابنه على وهو يلعب مع الأولاد

يرددون كلمات يتوارثها الأطفال فكم رددها لطفى في صباه أخذ يستمع

- على عليوة يلى ضرب الزميرة يلى ضربها قلبي يلى قلبي رصاص

يلى

احمد رقاص يلى رقاص على مين ؟

يلى على شاهين يلى

شاهين ما مات يلى خلف بنات يلى خلفهم تسعة

يلى قاعدين على القصعة يلى

وأخويا فيهم يلى عوج طربوشه يلى من كتر فلوسه يلى

توقف لطفى عند وأخويا فيهم من كتر فلوسه تذكر أخاه سالم فهو مازال عازب لم يتزوج يسكن مع شقيقته جميلة بمحرم بك هي قد امسكت بزمام أخوها لتربطه بها لتستفيد من دخله الشهري لم تلفظه عائلة لطفى مثله فقد اختار الانحياز إلى والده وترك أمه تغوص في قاع اهلها ، كان له الحظ والعناية من اكتساب خبرة والده في مضارب الأرز خرج لطفى بقراره الذهاب إلى محرم بك وطلب المعاونة مهما كان الأمر أسرع في ارتداء ملابسه بعد احتساء كوب الشاي مع كسرة الخبز فرح لطفى بمقابلة أخاه سالم وعائلة شقيقته جميلة

تسامر مع محمد بك ، زوج جميلة فهم تربو سويا في بيت واحد انفرد بالشقيق سالم شرح له ظروف معيشته وبحثه عن سكن آخر معلل أن الشقة غير صحية ورطبة على الأولاد كان سالم يستمع إليه غير مكترث فهم لطفى أنه لن يساعده وكان ما توقع معتذرا بأن دخله يذهب إلى شقيقته جميلة وأسرتها ، مذكرا لطفى بولع محمد بك بمراهنات الخيل ، وكثيرا ما يعود إلى بيته خائب خاسر لمرتبه مما يضطر سالم بتحمل مسئولية جميلة وأولادها هز رأسه فقد أمسك أخوه بأهم الأسباب قناعة بعدم القدرة على مساعدته عاد إلى الأنفوشى يجر قدميه خافضا لرأسه لا يعرف كيف يتصرف استقرت قدماه في نفس المكان الذى راقب فيه المرأة اللعوب الست مصيبة جلس ولكن ناظرا إلى البحر ، سرح مع أمواجه عسى أن يهتدى إلى حل لم يمكث كثيرا على هذا الحال اهتدى إلى الحل لا توجد فائدة من الرحيل إلى سكن آخر أليس من الممكن أن يسكن في مكان آخر وتقابله ست مصيبة أخرى؟!!لابد من نقل حياته من أجساد النساء الغضة البيضاء والقناعة بحبيبته شريفة والاهتمام بأولاده فعليه أن يجاهد أخرج ضحكاته بصوت عال فلا أحد بالشاطئ نهض وأنهى جلسته المغلقة متجها إلى المنزل ، عمد بغض النظر عن نافذة الجارة اللعوب كانت الشقة هادئة لم تشعر به شريفة، نظر إلى غرفة النوم ،

كانت شريفة منفردة بالفراش تراجع في هدوء إلى الغرفة الأخرى أطمأن ثريا وعلى يغطان في نوم عميق غمرته نشوة معاشرة حبيبته شريفة ، فالفرصة مهيأة له بما يحب بدل ملابسه أتجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي مع كسرة الخبز جلس يستمع إلى المذياع كانت نشرة الأخبار أهتم بالسماع فما زال يعشق السياسة وأسرارها كان هناك بيان يتلى ، اصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن ليبيا واستقلالها من معاهدة الصلح مع إيطاليا المبرمة عام 1947 م ، لتصبح ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة كانت التفاصيل كثيرة تخص الناحية التنظيمية ، من وضع دستور وتأسيس حكومة بواسطة ممثلي السكان في برقة وطرابلس وفزان ، مجتمعين في هيئة جمعية وطنية أعجب بالقرار التاريخي وتوافقه مع قراره هو أيضا بالمصالحة في حياته مع حبيبته شريفة أغلق المذياع توجه إلى النافذة المطلة على الشاطئ ، لم ينظر إلى البحر كان بصره مسلطا على قصر رأس التين حيث يوجد الملك فاروق وحاشيته ، همس :

- هل سيأتي اليوم بزوال الملك وعهد جديد لمصر؟

توجه إلى غرفة النوم ليوفي بوعده التاريخي

* * *

مضت الشهور بعد أن أوفى لطفى بوعده التاريخي مع حبيبته شريفة بغرفة النوم لم تشعر شريفة بآلام الحمل كما كان الحال مع ثريا وعلى ، رغم انتفاخ بطنها الكبير ، كان حملا سهلا ولكن كان هناك شيء واحد يقلقها عدم الشعور بحركة في بطنها كان عليها سؤال جارتها أم حلويات ، كان الرد قاسيا :

- ان من الممكن أن يكون المولود القادم به عيوب تمنعه من الحركة

اهتدت شريفة لكلمات الخالة نرجس ، بأن في هذه الحالة ، يجب تناول مزيج من الماء بماء الورد اسرعت وتناولت المزيج كانت تريد الخلاص من توترها ، جلست بجانب النافذة المطلة على الشاطئ عصبت رأسها بالمدورة البيضاء لم تنسى بوضع يدها على بطنها مر الوقت لم تشعر بحركة في بطنها زاد توترها ارتعشت يدها اليمنى احست أن كل شيء يدور حولها أسندت يدها على الحائط متجهة إلى جارتها أم حلويات كانت مترددة خوفا من حضور زوجها بائع الخضار هي تكره نظراته الحادة وتعاريج وجهه الممتلئة بحرارة

الشمس ولكن لامفرمن الاستعانة ، لبت أم حلويات لندائها أخبرتها باحتساء كوب الماء المخلوط بماء الورد ولا فائدة ضحكت أم حلويات ضحكة الواثقة بنفسها بأنها لم تضع ملعقة من السكر بالمزيج أسرعت شريفة إلى المطبخ ، تناولت المزيج عمدت أم حلويات بإخراج شريفة من توترها أمالت برأسها على أذن شريفة أخرجت السر الدفين :

- الرجل الدرويش ، جارنا بائع البخور والسبح تزوج من غازية من طنطا كل يوم مشاكل

خناقات مع ست الحسن الغازية ، تخرج بدون إذنه يصبحها بعلقة ويمسيها بعلقة

انطلقت شريفة بالحديث تاركة مولودها ومشاكله إلى مشكلة الشيخ الدرويش :

- أليس من الكفاية علينا الست العروسة أخت ميما بائع الحشيش ، يأتي الدرويش بغازية!!

هزت أم حلويات رأسها مع مصمصة شفتيها لتزيد من احمرارها انتفضت شريفة أمسكت بيد أم حلويات تشاركها في الإحساس بحركة الضيف القادم استعادت شريفة ثقتها بالاطمئنان على ما تحمل في أحشائها همست:

- يكفى أجرة القابلة نفوسة

ودعت أم حلويات حتى باب الشقة وهى تبالغ في شكرها أغلقت الباب توجهت إلى النافذة المطلة على الشاطئ شاهدت على وثريا يهرولان الخالة نرجس وأم صابر تحمل كل واحدة منهن حقيبة ممتلئة تعلق على برقبة جدته أما ثريا حاولت مساعدة الخالة نرجس في حمل الحقيبة قفزت شريفة إلى الخارج لم تساعد في الحمل بدأت بصب عبارات العتاب للخالة والأم هدأت بالاستماع للخالة ونبأ زواجها واستقرار أم صابر معها جلس على بحجر أم صابر أما ثريا فجلستها المفضلة في حجر شريفة نظرت الخالة إلى بطن شريفة المنتفخة لم تتفوه بكلمة كانت لغة العيون بالعتاب على الحمل قطع الصمت دقات على باب الشقة هربت شريفة من نظرات الخالة لتستقبل زوجها لطفى رحب لطفى بالخالة نرجس والست حماته كانت ملامحه فاضحة لسعادته شاهد الحقائب الممتلئة بما لذ وطاب كما سر بمكوث الخالة والست حماته عدة أيام أنسحب إلى غرفة النوم بدل ملابسه جلس مع الست حماته همت الخالة وشريفة بإعداد الطعام كان يستمع إلى حماته وحديثها عن إرث وأملاك لزوجها بالشام ولا تجد من يعاونها سرح في حديثها وتذكر المثل " التاجر لما يفلس يبحث في دفاتره القديمة " كان يوم هادئ غاب عنهم شهورا كثيرة علم بنبأ زواج الخالة نرجس من سائق شاحنة ، ودائما

على سفر ، مما يجعل الخالة والست حماته في زيارات مستمرة عندهم بالأنفوشى غمرته السعادة فهناك مولود قادم ويجب المساعدة اقتربت الساعة من منتصف الليل دلف لطفى إلى غرفة النوم معتذرا ثم لحقت به امرأته شريفة

* * *

البحر يقذف أمواجه طائر النورس الأبيض يداعبها ثم يهدأ سطح الماء فيخترقها طائر النورس خارجا بمنقاره بما رزقه الوهاب كان المنظر يمثل لوحة طبيعية كما زاد من جمالها سقوط الأمطار لتتوحد السماء مع البحر بعيدا عن ناقصات الإنسان هكذا كان لطفى يتمتع من وراء قضبان النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشى بهذا المشهد الرباني ألتفت إلى شريفة كانت جلستها توحى بمدى توترها فهي على وشك الوضع تذكر مفكرة الجيب هي صندوق أسراره أخرجها من بدلة العرس التي مازالت شريفة محتفظة بها في كيس من القماش القطيفة أتجه إلى النافذة راجع تاريخ زواجه وميلاد ثريا وعلى قريبا سيدون ميلاد الضيف القادم همس:

- لماذا دائما مع امرأته يتحدثان عن المولود باللغة الذكر حتى اولاده ثريا وعلى ؟!!

نظر إلى شريفة حدثها بخواطره كانت إجابتها تدل على فراسة المرأة وخبرتها

- سمعت جدتي تصف المرأة الحامل بالذكر انتفاخ الوجه وذهاب جمالها ، حتى وإن كانت جميلة جدا أما الحمل بالأنثى ، فإن المرأة تصبح أجمل مما كانت حتى وإن كانت دميمة مع روقان للوجه ولمعان في العينين

ضحك لطفى مقاطعا لها :

- إذن القادم ولد

ضحكت ثم تحول الضحك إلى آهات متتابعة فهم لطفى الموقف أخذ بيدها إلى غرفة النوم أمسك مفكرته سجل بالقلم الكوبية ، تاريخ هبوط الضيف المولود لملوم هبط إلى أم حلويات أخبرها بحال شريفة توجه إلى الحاجة نفوسة القابلة

* * *

الشمس في طريقها للمغيب البرد قارص عرج لطفى إلى سوق الميدان مخترقا لشارع (الحجارى) ثم إلى شارع (الموازينى) كانت النقود قليلة أكتفى بشراء الجبن الفلاحي

والفجل الورورالمعمم بالرؤوس البيضاء الناصعة ثم لترين كيروسين والعبوة الهامة الشاي لملم مشترياته ثم عاد ادراجه صعد درجات السلم لاحظ الباب غير مغلق خرج صوت بكاء المولود وثريا وعلى يقفزان من الفرح يخبراه في صوت واحد :

- لملوم وصل !!

خرجت أم حلويات والحاجة نفوسة القابلة يصفن له قسمات وجه لملوم ، بما تحمل صفات أهل الشام أهل حبيبته شريفة لم يصبر دلف إلى حجرة النوم علامات الفرحة تملأ وجه امرأته خلاف فرحتها بقدوم ثريا وعلى همس :

- إذن هذا المولود ، أسعد أمه من أول يوم!!

أما هو كانت فرحته فرحتان فهو لم يشارك حبيبته شريفة في عذاب الوضع وليس هناك مصروفات غير أجرة الحاجة نفوسة القابلة أغتم لطفى فلا يوجد معه غير القليل من النقود انتبهت أم حلويات إلى موقف لطفى أخرجت جنيهان ناولتهم للحاجة نفوسة القابلة التي أسرعت بالرحيل أستأذن لإجراء المكالمة التليفونية وإخبار الخالة نرجس والست حماته بدأ يردد في الطريق :

- لملوم وعلى على ولملوم لملوم وعلى على ولملوم

***

جلس لطفى بورشة النجارة بقاعدة رأس التين ، كان في حيرة من الهدوء الذى يحيط بالقاعدة وقصر الملك ، عكس الشهور الماضية ، كانت هناك رتب عسكرية وتشريفات ووزراء يرتادون قصر الملك أخرج مفكرته نظر إلى تاريخ ميلاد ابنه لملوم واليوم الخامس عشر من يوليو عام 1952م ، أغلق المفكرة مرت الساعات أبدل ملابسه متجها إلى منزله أخذ طريق كورنيش الأنفوشى سماء صافية البحر هادئ أصر على الجلوس أمام المنزل ، لم ينظر إلى نافذة شقته نظر إلى نافذة المرأة اللعوب كانت مغلقة لم يتحمل حرارة الشمس ، أتجه إلى المنزل كان اليوم هادئ أخذ في مراجعة مشاهد القاعدة وقصر الملك وزائرين القصر مع عدم وجود الملك فشل في الوصول إلى نتيجة لما يجرى انتبه لصوت عبر النافذة شاهد عم جمعة صاحب محل الحلويات ، يقف مع بعض الرجال يلتحفون بشالات أهل الصعيد ملتفين حول الشيخ عطوة الدرويش بائع السبح والبخور ملتحفا بشاله الأخضر الداكن المطرز باللون الأسود في آخره ، لا تظهر غير عيناه ،

أما لحيته وشاربه فقد تشابك سوادهم مع لون الشال أرتعش من نظره الشيخ إليه كانت نظرات الشيخ عطوة الدرويش يعرفها ، فكم من أمثال الشيخ يملكون الفراسة تسمرت عيناه على لطفى ، شعر بالبرودة في جميع أطرافه خشى أن يفضحه ويعرف سره الدفين مع المرأة اللعوب انتبه إلى دقات على باب الشقة كانت أم حلويات أشار إلى المطبخ دهشت شريفة من التوتر الواضح بوجه أم حلويات أمالت على شريفة وأخبرتها بالخبر الرهيب لم تصبر تركت أم حلويات وأسرعت إلى لطفى لتعلنه بالخبر العاجل :

- الشيخ الدرويش قتل زوجته الغازية أكتشف خيانتها والجميع يعرف ويلتزم الصمت والآن يستعدون للذهاب إلى المقابر أرتعش قلب لطفى من نظرات أم حلويات نظرات قريبة الشبه من نظرات الشيخ الدرويش هل عرفت سره وما فعل مع المرأة اللعوب ؟! قطع نظرات أم حلويات بالذهاب مع الرجال والمشاركة في الجنازة اعترضت شريفة وأم حلويات اطمأن إذا أم حلويات لم تعرف شيء عن مصيبته مع جارته المرأة اللعوب وإلا كانت دفعته لمشاهدة مصيره تركهم ودلف إلى حجرة النوم تمدد على الفراش سرح مع المرأة اللعوب ومتعته راوده السؤال :

- ماذا تفعل الآن ؟ هل علمت بخبر الشيخ الدرويش مع زوجته الغازية وقتلها ؟

جلس أعتدل في جلسته أخذ يردد :

- الغازية وليس عشيقها

أسترخى وتمدد بالفراش

اغلق عينيه

وهو يردد :

- الغازية وليس عشيقها الغازية وليس عشيقها

***

نهض كعادته مبكرا توجه إلى المطبخ أعد كوب الشاي مع كسرة الخبز انتهى من ارتداء ملابسه قبض على كوب الشاي جلس بجانب النافذة المطلة على الشاطئ كان منظر الكورنيش غريبا قوات عسكرية مدافع تجرها عربات بدأ يشعر بالاقتراب من استكمال المشهد الغامض بحال قاعدة رأس التين وقصر الملك خرج من المنزل أسرع في اتجاه عمله داخل القاعدة أعترضه أحد العسكر، أخرج له تحقيق

شخصيته بعمله داخل قاعدة رأس التين تركه الجندي في مكانه متجها إلى إحدى العربات العسكرية تابع الحوار بين الجندي وأحد الضباط نهره الضابط وأمر بعدم دخول أي مدنى غير عسكري إلى القاعدة ، حتى وإن كان يعمل بها أعاد الجندي تحقيق الشخصية إلى لطفى مرتبكا عاد أدراجه ولكن إلى أين يذهب ؟ مازال الوقت مبكرا أتجه إلى شارع زاوية خطاب فهناك أولاد عمه سعد ومصطفى صعد درجات السلم دق على باب الشقة لم يجب أحد رفع صوته بالنداء ولكن لا فائدة ولا مجيب عاد إلى الشارع ترك لقدماه الحرية وقف أمام مقهى فاروق شاهد جمع من الناس داخل المقهى ، يلتزمون الصمت أمام المذياع كان بيان يتلى من صوت جاد خشن وقويا:

- بيان من الضباط الأحرار بإعلان تنازل الملك فاروق عن عرش مصر لابنه ونفيه خارج البلاد.

انقسم الجمع إلى مؤيد ومعارض حتى وصل الحال إلى درجة المشاحنة. أسرع النادل بغلق المذياع. خرج من المقهى منتشي بقدرته على ملاحظاته في الأيام الماضية وبما يدور بقصر الملك والقاعدة برأس التين ومشاهدته لرئيس الوزراء بالقصر وتعيين وزير حربية جديد منذ أيام قلائل. التفت إلى قلعة قايتباى مازالت شامخة فاتحة صدرها لعرض البحر، غير

عابئة بما يجرى بجوارها من أحداث. الأمواج تتلاعب من حولها، ولكن مازالت صامدة. نظر إلى السماء وهمس:

- يا هل ترى هل ستصمد مصر بما يجرى بها من أحداث؟!!.

أعطى ظهره للبحر كان أمامه مسجد الأباصيري. تخطى الشارع. دلف إلى ميدة الوضوء أسبغ الوضوء تناول المصحف، جلس بجانب المنبر. كان بجانبه حلقة من الشيوخ، بأوسطهم شيخ كبير يتحدث:

- هذا انقلاب على الملك، ليس بثورة، فالثورة لابد من مشاركة شعبية لها.

رد عليه شيخ شاب يكاد وجهه ينفجر من شدة احمراره:

- يا سيدي هذه ثورة. أليس هؤلاء الضباط والجند من الشعب؟!!.

هز زملاؤه رؤوسهم مؤيدين لقوله

قاطعه الشيخ الكبير:

- لا ليس الشعب كله قوات مسلحة، فهؤلاء الضباط على درجة من الراحة والرواتب الجيدة. إنما الذي دفعهم لهذا العمل، الدافع الوطني لما شاهدوه من الملك، قضية فلسطين،

الأسلحة الفاسدة، أليس الملك منذ سنوات يعربد ويصرف الأموال على الراقصات الأجانب. ألا تتذكروا كاميليا الممثلة واحتراق الطائرة بها؟!!.

- إنها يهودية يا فضيلة الشيخ!!

تدخل شيخ آخر:

- كان الملك سيتزوجها خارج مصر!!.

رد الشيخ الكبير:

- نعم، ولكن كان هناك رجال مخلصين لمصر وللملك

رد شيخ آخر:

- لكن يا فضيلة الشيخ، أليست الملكة هي التي دبرت كل شيء من وراء ظهر الملك؟!!.

أيده الشيخ:

- نعم كان من المفروض على الجيش أن يتدخل قبل الملكة وقبل أسرته. ولكن الجيش لم يتحرك إلا في وقت رأى أنه سيهان ويطرد رؤساؤه وقادته. لذلك هذه ليست بثورة ولكنها انقلاب عسكري، وعسى أن يكون في مصلحة الشعب ومصلحة مصر.

استمع لهذا الحوار، وكم كانت سعادته!!. بهذه التوضيحات، فقد أعطته أبعاد هذه الحركة الثورية ومدى تأثيرها على الناس، الآن يقدر أن يتكلم ويحاور، خاصة مع أبناء عمه، سعد ومصطفي. دلف إلى الميدة. جدد الوضوء، استعدادا للصلاة لم ينسى أن يمر على مقصورة قبر سيدي الأباصيري الملاصقة بالمسجد بالخارج شاهد خادم المسجد يمسك في يده بسلك رفيع، يدخله في صندوق النذور ويخرج بعض النقود الورقية ويدسها في جيبه انتبه الخادم لوجود لطفي واكتشاف أمره ارتبك لطفي ماذا يفعل؟ هل يذهب إلى الأمام ويخبره؟ لم يعطى الخادم فرصة للتفكير. تقدم نحوه. شرح للطفي أنه في حاجة شديدة إلى بعض النقود لأسرته ولابنه المريض، ولا سبيل غير ذلك التصرف وكله خير في الصندوق خير أو في يد المحتاج مثله دس في جيب لطفي بعض النقود وأنصرف

* * *

" ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد"

لم ينسى لطفي التغني بها رغم مرور ما يقرب من أربع سنوات على الثورة أو الانقلاب كما قال الشيخ، كان في طريق العمل بقاعدة رأس التين بقصر الملك. كانت توجهات الثورة أن العامل يأخذ مكانه ومكانته في المجتمع. نظر إلى أصابعه تكسوها طبقة " الجملكة" طلاء الموبيليا. شعر بالسعادة فأخيرا أصبح لهذه الأصابع بصمة في المجتمع. نظرة عائلته تغيرت، حتى أصبح هناك تواصل متواضع معها. فهو مازال فقيرا كادح لتربية أولاده. وهم أغنياء. حتى أنه علم أخبار لقاءات وأعياد ميلاد، مع التوصية بتجنب حضوره بينهم. كان لا يهتم بذلك، حيث همه أن يكون على ود مع العائلة مهما كان الأمر. هكذا سمع الشيخ الأمام يوصى بصلة الأرحام. أنهي تلميع الموبيليا بمكتب رئيس الجمهورية، بقصر رأس التين كان المشهد مختلفا عن الماضي فلا رائحة خمور ولا روائح نسائية كل شيء كان منظما بدلت صور الملك وأسرته بصورة الرئيس، كما أخذت حجرات القصر حظها من الحداثة. أزيل رمز التاج من على الحواط ، وعلقت صور زعماء مصر. أحمد عرابي. مصطفي كامل. محمد فريد. سعد زغلول. تأهب لطفي للعودة، فقد اشرف ميعاد العمل على الانتهاء. لم ينسى أن يأخذ قطع الجبن (النستو) من زملاؤه البحارة. فهم يعرفون مدى محبة لطفي لابنه لملوم. فهو حديثه المفضل معهم. وأن

هذا الغلام سيكون له شأن كبير ومهم. كان واثقا من حديثه عن لملوم. فدائما يراقب تصرفاته مع أمه شريفة. وتميزه بين صبية الشارع وأبناء الحارة. فدائما يتولى زمام القيادة، منتحلا أدوار الفرسان. يد س رأسه داخل قرطاس من الورق مثل البطل الروماني(سبارتاكوس) متقلدا بسيفه الخشبي، وإلحاحه على أمه شريفة بصنع قناع يضعه على عينيه مثل زورو وعباءته السوداء. يجرى ويقفز بين رصيف منزله ورصيف سينما الأنفوشي. كما سمح له بدخول السينما في أي وقت، بأوامر من الحاج إبراهيم صاحب السينما. كما اكتسب لملوم حب عم عزت قاطع التذاكر وعم على مديرها الجميع يحبه ويتركون له حرية الدخول للمشاهدة المجانية. ثم يخرج للشارع مقلدا لما شاهده من أفلام، اقترب لطفي. شاهد لملوم يجلس على رصيف السينما. لم يلاحظ وجود والده. اقترب لطفي أكثر، كان لملوم يقبض على أغطية زجاجات المياه الغازية.

السينالكو. السباتس. الصودا. الكاكولا. يدق الأغطية بحجر، ثاقب بمسمار في منتصف الغطاء ثقب، ثم يدككها في رباط من المطاط. انتبه لملوم بوجود والده خلفه. ضحك لطفي. عرف ما يفعل سأله:

- أين مكر الخيط؟

أخرج لملوم المكر من جيبه، ثم وضع حلقة المطاط المدكك بأغطية زجاجات المياه الغازية حول المكر متخذة شكل إطار السيارة قبض لطفي على يد لملوم متجها نحو المنزل كانت ثريا تجلس في ركن الحجرة تكتب الواجب المدرسي، متخذة من مائدة الطعام القصيرة المستديرة، التي فضلها دائما لطفي مبتعدا عن مائدة طعام أهله الارستقراطية بحث لملوم بين المتروكات عن عصا لتكملة عجلة المكر نهرته أمه وأمرته بالانتظار حتى يستريح والده لم يعطها لطفي قطع متعة ابنه لملوم، نظر لملوم إلى أمه ما كان عليها إلا أن تنسحب تاركة لزوجها مع حبيبه لملوم اكتملت اللعبة. قفز إلى الشارع اتجه لطفي وشريفة

وثريا لمشاهدة لملوم من النافذة يلعب مفتخرا بين أصحابه. تناول لطفي وجبة الغداء. أخذ يرتشف الشاي. كانت ثريا تراقبه ضحك مشيرا إلى كوب الشاي:

- ما هذا؟

أجابت بكل ثقة وهي تضحك:

- فاكهة الفقير.

ابتسم لإجابة ثريا والتي توارثها هو الآخر من والده. أكمل احتساء الشاي. خرج من المنزل متجها إلى ورشة عمل بعد

الظهر بحارة اليهود لمحه لملوم. نظر إليه وهو يبتعد. كان كل منهما ينظر إلى الآخر. فهم لطفي نظرات لملوم أخرج قرش السلطان حسين المثقوب، التقفه لملوم متجها إلى عم جمعة بائع الحلوى. سار منتشي بسعادة ابنه لملوم.

***

جلس لطفي يحسب عمر ابنه لملوم. كان السن لا يناسب التربية والتعليم، ولكن من الممكن الالتحاق بالمعاهد الأزهرية. عرض على حبيبته شريفة فكرته. أيدته. كان والدها يحمل العالمية من الأزهر الشريف. وسيكون لملوم عالم من علماء الدين يحترمه الناس. اطمأن. غدا يذهب إلى المعهد الديني بجانب مسجد المرسى أبو العباس.

كان لملوم يذهب إلى المعهد الديني، مخترقا لشارع الحجاري ثم شارع الموازينى، إلى ساحة المرسى أبو العباس يصل أخيرا إلى المعهد، وسط أبخرة الفول المدمس ورائحة الطعمية بمطعم الحاج عامر أمام المعهد. لم يأبه بحقيبته الثقيلة بالكتب الدينية وقماشها العبك. المزودة بالحمالتين. يضعها فوق منكبيه. فلا يشعر بثقل ما يحمل من كتب الدين. كان ما يقلقه.

هو صياح أمثاله من التلاميذ. ملتصقين بأمهاتهن لا يتركونهن للدخول إلى المعهد يبكون، أما هو فيذهب وحده إلى المعهد. كان المعهد بيت عتيق محطم من الداخل. درجات السلم خشبية. الفصول تفترشها الرطوبة. إضاءة باهتة. واكتملت الكآبة فضيلة الشيخ يحمل قطعة الخيزران القصيرة الغليظة مثل الشيخ، كعفريت من الجان بين يدي الشيخ صاحب النظرات المشتعلة.

كان في أول اليوم حصتان لقراءة القرآن الكريم، ثم حصتان للحفظ. أما باقي الحصص، فلا أهمية لها غير اللعب داخل الفصل الرطب العفن حائطه ينتهي اليوم. وتبدأ العودة مخترقا حي السيالة، متجها إلى الكورنيش، حتى يصل إلى منزله.

كانت الايام تمر على لملوم في بطء شديد واكتملت بالهم الجاثم على صدره ، أوامر الشيخ للملوم وزملاؤه بالحضور باكرا ومع كل منهم وعاء وكيس ، فهناك معونة قادمة للأزهر الشريف سمن ولبن جاف ، حضر لملوم في الصباح مستعد لحمل الهدايا الثمينة لأمه فنجان من الزنج، أعطته له أمه على قناعة بأن كمية السمن ستكون قليلة، وكيس من الورق للبن الجاف، كانت الطامة الكبرى. الشيخ يصب السمن للملوم لم

يقدر حجم الفنجان الزنج، قطرات السمن تتساقط على جبته وجلبابه الأزرق. كان اليوم الأسود لملوم. علقة ساخنة بالخيزران العفريت وشرر عينيه المشتعل نارا وغضبا. منع عن لملوم السمن واللبن الجاف. عاد مطأطأ الرأس بائس لا يدرى بماذا يخبرهم بالمنزل علمت شريفة بتصرف الشيخ. أخفت قسمات الحزن باحتضان لملوم في صدرها. أما لطفي كان له موقف آخر. الذهاب إلى عائلته بمحرم بك ليستمع إلى النصيحة في استمرار لملوم في المعهد الأزهري. كان استقبال أخته جميلة وشقيقها سالم بالسخرية بسبب إلحاق ابنه لملوم بهذا المعهد الأزهري. ندم لطفي بالذهاب إليهم. فأنهم يتشبهون بالخواجات يحتسون البيرة أثناء تناولهم الطعام، بدلا من الماء. كما زاد شقيقه سالم أحضر قبعة ووضعها على إصبعه كعمامة الشيخ يلفها ويردد:

- زرر. زرر. زرر.

ترد عليه جميلة وزوجها محمد بك:

- زرر. زرر. زرر.

* * *

عاد لطفي غير مقتنع بهجوم عائلة محرم بك. ولكن كان قراره موافقا لهم بإخراج لملوم من الأزهر سرد على شريفة موقف عائلته. بادرته بالضحك فهي تعرف أهله أكثر منه. جلس يستمع إلى المذياع. أناشيد وطنيه. التف حوله شريفة ولملوم. خرج صوت الزعيم جمال عبد الناصر. يعلن بتأميم قناة السويس. لم يتمالك لطفي نفسه. أخذ يصفق ويرقص. أما شريفة كانت سعيدة بالخبر. أما لملوم فقد ألصق أذنه بالمذياع. لم يتحرك فعل لطفي مثل لملوم. وجاء التعقيب بالمذياع. أن هناك أيام صعبة على أهل مصر. انتفض لملوم وأغلق المذياع. لم يعترض لطفي. كان همه إخراج لملوم من الأزهر.

* * *

صفارة الإنذار تعلن هجوم طيران أصبحت الشوارع خاليه من المارة رجال الدفاع الشعبي تأمر بغلق شيش النوافذ أغلقت المدارس على التلاميذ لا أحد يخرج كان هذا حال معهد لملوم. ولكنه كان مصرا على الخروج فالحال بالخارج أفضل من داخل المعهد حتى ولو كان هناك الموت ينتظره!!. فتح باب الفصل بهدوء. نظر إلى ممر درجات السلم لا أحد باب المعهد لم يغلق. هبط بخوف يمتلكه. لم يعترضه أحد من الشيوخ. التصق بالحائط وصل إلى سلم الدور الأول. لم يجد أحد هبط

درجات السلم، كان بينه وبين باب الخروج خطوات قليلة والخوف من عفريتة الشيخ ونظراته المشتعلة أخيرا خرج من باب المعهد. بدأ يجرى. لم ينظر خلفه وصل إلى نهاية شارع الموازينى. دلف إلى شارع أبو نواية. اعترضه رجل الدفاع الشعبي. قبض على يده. كان لملوم يريد أن يفر منه خوفا من إعادته إلى المعهد وخيزرانة الشيخ. أدخله في حوش أحد المنازل. وجد أطفال ونساء. الجميع يقفون في صمت، فحص لملوم النساء عسى أن يجد أمه كان أزيز الطائرات يملأ السماء. ودوى المدافع تزلزل الأرض، اهتزت الأرض بصوت انفجار وتكبيرات، تأتى من ناحية البحر، دلف إليهم رجل من الدفاع الشعبي يخبرهم بسقوط طائرة من سلاح العدو بمنطقة الطابية بجانب عسكر السواحل ويتم البحث عن قائد الطائرة، انطلق صوت صفارة الأمان بانتهاء غارة العدو. خرج لملوم. لم يصبر أخذ يجرى ناحية منزله، تذكر الطائرة، ولابد من مشاهدتها. كانت محاطة بعسكر الحراسة، منفصل ذيلها عن كابينة القيادة. وعلى بعد خطوات شاهد مروحتها. أعجب من حجمها الكبير، فهو يراها صغيرة في السماء. أسرع بالعودة إلى المنزل كان هناك جمع من الناس يقفون تحت نافذة منزله يتحدثون. شعر بالفخر فإن جدته قد أرشدت عن قائد الطائرة، يسبح ويغطس في ماء البحر، على مقربة من جزيرة بحر

الأنفوشي المشهورة. قفز على درجات السلم، يريد أن يحتضن جدته، تراجع فقد كان شقيقه على متربعا على حجرها.

* * *

بحر هادئ. هواء منعش. شمس ساطعة، هواء يملأ الرئتين برائحة اليود. ميزة بحر الأنفوشي.

بحري تسكر وتسحر الغريب والقريب. وهذا سر جمال الأنفوشي. أهلها لا يعرفون العنصرية فهي تستقبل جميع الأجناس. من باب (عشرة) بالجمرك. سائحين أشكال وألوان، تدخل من شارع النصر، وتعبر إلى بحري، لمشاهدة مقر الأنتيكة بآثاره الرومانية والبيزنطية ومقابرها الرخامية، ثم يمروا أمام بيت لملوم، للذهاب إلى قلعة قايتباي والميناء الشرقي، كان يستقبلهم لملوم مع أصحابه بكلمتين، يحفظهما كل أولاد الأنفوشي:

- جف مي وان سجرت.

يضحك السائحين. وتبدأ الهدايا للصبية، وتنتهي بالتبادل مع أصحابه، يبدل كل واحد، بصنف من السجائر، وينتهي الأمر، لملوم وأصحابه. يحملون كل واحد منهم نوع واحد من السجائر. يقود لملوم المسيرة بأصحابه إلى سينما الأنفوشي.

وتبدأ المقايضة. مع مدير السينما وقاطع التذاكر، بعض أصحابه يدخلون السينما، والبعض. يأخذ النقود إلا لملوم. يأخذ النقود من أصدقائه الكبار عم عزت وعم على، ويدخل السينما. كان حظه دائما في الأفلام الأجنبية. يشاهدها ثم يتقمص أبطالها. فتحت صالة السينما أبوابها بانتهاء العرض. أسرع لملوم، فقد قرب ميعاد عودة والده. لم يجد غير أمه. فثريا وعلى لم يحضروا بعد من مدارسهم. تمدد على حافة النافذة المطلة على الشاطئ. ارتبكت الرموش وارتعشت. ذهب مع النوم، ليدخل في فيلم آخر من أين أتى؟ من مترو جولدن ما ير؟ أم من كولومبيا؟ أم من أستوديو مصر؟ لملوم يجلس بين أصدقاؤه. يقرئون الجرائد على درجات السلم طائرات وجيوش. شقيقه على في معركة، يجرح، شقيقته ثريا تبكى على زوجها. جيران يودعون موتى جنازة كبيرة وعظيمة يخرج لها كل أهل مصر إلا هو فقد حبسته أمه شريفة ومنعته من الخروج إليها يلحق بشقيقه على في معركة كبرى ترفع أعلام مصر تحتفي الجماهير بالجنود ثم جلوسه بمكتب كبير بين يديه أوراق كثيرة وجرائد تظهر فيها صورته طلقات يقتل قائد يسمى بالشهيد ينعيه لملوم وأصحابه يتفرقوا، يلعب صبية صغار بين قدميه، لسعته حرارة الشمس. انتفض من أحلامه. وجد والده يخلع ملابسه في غرفة النوم. دلف إليه لملوم. جلس

على ركبتيه. حكى له الفيلم اللم لومي. ابتسم لطفي، قبله وضمه إلى صدره، نصحه أن يكون هذا الحلم سر بينهما ولا يقصه على أحد. وافق دون أن يفهم لما هذا التكتم؟!!. قفز متجها إلى الحمام، أما لطفي. نظر إلى البحر ورفع رأسه إلى السماء. دعا للملوم دعوات لا يعلمها إلا هو. ورب السماء.

***

شهر أغسطس وحرارة الشمس الساخنة. والأجساد العارية. طابور الحب على أشده. ازدحام لا يفرق بين حلال وحرام ولا سن. الجميع منتظر دوره في امتلاك أو فعل ما يحب ويهوى بشاطئ الأنفوشي أو بداخل السينما أوبين أمواج البحر. بين مقاعد السينما والظلمة الملتهبة. أو تحت درجات السلم. كان هذا ما يحبه لملوم أنسب مكان. صخرة من الزلط الأسود ذات الشكل المستطيل، مرتفعة عن الأرض بمقدار يسمح للجالس أن يأخذ راحته في وضع قدميه في راحة ويسر كانت الصخرة الأريكة تأخذ ثلاثة للجلوس عليها. تقابلها صخرة من الزلط الأبيض. لا تسع لأكثر من جليس واحد. إذا وقف لملوم ورفاقه لاتصل رؤوسهم إلى سقف درجات السلم.

كانت (الحناية) تحت السلم يجتمع بها لملوم العربي ابن الست أم جرمانية. بالمنزل الملاصق لبيت لملوم وزغلول ابن الست أم نوال جارتهم خلف سينما الأنفوشي. وسرور جار لملوم صاحب الخطوات المزعجة فوق سقف لملوم، جمعهم تقارب سنوات عمرهم. كما جمعتهم الغواية تحت السلم مع بنات الجيران حلويات سونة، ونجية صاحبات الأجساد البيضاء المنتفخة رغم الفارق بينهن وبين لملوم ورفاقه. يبدأ الحب المتواضع تجلس حلويات وسونة ونجية على الصخرة السوداء يجلس أمامهن لملوم على الصخرة البيضاء. يقف زغلول على مقربة منه. أما العربي وسرور فهم يسدون ممر الحناية تحت السلم بأجسادهم. يقف لملوم يده اليمنى في جيب جاكيت البيجامة، على وجهه نظارة شمسية بعين واحدة. يده اليسرى تعبث بين ساقى حلويات، بعد أن أسقطت سروالها مقيدا لساقيها بعدم الحركة. سونة ونجية ينظرن إليها ينتظرن دورهن في هذا الكشف العابث بين يدي الطبيب لملوم العابث، غير عابئين بنظرات العربي وسرور، أما زغلول فهو مراقب لممر درجات السلم تلتهب حلويات ثم تلتهب سونة ونجية مع العربي وسرور، ويأتي دور زغلول ليلهب عواطف حلويات مرة أخرى ويزداد فتح وفرشحة ساقيها تاركة يد زغلول تعبث. تنتهي غواية الأطباء من الكشف العبثي، ثم يتفرقوا عائدين إلى

منازلهم في خير وسلام وبدون إزعاج أو قلق لهذا الحب العابث. كان هذا حال لملوم ورفاقه، لا يدري أحد من أهل الأطباء الصغار والمرضى صاحبات الأجساد البيضاء الغضة المنتفخة. كانت التمثيلية العبثية تنموا بينهم مع مرور الأيام . لتأتى بدركات أخرى من الحب العابث الذي يشغل تفكير لملوم. كثيرا ما يشاهد بسينما الأنفوشي المرأة وهي بين أحضان الرجل يطبع قبلاته على شفتيها. كان لا يفهم ماذا يفعلان حاول أن يسأل؟ لكنه تراجع بعد أن شعر أنه يخص الكبار، فدائما تشتعل صالة السينما بالصفير والتصفيق عند مشاهدة التصاق الفم بالفم. كان يشعر باللعاب يزيد في فمه، وهذا ما دفعه إلى حلويات دون أن يصحب رفاقه في عيادة تحت السلم. رفعت حلويات جلبابها وأسقطت سروالها. لم يضع لملوم يده بين ساقيها. أمسك كتفيها وألصق شفتاه بثغرها. استجابت حلويات له وألصقت هي الأخرى شفتيها. شعر لملوم بحلاوة شفتي حلويات. التي أطبقت بأسنانها على شفتيه. تراجع دافعا بقبضته إلى صدر حلويات لترتطم بحافة الصخرة السوداء. لم يأبه للألم. كان الخوف يمتلكه. تورمت شفتاه. وقف بجانب سينما الأنفوشي. ماذا يفعل؟ يتوجه إلى المنزل؟ أم ينتظر زوال التورم؟ نظر حوله، اطمئن لم يجد أحد من أصحابه. كما أن ميعاد والده لم يحن بعد هدئ قليلا تحسس شفتاه لم يتمكن من

معرفة زوال التورم. اتجه إلى باب السينما كان عم عزت قاطع التذاكر يقف مستغرقا في تدخين سيجارته. لم يلاحظ لملوم، تردد لملوم ماذا يفعل مع هذه الشفاه؟ يا ليت له شارب مثل والده! ليخفي به شفتيه. تشجع متجها إلى حمام السينما لمشاهدة وجهه في المرآة قفز على حافة الحوض، قبض على يد صنبور المياه محدقا متفحصا لشفتيه أحس بالراحة فقد هدئ التورم بدأ بالنزول من على الحوض قابضا على صنبور المياه لتتدفع المياه على رأسه وملابسه انحرفت قدمه ليستقر في خليط من الماء المتسخ حاول النهوض فشل. اكتمل اتساخ ملابسه زحف إلى زاوية الحمام مبتعد عن اندفاع المياه. انتصب واقفا لا يدرى ماذا يفعل وكيف يمر دون أن يراه أحد؟ شاهد شاشة العرض. كان الفيلم على الانتهاء. فهو الذي شاهده بالأمس وها هو البطل يقبل حبيبته أشاح بوجهه متحسسا لفمه اندس وسط رواد السينما أسرع بالخطى اقترب من منزله. ارتبك، الست أم حلويات تقف على باب المنزل. كان الحظ معه لم تلاحظ دخوله الصامت. دفع بيده باب الشقة. دلف إلى الداخل. لم يجد. أمه اقترب من باب الحمام. كانت أمه. تجلس القرفصاء. على مقعد الحمام. ذو الأرجل. القصيرة. الملتحمة بعضها ببعض، تضع بين أرجلها طست الغسيل مرتدية جلباب الغسيل الممزق فهو بالكاد يستر القليل من جسدها الأبيض الناعم، استحى من منظر

أمه أراد أن يعود في هدوء. اصطدم بنداء أمه. استدار إليها. نظرت إليه. رفصت الطست بقدميها. تفحصت ملابسه المتسخة المبتلة. عاجلها بإجابته السريعة والمرتبة، اصطدام شفتيه برأس صاحبه سرور ابن الجارة امرأة سعيد، التي تكرهها أمه وجارتهم أم حلويات. كان يريد سد أي منفذ للتحري عن صدق كلامه. أمسكت بذيل فستانها. مسحت يديها. تحسست ملابسه المبتلة، وقف صامت، لم يقدر على أن يزيد في كذبته فهو يعرف أمه ومدى فراستها وهل قبلت إجابته عن شفتيه ليخبرها عن اتساخ ملابسه!! سحبته من يده إلى غرفة النوم. نزعت ملابسه المتسخة. عاجلته بالتقدم إلى الحمام في صمت، وقف أمامها كيوم ولادتها له. لم يأبه لحاله، كان همه أن لا تعاود السؤال عن شفتيه، أنهت استحمامه. تركته لإحضار الملابس النظيفة من غرفة النوم، كانت فرصته ليتحسس شفتاه. مازالت شفته السفلى منتفخة. لم ينتبه لوجود أمه تراقبه بجانب الحمام. أكمل ارتداء ملابسه في صمت. أعاد كذبته مرة أخرى

مع صاحبه سرور ووقوعه على الأرض واتساخ ملابسه. لم تأبه بسرد حكايته. جلست القرفصاء واضعة طست الغسيل بين فخذيها. دلف هو الآخر خارج الحمام. اندس في فراشه يستريح من عناء عضة حلويات.

***

انتبه لطفي ليد ابنته ثريا توقظه من نومه. أخبرته بوصول زملاؤه أمام المنزل. لحق بها قبل مغادرتها. طبع قبلة على خدها. لم يترك يدها. أسبلت ثريا عينيها. تلون وجهها مثل التفاحة الحمراء الناضجة. ضحك تارك يدها حتى لا تسقط من غصن شجرتها الربانية. كانت ثريا ترتدي روب أمها. لمته تحت إبطها أسرعت بالهروب من وجه أبيها. اتجه إلى النافذة. أشار إلى زملاؤه بالانتظار. دلف إلى الحمام ثم إلى حجرة النوم ارتدى ملابس الخروج. لاحظ مراقبة شريفة لحركاته. تعجب فهو دائما يخبرها من أين جاء وإلى أين يذهب. كما أن اليوم الأحد، أجازته وعلمها بوصول أصحابه اليوم. نظر إلى المرآة غير مكترث بنظراتها. أشاحت هي الأخرى عن مراقبته. هجم لملوم متعلقا برقبة والده. تركه يعبث في جيب القميص. أخرج لملوم القرش المخروم. قفز على الأرض مثل عصفور أبو فصادة متجها إلى خارج الشقة. فهو يعرف طريقه إلى عم جمعة بائع الحلوى. أشار لطفي من النافذة إلى زملاؤه. خضع لآخر خطوات خروجه من امرأته شريفة. مررت يدها على القميص تصلح ما عبث به لملوم. ناولته المنديل الكاكي

الأميري. تركها لينضم إلى أصحابه بالخارج. كانت شريفة تراقبه من خلال قضبان النافذة ملتصق بها على وثريا. كان لملوم منهمك في مناوشة زملاء والده. الأسطة أحمد ملمع الموبيليا مثل والده وعم سعيد الحداد. وربيع جارهم الميكانيكي الذي منح لملوم قرش مخروم. ضحكت شريفة بهرولة لملوم إلى عم جمعة بائع الحلوى. تابعت شريفة ذهاب زوجها مع زملاؤه. لم تترك النافذة حتى دلف زوجها وأصحابه الشارع الجانبي، كانت مطمئنة فهي تعرف إلى أين يذهب زوجها مع أصحابه، فهم يفضلون مقهى الخرس. لا يسمعون ولا يتكلمون، إلا بالإشارات. شيء واحد يقلق لطفي بالمقهى تلك النظرات الحادة المنبعثة من عيون الخرس، خاصة للإغراب أصحاب الألسن الطويلة والآذان الصاغية للقيل والقال، انتبهت شريفة إلى صوت مأمأة بالشارع أسرعت إلى النافذة ارتعشت فالقادم زميل زوجها عطية الأخرس رفع يده مشيرا إلى تحت أنفه مع برم أصابعه؟ أجابت عليه بترك يدها اليمنى تلوح إلى الأمام، ويدها الأخرى تحت انفها مع برم أصابعها هي الأخرى. أخذ عطية الأخرس يرفع يده اليمنى إلى رأسه يلوح بها. أجابته شريفة برفع يدها على رأسها. كانت نظراته حادة شبيهة بنظرات طائر البوم، كانت ترعب شريفة. أكملت الإشارات بكلتا يديها التي علمها لها لطفي لتخبره بتواجد

زوجها بمقهى الخرس هو وأصحابه. أعطى لها ظهره منطلقا إلى المقهى. مسحت العرق من على جبهتها وعناء مواجهة عطية الأخرس. جلست على الأريكة بجانب النافذة مثل زوجها والاستمتاع بالنظر إلى شاطئ البحر وتوحده مع السماء. صافية كانت أم بها غيوم. فالاثنان لا يفترقا عن بعضهما البعض. تعلق لملوم برقبتها. لم تتبرم فهي تحب أن يكون لملوم رفيقها في هذه الجلسة. لا يفترقا عن بعض مثل السماء والبحر. جلس على فخذها، أخذت تلقنه كلمات تحرص على ترديدها له منذ صغره. أشارت إلى طريق الكورنيش وقصر الملك. :

- هذا طريق مرور الملك فاروق إلى قصر رأس التين داخل العربة الملكية، يجرها الخيول. العربة مزينة بالذهب والفضة وأعلاها تاج الملك.

- الملك فاروق ينظر من نافذة العربة الملكية ملوحا بالتحية لي. وأنت تضحك له. وهو يضحك لي

- أنت تدخل رأسك بين كتفيك خوفا من بريق أعين العبيد السود على جانبي العربة الملكية.

- العبد الأسود يخرج لك لسانه الأحمر وتبرق أسنانه البيضاء ويلمع أنفه المنتفخ.

- أنت تدخل يدك ورأسك في صدري. تختبئ هربا من نظرات العبد الأسود.

- العربة الذهبية تبتعد عنا، يصحبها العبيد السود.

- الملك فاروق ما زال ينظر لي، وأنت تنظر إليه تضحك له وهو يختفي بعربته الملكية المزينة بالذهب والفضة.

تنظر إلى لملوم منتصبا على حافة النافذة يبدأ بإعادة ما سمع من أمه. يتم التلاوة. تحتضنه وتقبله بقبلاتها التي كانت تشبعه وتغنيه من ذهابه لعم جمعة بائع الحلوى.

خرج شريفة ولملوم من توحدهما مع الملك فاروق على صوت شقيقه على يخبر بوصول أم حلويات. ركب لملوم على كتف أمه وأخذ يردد:

- الملك فاروق ينظر من نافذة العربة الملكية ملوحا بالتحية لي ولك. وأنت تضحك له. وهو يضحك لي.

- أنت تدخل رأسك داخل كتفيك خوفا من بريق أعين العبيد السود على جانبي العربة الملكية.

- العبد الأسود يخرج لك لسانه الأحمر وتبرق أسنانه البيضاء. ويلمع أنفه المنتفخ.

- أنت تدخل رأسك في صدري. تريد أن تختبئ من العبد الأسود.

- العربات الملكية المزينة بالذهب والفضة تبتعد عنا. يصحبها العبيد السود.

- الملك فاروق مازال ينظر لي وأنت تنظر إليه. وتضحك له. وهو يضحك لي وهو يختفي بعربته الملكية المزينة بالذهب والفضة.

لم تلقى أم حلويات التحية على شريفة. أسرعت إلى النافذة تنظر. لم تجد أحد. اقتربت من شريفة ولملوم جاحظة عينيها. :
- أين الملك فاروق؟ أين الملك فاروق؟!!.

ضحكت شريفة مع ولديها لملوم وعلى. قفز لملوم متجه إلى الحمام. مازالت أم حلويات تعاود النظر من النافذة. لم تقدر شريفة على الوقوف ومواجهة سؤال أم حلويات. سحبتها من ذيل جلبابها.

أجلستها بجانبها. مازالت أم حلويات تردد السؤال:

- أين الملك فاروق؟ أجابت شريفة وهي مستغرقة في الضحك:

- ملك فاروق إيه. ؟!!الملك فاروق ترك مصر منذ سنين. خلاص ما عاد باشا وما عاد بيه. كل ده راحت عليه.

تقاطعها أم حلويات:

- طيب ولملوم وكلامه والملك والعبيد السود والسلام والتحية. أنا لا أفهم شيء؟!!.

تعتدل شريفة في جلستها وتجحظ عيناها ويخشن صوتها. تقبض على يد أم حلويات:

- الولد لملوم حضر عهد الملك فاروق أكثر من عامان، أحس بشيء يدفعني لأحفظه مشاهد الملك فاروق والعربات الملكية والخيل والعبيد السود، وهو يستمع ويحفظ ويسأل عن المزيد وتكملة مشاهد الملك وأسرة الملك.

تنظر إليها أم حلويات بنظرات تفهمها شريفة وتعرفها من خلال بائعين الأسواق. سحبت أم حلويات يدها وأمالت على إذن شريفة. استجابت لها وبدأت تنصت. فهي تعرف أم حلويات عندما تتمايل وتقترب من رأسها:

- آخر أخبار الست مصيبة أخت ميما بائع الحشيش. هل تعرفين؟

- لا؟

- زوجها يرجع في ساعات متأخرة من الليل.

تلتصق شريفة بأم حلويات تريد المزيد.

- أخوته الصبيان من والده.

- نعم. يتناوبون عليها كل واحد يوم.

تدق شريفة على صدرها. :

- يا خرابي. يا خرابي. فهمت الآن الأصوات.

تقاطعها أم حلويات.

- أصوات من؟

تمسك شريفة بيد أم حلويات وتلتصق بها. :

- صوت أسمعه خلال ساعات النهار. ولا أعرف أن أميزه.

تقاطعها أم حلويات. :

- صوت من أين؟ ومن؟

تقبض أم حلويات على أسنانها البيضاء، ثم تخرج فكها الأعلى. تبتعد شريفة خائفة ترتعش. :

- حلمك يا امرأة. واحدة. واحدة. ادخلي أسنانك في فمك أنا خائفة.

تضحك أم حلويات. تبتعد عن شريفة وتخفي أسنانها بيدها.

تكمل شريفة ما سمعته من خلال المنور الداخلي بالشقة. أصوات لا تقدر أن تميزها ؟أصوات ترتفع ثم تنخفض، ثم ترتفع ثم تنخفض ثم تختفي بخطوات الأقدام إلى الحمام.

يرتعش جسد أم حلويات. تضع يدها على فمها والأخرى بين فخذيها:

- نصيبتي السوداء. ألا يكفيها الأغراب. يا نصيبتي السوداء.

تضع كلتا يديها بين فخذيها. ويرتعش جسدها.

تنزع شريفة أيدي أم حلويات من بين فخذيها:

- هل عواطفك سائبة لهذه الدرجة؟!!

خيم الصمت عليهن. أشاحت أم حلويات بوجهها. مسحت العرق من على صدرها ورقبتها. تابعت شريفة خطوات أم حلويات وهي في طريقها إلى باب الشقة.

* * *

عيون جاحظة. أصوات ممزقة. إشارات الأصابع تطيح بالهواء. بالأنف. وكثيرا في وجوه بعضهم البعض، جلس لطفي

وأصحابه بمقهى الخرس، لا حياة إلا ليد تحمل كوب الشاي. أفواه تتحدث في هدوء وبصوت خافت، كانوا ملتزمين مثل رواد المقهى، عطية الأخرس، يفعل كما يفعل زملاؤه الخرس. يتصرف بملأ حريته. صوت المأمأة والإشارات، التي تكاد أن تطيح بعين زملاؤه، أو بأكواب الشاي على المنضدة، يفرك لطفي أصابعه يحاول إزالة طبقة الجملكة ، دهان الموبيليا منها ولكن لا فائدة. قبض ربيع الميكانيكي، أيضا أصابعه يريد التخلص من الطبقة السوداء. ولكن لا فائدة. تقابلت نظرات ربيع بصديقه لطفي. ضحك ربيع شاركه لطفي بالضحك، ولكن لم يلتزم بآداب مقهى الخرس، فضحكاته كانت قوية وعالية. كانت عين عطية الأخرس تراقبهم. التزم الصمت أحمد الأس ترجى وسعيد الحداد. لم يعطى ربيع فرصة لأحد من أصحابه. بدأ يحرك يديه في الهواء. لصاحبه عطية الأخرس ولأصحابه أحمد الأس ترجى وسعيد الحداد. :

لاحظت أخي لطفي يفرك أصابعه من الجملكة، بعصبية شديدة، أحسستها، فبدأت أنا الآخر أفرك أصابعي أشاركه في همه الذي لا يعرفه غير حامل بصمات مهنته في يده وأصابعه. الجنس يا أخوة. نعم الجنس وخاصة الملامسة. وهي عندي ألذ من مباشرة الجنس. اللمس محروم منه حتى مع امرأتي أم أولادي، أعمل كل ما يحلو لي، إلا اللمس بيدي على جسدها.

أصابع خشنة وسوداء تبتعد بي عن الأماكن التي أحبها وأتلذذ بها، إني محروم مما أحبه وأهواه. لطفي ذكرني بامرأتي وهو يفرك أصابعه من الجملكة ومحاولة إزالتها.

خفض ربيع يديه فقد أتعبه شرح الأمر لزميله عطية الأخرس. الذي قبض على يدي لطفي. أسلم له يديه عسى أن يجد له حل لمشكلته هو الآخر. نفر عطية ألأخرس من يدي لطفي الذي بدأ هو الآخر البوح بهمه:

- نعم عندي مشكلة أخي ربيع، كل حديثه صدق وعذاب مشاعره وحرمانه من أقرب الناس إليه والتلذذ بما يهوى ويحب وهذا أمل أود الوصول إليه، ربيع عنده حق، ولكن أنا زودت الطين بله، مثل ما يقولوا في المثل في يوم كنت مشتاق للمس حتى وصل الأمر أن

ذهبت إلى منزل المعلمة فلة الراقصة، بحارة اليهود وأنا أعاهد نفسي أن لا أفعل شيء يغضب. كل ما أريده هو الملامسة بيدي لكل ما أحبه وأهواه. تناولت كوب الشاي. كان من نصيبي في وجه مثل القمر وجسم غصن البان، عود ملفوف وشعر أسود ناعم. كلها جميلة مثل الفل. كان همي في شيء واحد. أن ألمس وأتحسس. دفعت المبلغ المطلوب. دخلت مع الغصن الملفوف بالغرفة. أخفيت بكل ما أستطيع أصابعي

وما تحمل خشونة مثل الصنفرة الحدادي. أمرتها أن تطفئ الأنوار. كانت مطيعة لما أريد. بدأت تستجيب لرغباتي. شعرت بخشونة أصابعي. هبت واقفة. أضاءت الأنوار. نظرت إلى أصابعي ثم إلى جسدها. لطمتني على وجهي وصاحت:

- البضاعة ليست لك وحدك. أذهب أتجوز ولا أتنيل على نفسك.

نظر لطفي إلى أصحابه كانوا مستغرقين في متابعته سقط عطية الأخرس بمقعده على الأرض من شدة الضحك انتبه أصحابه الخرس إليه التفوا حول لطفي وأصحابه كانت نظراتهم مثل طائر البوم. قبض أحدهم على رقبة لطفي هجم عليه عطية الأخرس ينقذ صاحبه لطفي من يده. شرح الموقف وما حمل من سوء الفهم. انصرف زملاؤه الخرس. مسح لطفي العرق من على جبهته. أشار على أصحابه بالسلام. أعطى لهم ظهره. ترك قدميه تقوده إلى الطريق.

* * *

جلست شريفة أمام النافذة المطلة على شاطئ الأنفوشي تتأمل المصطافين، فهم يأتون من جميع أطراف الإسكندرية، خاصة المناطق الشعبية وحبهم للشاطئ الشعبي المشهور بشاطئ "ستانلى ماعز" فكما هو مزدحم في شهور الصيف بالمصطافين. مزدحم في شهور الشتاء. يرتاده العربجية، أصحاب الخيول والحمير والبغال للسباحة وإمتاع خيولهم وحميرهم وبغالهم ليأخذوا بعض الراحة من مشاق الحمل والضرب بالكرباج والعصا الغليظة، وفك أسرهم من جر العربات ومن اللجام والحديد وغطاء جوانب العيون. كان استغرابها من التفاهم والود والصداقة والمحبة بين الرجل العربجي والحيوان وسط مياه البحر. ولا ترى اختلافا عن شهور الصيف، إلا في مشاهد بين رجل يلهو في الماء والإمساك بنهد امرأة. أو بمؤخرتها ثم يتلو كلمات الاعتذار لهذه المرأة أو تلك الصبية. خافض رأسه أمام النظرات القاسية بالعتاب عما فعل مبتعد ليلحق بجسد آخر. عسى أن يتجاوب معه في اللمسات تحت الماء. وتستمر حلقات المداعبة وهذا ما كانت تحبه شريفة. من مشاهدته أسبوعيا أيام الأحد والجمعة. ومشاهدة ختامها ونهايتها التي كانت دائمًا تنتهي بالعراك والمشاجرة وينقلب شاطئ الأنفوشي لساحة قتال وتتحول أيدي المظلات إلى آلة فتاكة من الممكن أن تنهي حياة من تطوله،

فإذا كانت ضعيفة مترددة فينتهي الموقف إلى بعض الغرز الطبية في الرأس. مع فقدان لحلل وأواني الطهي بما تحمل من الكرنب المحشى بالأرز والمميز بالرائحة النفاذة، التي تسيطر على معدة متناولها بالساعات الطوال ليخرج روائحه. وتناثر السلطة والبطاطس المقلية المحمرة وتلون رمال الشاطئ بما وقع عليها من قطع البطيخ مع سيلان برادات الشاي لتكتمل صورة توحد العراك مع خليط رمال الشاطئ وما يظهر به من خليط الدماء والبطيخ وقتامة الشاي. ثم يهدأ الشاطئ ويبدأ البحث ولملمة ما تناثر من حلل وأواني وبرادات الشاي. ابتسمت شريفة تذكرت هذه المرأة وهي تجرى لاهثة وراء زوجها قابض على يد المظلة للاشتراك في العراك ومآزره أصحابه. تصرخ بأعلى صوتها:

- لباسي. لباسي.

وهو عالق بيد المظلة في يد زوجها، كالعلم المنتصر يتوقف العراك بين الطرفين لستر لباس المرأة تنتهي المعركة بابتسامات وتصافح ثم الجلوس للتصالح مع تناول الشاي ولا مانع من إحضار النارجيلة وتناوب أنفاس الدخان. طرق على باب الشقة أخرج شريفة من تمتعها بإلباس المرأة وعراك المظلات. اتجهت في خطوات متثاقلة. فالوقت مازال مبكر

لحضور أحد. نظرت من خلال شقوق الباب. كان الواقف صديق زوجها عم رشاد وبناته اطمأنت فما زال استمتاعها بالشاطئ متصلًا ولم ينقطع. فالزوار حضروا لأخذ مظلة الشاطئ رحبت بهم من خلال شقوق الباب. أحضرت المظلة وبعض المقاعد الخشبية. كانت مطمئنة بعدم فتح باب الشقة لعم رشاد وبناته. راجعت المتطلبات. لملمت شعرها الطويل الأسود الناعم. فتحت الباب لترحب بزوار الشاطئ تناول عم رشاد المظلة وتوزيع مقاعد الشاطئ على بناته. أعطى يد المظلة إلى ابنته السمينة الكبيرة المنتفخة الصدر والأرداف. لم تتمالك شريفة كتم ضحكاتها وتخيلها بتعلق لباس ابنته بيد المظلة وكم سيكون كبيرا وعظيما وواضحا للناظرين وهو يرفرف في الهواء كالعلم المنتصر. نظر عم رشاد إليها مستغرب من هذه الضحكات. جحظت عيناه وانتفخت أوداجه وتلون وجهه وقفزت أذنه إلى أعلى رأسه لم تتوقف

شريفة عن الضحك. بل ارتفعت ضحكاتها أكثر. ازداد عم رشاد غيظ. فقد شاركها بالضحك بناته وتعالت الضحكات. لم يتمالك عم رشاد شد أعصابه. انفلتت ضحكاته مع بناته وشريفة. " مع أن الضحك بدون سبب قلة أدب " تذكرت شريفة هذا المثل. سحب بناته في اتجاه الشاطئ وهو يلتفت إلى شريفة ويضحك وشريفة تبادله الضحك. أغلقت باب الشقة

اتجهت إلى النافذة. كانت لا تدرى لماذا تحب هذه الجلسة والنظر دائما إلى الشاطئ وأمواج البحر. هل لمتابعة أحوال الشاطئ وما يحمل من مشاهد باكية أكثر من ضاحكة؟ قطبت حاجبيها. فكم فقد من أحباب وأصحاب بين أمواج البحر!!. حاولت التذكر منذ متى لم تطأ شاطئ الأنفوشي؟!! فالشاطئ يأتي إليه من كل حدب. تذكرت قول جارتها أم حلويات. أن الشاطئ وهذه الرمال وأمواجه الزرقاء الصافية محرومين منه في شهور الصيف. لا يعرفون الشاطئ إلا في شهور الشتاء. فهم على ميعاد بأربعاء سيدنا أيوب وتقديسهم لهذا اليوم والاستحمام والاستمتاع بماء البحر. الجميع يلهوا ويستحم. المريض تأسيا بسيدنا أيوب والمعافي ليزداد قوة وعافية. خطر عليها لباس استحمام زوجها

لطفي وتمتعها بالنظر إليه وهو يقفز بين البحر والرمال وكثيرا ما كان يقفز عليها يصب عليها ماء حبه الدافئ. هرولت إلى خزانة الملابس بغرفة النوم. بحثت بين طيات الملابس على لباس بحر لطفي أخذته في صدرها، نظرت إلى جسدها بمرآة سراحه غرفة النوم مازلن أردافها تحمل الأنوثة. مسحت بيديها فوق نهديها مازلن يحتفظن بالثبات فوق صدرها.

أرادت أن تكمل رحلتها مع جسدها الأبيض الغض. أغلقت باب غرفة النوم بدأت في خلع جلبابها أمام المرآة. سقط تحت قدميها. رفعت قميص النوم إلى كتفيها. شعرت بنشوى تعتريها في اكتمال احتواء مشاهد جسدها الملتهب.

أسقطت لباس عفتها بين قدميها. أخرجت نهديها من جرابها أسدل قميص النوم المشهد بستر جسدها. رفعته ولكن ليفارق جسدها لتقف عارية أمام المرآة التفت حول نفسها ومراقبة جسدها كله. من الخلف من الأمام بين ساقيها خلعت الإيشارب من رأسها، هبط الشعر الأسود الناعم كأمواج البحر المتراكم تحسست بيدها أمالت برأسها بين ساقيها سحبت الشعر الأسود بيدها بدأت خطوات الحكي مع صرتها. دارت بها غرفة النوم، هربت أعصابها، انسحبت نظراتها تكاد أن تلتصق بحاجبيها. مدت يدها المرتعشة باللباس بحر زوجها دسته بين فخذيها. ارتمت على الفراش، ليدور مع دوران غرفة النوم.

أفاقت شريفة من غفوتها على دقات باب الشقة أسرعت بارتداء الجلباب. رفصت بقدميها الملابس الداخلية تحت الفراش. مازال الدق على الباب مستمرا. وضعت لباس بحر زوجها تحت وسادة الفراش. عصبت بالإيشارب. أدارت نظراتها بالغرفة. اطمأنت فلا يوجد شيء يلفت الانتباه. لم

تنسى أن تنظر إلى المرآة وهي في طريقها إلى باب الشقة. كانت مسرورة بهدوء فوران جسدها الغض كما هدأت الدقات على باب الشقة. شاهدت من وراء الشقوق، أم المغربي من عائلة أمها المحترمة رحبت بالأحضان التي مازالت ساخنة في صدرها شعرت أم المغربي بسخونة جسد شريفة. فحصت وجهها. أزاحت ذيل فستان شريفة إلى أعلى حاولت هي الأخرى الابتعاد عن يد الزائرة ولكن لا فائدة، غير أن تضم ساقيها حتى لا تعبث بهما أم المغربي. نجحت من الإفلات من أيدي المرأة العابثة بما لا تملك. سحبت شريفة أم المغربي إلى حجرة النوم. جلس الاثنان مع صمت البسمات على حافة الفراش. تربعت أم المغربي. بدأت تنظر إلى وجه شريفة التي كانت مسلطة كل نظراتها على لباس بحر زوجها لطفي، المخبأ بالقرب من أيدي أم المغربي التي بطشت ليقع اللباس في يدها. أطلقت صليل ضحكاتها المشهورة بها بين نساء العائلة. شاركتها شريفة الضحك بإخراج قميص نومها ثم لباسها من تحت الفراش. فرت شريفة من أيدي أم المغربي في زاوية الحجرة. أكملت ستر جسدها. لم تتمالك أم المغربي وضعت وجهها بين كفيها، أخذت في البكاء. ضمتها شريفة إلى صدرها فهي تعرف مدى حنين أم المغربي لهذا الفراش. فهي مطلقة منذ سنوات قليلة. أفاضت أم المغربي إلى شريفة بمدى حنينها

لهزات الفراش وفركشة أغطيته اللزجة المبتلة. لم تدرى شريفة كيف تبدأ الحديث معها بعد هذه الشقاوة ونهايتها الحزينة، غير أن تترك الحجرة والذهاب إلى المطبخ لإعداد أكواب الشاي.

* * *

الأنفوشي!! حبيبة لطفي لا يقدر أهلها أن يبتعدوا عنها. صيفا أم شتاء. صيف مصطافين شتاء زوار يعشقون أمواجها الهائجة على وجوه أهلها. لا يغضبون، لا يبتعدون. يتبركون ويداعبون هذه الأمواج ويلهون معها يتنسمون رائحة اليود كما يتنسمون رائحة الفل والياسمين لطم رذاذ الأمواج وجه لطفي. تكحلت عينيه بما يحب. اقترب أكثر من شاطئ البحر عسى أن يأخذ لطمة أخرى فإلحاح النزول في الماء والسباحة يدفعه أن يلقى بنفسه في هذا اليم. تراجع لتكملة مشواره عرج إلى مقهى القويرى. ظهرت ملامح صيدلية الإسعاف راجع ما يحمل من نقود. فدواء حماته أم صابر سيكون غاليا. هكذا قال له الطبيب بعد الكشف عليها كان يريد أن يقدم لأم صابر أقصى ما

يستطيع من كل شيء. الوقت. الرعاية الدواء. خرج من صيدلية الإسعاف بالدواء. توجه إلى السماء بالحمد. فكم كان الدكتور الصيدلي متعاون معه متفاهم. بعد أن عرف حكاية المريضة. وإهمال ابنها صابر. لها. والتوصية بالرجوع

إليه في أي وقت، لأخذ ما يحتاج من أدوية للسيدة حماته، ولا ينعى أي هم في دفع النقود فأصحاب الخير كثيرين. اقترب من ناصية شارع الحجاري، لمح شقيقته عايدة قادمة نحوه. أراد أن يتجاهلها في هذا الموقف ولا ترى ما يحمل من دواء. همس:

- آتاك الموت. يا تارك الصلاة.

لن يخلص من تطفلها ونظراتها إليه، من أخمص قدميه حتى رأسه. بدأ العرق يملأ جبهته متسللا إلى حاجبيه. أراد الدخول بمسجد الحجاري بجانبه. تراجع أمام شقيقته، أغلقت الطريق بجسدها الممتلئ. اهتزت الأرض تحت أقدامه. يداه ترتعشان. نظرت إلى ما يحمل من دواء، بعد الفشل في إخفاؤه. أخبرها بمرض حماته أم صابر. مطت شفتيها. قبضت على قميصه الخشن. :

- إلى متى تتنازل ياسيد لطفي وترضى بالتعاسة والسيدة شريفة وأولادها في عز وعيشة رغدة ولا أولاد الباشوات ،

وأنت متهتك الثياب. بنطل عسكر. قميص عبك. ألا يكفيك ما قدمت. خبز بالنوتة. وزيت وسكر بالشهر. ولولا تدخلي عند عم جابر صاحب محل الخضروات والفواكه وضماني. لك عنده.. لأصحبت أنت والسيدة شريفة وأولادك نائمين من غير عشاء.

دارت الأرض تحت أقدام لطفي. ليس من كلام شقيقته ولكن لانتباه المارة بالطريق لهذا الحديث وهذا العتاب الجارح، تذكر قول إمام المسجد. "النصيحة على الملأ فضيحة ". أخرج منديله الكاكي. بدأ يمسح العرق من على جبهته وعينيه. خطفت عايدة المنديل من يده:

- حتى المنديل منديل عسكر!!. يا رجل كفاية تنازل ومهانة وبهدلة. كفاية. أنظر لنفسك مرة واحدة.

تراجع لطفي دون أن ينبس بكلمة متجها إلى أسرته وحماته، غير عابئ بنظرات شقيقته عايدة وذهاب كلماتها أدراج الرياح. فهو راض بما يفعل من خير غير مهتم حتى بقطعة القماش المرقعة بين فخذي بنطله، تسميها امرأته بالسمكة لا تظهر إلا في موضع واحد، عند سجوده في الصلاة تظهر كعين الشمس الساطعة في عز النهار لكن لا يراها إلا العابدين الساجدين أمثاله داخل المسجد نظر إلى حذائه المرقع

بقطعة الجلد اللوزة كما يسميها عم يوسف الإسكافي. صاحب العين الواحدة، المشهور في شارع جودة بالأنفوشي. منقذ الأسر الفقيرة من السير حفاة. وإتقانه صناعة حذاء "صندل الأولاد أبو سوبع "من إطارات، السيارات أطفال الأنفوشي يستعملوا صندل عم يوسف الإسكافي في شهور الصيف. اقترب من المنزل. استقبله ابنه على. اختطف الدواء من يده مهرولا إلى أمه. كانت جدته أم صابر راقدة بالفراش. رفعت يدها إلى لطفي. لم يفهم ماذا تريد. لا تقدر على إخراج الكلمات. كررت الإشارات بيدها. نظر لطفي إلى شريفة. لم تفهم هي الأخرى ماذا تريد أمها من لطفي. أمسك ابنه على، يد جدته، أخذ يهزها. :

- جدتي تريد خلع الذهب من يدها.

بركت شريفة بجانب أم صابر وهي تبكى.

مازالت أم صابر تهز يدها أمام لطفي. دق بيديه على رأسه. :

- أنا ما أزال بصحتي وعملي بالنهار والليل على خير ما يرام. علاوة على تعاون مدير الصيدلية ولن يتأخر في صرف الدواء.

أشاحت أم صابر بالنظر إلى لطفي، ضمت على وأمه إلى صدرها، رفعت يدها اليمنى مشيرة بأصبع السبابة إلى السماء، انتبه لطفي لموقف حماته، خر على ركبتيه بجانبها، فهم أن حماته ستفارق الحياة أقرب مما كان يتصور.

* * *

مرت على شريفة أيام الحزن بفراق أمها وغياب الخالة نرجس وذهاب لطفي كثيرا مأموريات خارج الإسكندرية. كان العزاء الوحيد لشريفة هو الذهاب إلى حدائق قصر رأس التين، بجوار" الأنتيكة " المقابر الرومانية، فالثورة اهتمت بإنشاء الحدائق العامة والمنتزهات لجميع طوائف الشعب. يخرج إلى الحدائق أهل الأنفوشي عند غروب الشمس وحتى منتصف الليل. تمتلئ الحدائق، فتزحف الأسر بالجلوس على كورنيش البحر، فيمتلئ فيزحف بقية أهلها إلى رمال الشاطئ حتى مشارف قلعة قايتباي.

همسات وأحاديث ونظرات ومشاحنات ومداخلات بائع الترمس والفول المقلي بالشطة والليمون. وماسحي الأحذية وبائعي الذرة المشوية.

كانت شريفة مستعدة لإشباع نظرات ثريا وعلى ولملوم وصدهم عن فتح جوزلان النقود وبعثرة قروشها القليلة على بائعي الحدائق والكورنيش. سندويتشات الجبنة القريش والبطاطس المسلوقة الصغيرة مثل حبات الليمون والملح المخلوط بالفلفل الأسود الناعم كان شيء يقلق جوزلان نقود شريفة. بسكوتة البوظة المثلجة فهي تتمناها قبل أولادها بدأ الهواء البارد يتسرب إلى جسد شريفة رغم جلوسها بجانب نافورة المياه المعطلة والتي لم تقدر الثورة على إزالتها فهي من الآثار الملكية الثابتة في مكانها المتوحدة مع أهل الأنفوشي وقصر الملك. تحن إليها تجلس بجوارها وتحت ظلها.

كان لملوم يمسك بطرف الحبل وعلى يسمك بالطرف الآخر، أما ثريا فعليها القفز بين هزات الحبل مع هزات فستانها. عين شريفة تراقب ثريا وهزاتها وجسمها الأبيض الغض.

اقترب لملوم من أمه تصك أسنانه من شدة برودة الهواء. أشارت إلى على وثريا. فقد حان وقت العودة إلى المنزل. لم

لملوم الملاءة. جمع على وثريا ما تبقى من طعام. وضعته شريفة بالحقيبة. أمسك لملوم بذيل فستان أمه. قبض على بيد ثريا. بدأت خطوات وداع حدائق رأس التين وكورنيش البحر. أشارت شريفة على قصر أمام الحدائق. لم يتأخر لملوم في الرد:

- هذا قصر أم البحرية.

سعدت شريفة بإجابة لملوم. شاركت ثريا فرحة أمها. نفض على يده من يد ثريا، مهرولا إلى داخل المنزل.

* * *

شاطئ الأنفوشي يودع زواره. هواء محمل برمال الشاطئ، يطرح على الأغراب، عسى أن يرحلوا فيكفي ما أصابه ، كانت تلك نظرة لطفي إلى الشاطئ ومشاهدة أحواله وتقلباته من خلال قضبان النافذة. فاليوم الأحد. اقتربت الساعة من السادسة مساء، لن يرحل من جلسته والخروج لمقابلة أصحابه في مقهى الخرس. اعتادوا على غيابه في آخر كل شهر. لم يحاولوا إجباره على الجلوس معهم بالمقهى وإزاحته عن المشاركة في دفع الحساب. تناول كوب الشاي الساخن، نظر إلى على يقرأ وثريا تصحح له الكلمات. كان المنزل

هادئ. شريفة ولملوم بالخارج، فاليوم الأحد تستعد عائلة جرمانية جارتهم لزفاف ابنتها نعيمة ومهمة شريفة القيام بالواجب مع نعيمة من تنظيف للجسد وحك للأقدام وقص للأظافر وإزالة المعاص المتراكم على حافتي أعين نعيمة ونتف للشارب. نظر لطفي إلى ابنته ثريا، بدأت الدخول في بوابة الأنوثة. سرح في حال نعيمة وموافقة أهلها من الزواج بميكانيكي يكبرها بعشرات

السنين. قبلوا الزواج مع تنحية فارق السن أمام نعيمة وصغر جسدها وظهرها المحدب. أصحابها يطلقون عليها " الحدباء " كانت مميزة بجسدها الأبيض وشعرها الكستنائي المتماوج مع ضوء الشمس. هذه المشهيات كانت كفيلة بقذف الخطيب الميكانيكي مقدما حنكته الموتو رية وجيوبه المنتفخة بالمال وعمارته على كورنيش شاطئ كليوباترا وعائلته الثرية التي باركت هذه العروس المحدبة الظهر المكحلة بالمعاص. انتفض لطفي على صوت فرقعة قوية آتيه من داخل الحمام. ارتمت ثريا وعلى في صدره. أنطلق صوت صراخ من الحمام. حاول زحزحة أقدامه. تقدم بخطوات ثقيلة. ظهر على باب الحمام عم بيومي وامرأته سنية جيرانهم في المنزل الملاصق. لا يرى منهما إلا أعينهم. كانت أجسادهم يكسوها الغبار والأتربة. أمسك لطفي بيد جارته سنية. أخرجها من بين

ركام الجدار المنهار. أشار إلى ثريا بإحضار جلباب لستر جسد عم بيومي. ضحك على. هز يد لطفي مشير إلى الحمام. :

- الآن عندنا حمامان وليس حمام واحد. حمام عم بيومي. وحمامنا!!.

* * *

جلس لطفي على درجات سلم مسجد المرسى أبو العباس بعد صلاة العشاء وغلق المسجد أبوابه ترحم على خاله إبراهيم وعلى من فاته من أحباب حتى حبيبته شريفة. عراك وخصام. لا تريد أن تمكث في شقة الأنفوشي خوفا على أولادها من سقوط جدران المنزل كما سقط جدار الحمام. حاول إقناعها بقلة الحيلة والمال والبحث عن شقة أخرى لا فائدة فهي. مصرة على الرحيل ، لم ينتبه لطفي لتلك المرأة، وضعت في حجره شقة من الخبز. نظر إلى الشقة. كان بها فول نابت وقطع من اللحم المسلوق. حسم موقفه أمام اللحم المسلوق حاول اللحاق بالمرأة ورد شقة الخبز. لم يتمكن باللحاق بالسيارة. عاد إلى مكانه على درجات سلم المرسى أبو العباس. التهم شقة الخبز. أسند رأسه على الحائط. بدأ إلحاح احتساؤه لكوب الشاي. أين يجد ثمن كوب الشاي. ؟ حتى عند شريفة لا يوجد القليل من

الشاي. هبت نصائح خاله إبراهيم. جلسته لا تفيد. حتى المسجد أغلق أبوابه ولا يوجد من يساعده في الخلاص من إلحاح امرأته بالرحيل من الأنفوشي والبحث عن شقة أخرى. هبط درجات سلم المرسى أبو العباس. عاد للصعود. أعاد الصعود والهبوط. التف أبناء الشحاذين حوله. أمرهم بالجلوس على درجات السلم. فتح أزرار قميصه العبك ذو اللون البيج المميز. ظهرت قسمات الفانلة المقطعة. تخترقها شعيرات صدره الكثيفة. رفع يده اليمنى إلى السماء. أشار باليسرى إلى قلعة قايتباي العتيقة الصامدة بين الأمواج. :

- أنا العبد الفقير لطفي. الشريفة زوجتي شريفة كانت لطيفة وحبيبة وجميلة. أهدتني لملوم وثريا وعلى. أولادي أحبابي. أطعمهم من حلال. كسوتهم أحسن ثياب. أحسن علام أعلمهم. أفضل طعام أطعمهم. أشرفه وأحسنه الحلال. وأنا لا أرزق إلا من الحلال.

تزاحم حوله وعلى درجات سلم المرسى أبو العباس الشحاذين. قال أحدهم:

- أكمل يا سيدي أكمل!! أمتعنا بكلامك يا سيدي أمتعنا!!.

قطع لطفي قطعة من الفانلة المقطعة. ظهر الكثير من الشعر. :

- كل عمري وحياتي في الحلال. أسمع كلام الشيخ الأمام وأصل الأرحام. وأهلي قلوبهم حجر وأعينهم نار وحطب. لا شفقة ولا رحمة. أنا أخوهم وابن عمهم. وخالهم وزوج عمتهم ما ذنب أكفي الملطخة بالجملكة من مهنتي؟! ما ذنبي بفقري وغلبي وقلة حيلتي؟!!. أليست تلك موازين الأرض؟!!. لا أعرف قسم الشرطة ولا أعرف المشاكسة ولا المعايرة. أعيش في حالي أربى أولادي. ما ذنب أولادي؟ هل الفقر عيب؟ ابتعد أهلي عنى. لم يرحموا أولادي. أخي سالم يمر بالأنفوشي أمام أولادي ولا ينظر حتى إلى نافذة منزلي!!. يصطدم بابني لملوم ولا حتى جبر خاطر ولا سلام!!. قطع قطعة أخرى من الفانلة المقطعة. ظهر صدره الملطخ بالشعر الأسود الكثيف.

- أعمل ليل ونهار.

قاطعته شحاذة من الشحاذين الدراويش. :

- وامرأتك الشريفة شريفة العفيفة اللطيفة الجميلة؟

لم ينظر لطفي إلى تلك المرأة، صورة امرأته شريفة تمتلكه امتلاك الأسير المقيد بالسلاسل والجنازير خلع القميص العبك. أكمل تمزيق الفانلة. تساقطت على الأرض. ازدحمت أيدي أولاد الشحاذين على قطع الفانلة. كان العرق يتصبب من جسد

لطفي. حملق في دائرة الشحاذين حوله. بحث عن صاحبة السؤال. :

- شريفة الجميلة العفيفة. الآن طنانة. زنانة. سعرانة .

قاطعه أولاد الشحاذين. :

- طنانة. زنانة. سعرانة.

هبط درجات سلم مسجد المرسى أبو العباس متجها إلى شاطئ البحر. ما زال الشحاذين وأولادهم يسيرون خلفه. صعد رصيف الكورنيش. التفت إليهم.

حاصرته المرأة الشحاذة بتكرار السؤال:

- وامرأتك شريفة الشريفة العفيفة الجميلة؟!!.

حملق لطفي إليها، أشار بيده إلى قصر رأس التين وشاطئ الأنفوشي. :

- لن أتركها من أجل أولادي. ثريا وعلى ولملوم. سأرحل وأعود. سأرحل وأعود.

خلع بنطله ثم قفز بين الأمواج.

أزميرالدا

رواية

الجزء الثاني من رائعة "الأنفوشي"

محمد عزام

نظرت "شريفة" من نافذة ترام الحضرة, تجتر ويلات غياب زوجها "لطفي" بمستشفى الأمراض العقلية. كان المنقذ

لهـا مـن عـذاب غيـاب لقمـة العـيش، العمـل بمصـبغة "الحـاج نجاتـي" نظير بضعة قروش.

هبطـت "شـريفة" فـي محطـة الحضـرة. أحكمـت إغـلاق صـدرها بالـدبوس الشـنكل، فكـم تُعـاني مـن تلصـص نظـرات الرجال إلى صدرها، إعجابهم بهـذا الصـدر المنـافس لجمـيلات هوليود، صاحبات زوجها "لطفي" بفراش أحلامه، الممتـدة مـن أيام عزوبته حتى مستقره الأخيـر فـي صـدرها اللـين المرمـري الناعم.

اقتربـت مـن مصـبغة "الحـاج نجـاتي"، أعـادت الاطمئنـان على ستر صدرها. فهي تريد غلق نظراته إليه.

وضعت يدها على ثغرهـا, تخفـى ابتسـامتها الحزينـة بمـدى إعجاب زوجها بهذا الصدر النافر الجامح الراوي لكل متعطش لماء الحب.

اقشـعر بـدنها! هـا هـو "الحـاج نجـاتي" يقـف علـى بوابـة المصـبغة. تماسـكت مـع تجاهلهـا لنظراتـه. دلفـت إلـى الـداخل خافضةً لرأسها بين كتفيها؛ لتختفي بين زميلات العنبـر وأكـوام الأقمشة والخيوط.

مرت ساعات اليوم بـ"شريفة" متثاقلـة بـاردة، مـع نظـرات "الحاج نجاتي"، ومتابعة حركاتها خلال العُمال وبـين أحـواض

الصبغة. كانت تفكر إلى أين يريد أن يصل معها؟! هل هو المزاح وإعجابه بها؟! أم يريد أكثر من ذلك المزاح والإعجاب؟! هو يعلم ظروف حياتها الصعبة، بمرض زوجها "لطفي" بمستشفى المجانين، وتحملها أعباء معيشة أبنائها: "ثريا" و"علي" و"لملوم".

تحاول صد الجوع إلى قليل من الخبز والفول النابت والمدمس وقطع البطاطس المسلوقة مع حبات الملح والفلفل. لا تقدر أن تفعل أكثر من ذلك.

تمادت مع تأملات "الحاج نجاتي". هل يريد الزواج بها؟ أو إشباع رغبته فقط، والتنزه بين مفاتنها بعيدًا عن الحب الذي تفتقده بغياب زوجها؟

سقطت خصلات الخيط من بين يديها باقتراب "الحاج نجاتي" نحوها. حاولت إخفاء التوتر أمام عينه الراصدة لصدرها المغلق بدبوس الشنكل. استدارت تتسلل بين أكوام الخيوط والابتعاد. لم تكمل مسيرتها في الاختفاء. تجتز على أسنانها بابتعاد زميلاتها عنها واقتراب الحاج. همست:

ـ آه من ناقصات العقل والدين!

أمرها "الحاج نجاتي" بالتوجه إلى حجرة مكتبه.

أغلق باب الحجرة. لم تفزع من غلق البـاب، فهـي تريـد أن تنهي خطواته ونظراته إليها وإلى صدرها.

وَضع لفافة من النقود على طاولة المكتب. بادلته النظر إلـى النقود، كما كان ينظر إلى صدرها.

مدت يدها تلتقط اللفافـة. كانـت تريـد رفـع درجـات المشـهد بكشف نيتـه. أهـي الرغبـة بـالزواج؟ أم الحـب فقـط؟ أو الاثنـان معًا؟ ابتسمت لإغوائه لإسراع خطواته القادمة.

جـذب "الحـاج نجـاتي" المقعـد. جلسـت بجانبـه. لـم تهتـز "شريفة". أزاحت دبوس الشـنكل مـن صـدرها، شـعرت بسـحر مفاتنها أمـام فوهـة فمـه المفتـوح إلـى أقصـى درجـات الانفتـاح. أخرج لفافة أخرى من النقود. ضمتها "شريفة" مع أختها!

مـد "الحـاج نجـاتي" يـده ليلـتقط سـماعة الهـاتف القـاطع لخطوات الحب الصامت.

انقلبت سحنته إلى وحش جائع. دفـع بالسـماعة إلـى فريسـته "شـريفة". أعـادت غلـق صـدرها بالـدبوس الشـنكل. كانـت المكالمة من شقيقها "صابر"، يُخبرهـا بشـفاء زوجهـا "لطفـي" والإسراع إلى مستشفى الأمراض العقلية قبل دخول الليل.

لم تستطع إخفاء فرحتها بشفاء زوجها.

نظرت إلى "الحاج نجاتي"، مازال فاغرًا فاه. مُتحسرًا هذا الحب الضائع.

قذفت وجهه بلفافات النقود. أسرعت بالخروج.

***

نظر من خلف قضبان النافذة وهو يرتدي ملابسه، عسى يُشاهد امرأته "شريفة"، فاليوم يوم مولده الثاني وعودته للحياة، ليس من بطن أمه، لكن من عنبر الأمراض العصبية والنفسية.

لم يدرِ كم مضى عليه من الزمن بعد انتشاله من مياه البحر، إثر اللوثة التي أصابته على شاطئ بحر "المرسي أبو العباس", وهروبه من مشاكله بين الأمواج؟!

سؤال تصمت زوجته عن إجابته.

انتبه إلى خطوات زميل عنبره، صاحب النظارة السوداء، خشن الملامح، بطيء الحركات. أمر "لطفي" بتلاوة النصائح لمواجهة الحياة. لم ينسى أن يدس بعض النقود في يد "لطفي". لم يُقدم كلمات الشكر، فهو يعرف زميل عنبره ومبادئه التي

أوردتـه فـي مهالـك وظلمـات غـرف التعـذيب، والتنقـل بـين محافظـات وصـحاري مصـر، وكـان آخـر المطـاف مستشـفى الأمراض العصبية والنفسية بالإسكندرية والالتقاء به.

أشار صاحبه ناحية بوابة المستشفى.

- "شريفة" زوجتك قادمة.

أشار "لطفـي" بيـده عبـر قضـبان النافـذة. فهمـت "شـريفة" بانتظاره بإدارة المستشفى.

لم يشعر بـذهاب صـاحبه، أسـرع بـالخروج مـن العنبـر، لا أحد بردهة الممر، اختفى صاحبه وزميل عنبره. لـم يتـأثر بهـذا الوداع الجاف من هذا الرجل، فقد اعتاد على حركاته وخطواتـه في العنبر وبين نزلاء المستشفى! هبط درجات السلم.

كانـت امرأتـه تنتظـره أمـام مكتـب الخـروج. لـم يَسـلم مـن نظراتها. تحاشى النظر إليها. أنهى إجراءات الخروج. انتبـه ليـد صـاحبه، نزيل عنبره، يربـت علـى كتفـه، يـأمره بـالخروج مـن حجرة المكتب؛ فقد حـان وقـت مواجهـة "شـريفة" بـالإجراءات الأخيرة من مراسم خروجه.

التوقيع باستلام زوجها "لطفي"، مع التعهـد بعـدم التعـرض بإثارته وفتح بركان غضبه وإثارة مشاعره.

اعترضت "شريفة" بعدم التوقيع على التعهد. أغلق الموظف باب الحجرة. أمرها بالجلوس، وحاول إقناعها. قاطعته بإشارة من يدها:

- كيف أكون مسئولة عن رجل, وهو الأولى أن أكون مسئولة منه؟! ألا يكفي ما تحملت خلال غيابه عن بيته وأولاده؟! ثلاثة أشهر في ذل وهوان وأبناء جياع، لا أملك حتى أن أطعمهم الخبز. ماذا تريد مني أن أفعل؟ لن أوقع التعهد. فيكفي ما تحملت، وإن كان لا يقدر على مواجهة الحياة؛ فالأولى له أن يمكث عندكم، ولا داعي لخروجه.

نفذ صبر الموظف. تناول سماعة الهاتف، أدار القرص. تحدث بصوتٍ منخفض وكلمات غير مفهومة. لم تعرف "شريفة" ماذا يدبر لها!

لم تمر غير دقائق.

فتح الموظف باب المكتب، "لطفي" يدخل مع صاحبه نزيل عنبره. فَهم موقف امرأته. اقترب منها. لم يعترضه أحد.

لم تستطع الاستمرار في موقف الاعتراض عن التوقيع.

تنفس الموظف الصعداء. أخيرًا وقعت "شريفة" بيد مرتعشة, وتساقطت دموعها على الأوراق.

قبض "لطفي" على يد امرأته. خطوات متكاسلة، ورؤوس تقترب من الأرض. أزاح حارس البوابة الحديدية الجنزير.

استقبل "لطفي" نسيم الحرية. أخرج قطعة الخبز من بنطاله، اقتسمها مع امرأته.

***

الشمس في طريقها إلى المغيب. صوت الشيخ "محمد رفعت" يجلجل في المذياع. تابع "لطفي" "شريفة" وهي تعد مأدبة الإفطار. لم يتبقَّ من الزمن غير دقائق معدودة وينطلق مدفع الإفطار بنهاية يوم آخر من أيام شهر رمضان.

التفت من خلال قضبان النافذة. ولداه "الملوم" و"علي" و"صبحي" ابن جارتهم "أم حلويات" يتجهون مع أبناء الحارة لرحلة كل يوم قبل الإفطار.

"كوم الناضور" بمنطقة الباب الأخضر؛ لمشاهدة الكرة الحديدية أعلى التل وهي تنخفض مطيعة للشمس في المغيب، ثم تختفي مع اختفاء قرص الشمس, وينطلق مدفع الإفطار،

وتبدأ رحلة العودة السريعة للأصحاب، ويُلم شمل أُسر الأنفوشي ويبدأ الإفطار.

أنهى "لطفي" إفطاره. جلس بجانب النافذة يحتسي كوب الشاي، فاكهة الفقير" كما تُطلِق عليه ابنته "ثريا".

لم ينظر إلى الشارع أو شاطئ البحر. كان ينظر إلى "ثريا" ابنته الحبيبة. نضج جسدها، واكتملت أنوثتها. لم يبقَ غير أن يطرق الخاطب الباب ليقطف زهرة حبه. كان مستعدًا لهذا الطرق. راتبه بقاعدة رأس التين، وعمله بورشة تلميع الموبيليا بعد الظهر؛ يجعله مستعدًّا لهذا الطرق.

خرج "لطفي" من تفكيره بالخاطب. آذان العشاء، أسبغ الوضوء. أمسك بيد ابنه "الملوم". كان عليه تلقي طلبات امرأته لوجبة السحور:

- البيض المسلوق والفول المدمس وطواجن الزبادي الفخارية مع إضافة قرصة الصائم لحبيبه "الملوم"، جزاء المواظبة على صلاة التراويح.

دلف "لطفي" لحجرة النوم، مازال ابنه "علي" يغط في النوم. جذب "الملوم" والده يحثه على الخروج، حان الوقت لصلاة العشاء والتراويح.

***

الأنفوشي تتوهج تحت أضواء أنوار شهر رمضان. أصوات الدراجات المزودة بقطع الكرتون بين أسلاك إطاراتها تُقعقع على الطريق، تتحدى أصوات المستعجلة الخشبية ذات الثلاث عجلات الرومان بللي المُستعمل، صاحبة فاقدو الحيلة في ركوب الدراجة.

هذه الأحوال لا تغري إلا عددًا قليلًا من أولاد الأنفوشي. لكن الكثرة من الصبية كان لهم طريق آخر. من ضمن هؤلاء "علي" شقيق "الملوم". فزع من نومه بعد الإفطار على صوت أصحابه لأمسية ليالي رمضان. الذهاب إلى سوق العيد، والاستمتاع بتلك الخلطة العجيبة من كل شيء تشتهيه الأنفس.

أكمل "علي" ارتداء ملابسه. مال على كتف أمه، فقد حان أخذ قطع النقود والذهاب مع أصحابه.

تابعت "شريفة" من خلف قضبان النافذة المطلة على شاطئ البحر ولدها "علي" مع أصحابه في طريقهم إلى فسحتهم المفضلة: سوق العيد. كانت تشعر بالأسى من أحوال "علي" وشقيقه "الملوم". المصاحب لزوجها إلى المسجد

وصلاة التراويح. ثم متابعة هوايته المفضلة. الأفلام العربية والأجنبية. وقراءة القصص والمجلات.

ابتسمت. هاهو قادم "لملوم"، أشارت إليه بالانتظار. ناولته قطعة نقود الثورة، حاملة النسر الذي يطير باسطًا جناحيه بمجرد ملامسته للهواء.

***

ليالي شهر رمضان المتوهجة بأنوار الإيمان، صيام نهارها, وصلاة ليلها, حلقات الذكر والدعاء، جلسات السمر بالليل على المقاهي والطرقات, وتناول ما لذ وطاب من أطباق البليلة المزينة بالزبيب وجوز الهند والصنوبر، الجاذبة بالعائدين من صلاة التراويح, الهاضمة بما امتلأت به الأمعاء.

كان "علي" وأصحابه ينظرون إلى هذه المقاهي، نظرة المترقب لجريان السنين، للجلوس مثل هؤلاء الرجال. اقترب "علي" وأصحابه من (سوق العيد) المزدحم برواده. أشار على الراقصات أصحاب الأجساد البيضاء والسمراء والحمراء, تهتز وترتعش مثل الجان، فوق القاعدة الخشبية المثبتة بإحكام؛

لإغواء المشاهدين بقَطع تذاكر الدخول، ومشاهدة ما تم إخفاؤه على هذه المنصة من إباحية وأشد فضح للأجساد. أشارت إحدى الراقصات بالتحية لـ"علي" وأصحابه. همس "علي" في أذن صاحبه:

ـ هل تعرف من هذه الراقصة؟

أجاب بالنفي.

انتشى "علي" وأكمل حديثه:

ـ هذا هو "توحة" العايقة ، الهائجة على شباب الأنفوشي. "توحة" في المساء. و"فتحي" المدلل في الصباح. راقصة ليالي شهر رمضان. له من الأخوات ست، هو آخر العنقود.

قاطعه صاحبه:

ـ وهل يخرج للرقص في غير أيام شهر رمضان؟!

أجاب "علي" بالنفي، فهو يعرف "توحة" معرفة عن قرب. فهذه التوحة، ما هي إلا "فتحي"، الشاب المخنث وسط نصف دستة من الإناث، أخواته. تنهد "علي" متأثرًا بالحديث عن "فتحي". لم يكمل مسيرته مع أصحابه. تسلل وسط رواد سوق العيد يهاجمه هذا السؤال الغريب:

ـ هل من الممكن "فتحي" أو "توحة" الهائجة أن يتزوج أم تتزوج؟!

***

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا آله إلا الله. الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد.

نهضت "شريفة" من نومها على تكبيرات العيد. تسللت بالخروج من غرفة النوم وسط شخير زوجها "لطفي". كانت مطمئنة من نومه، فقد عانى في ساعات الليل بإعادة تلميع أثاث المنزل مع صديق أمسيته، المذياع الفيليبس الضخم القديم.

جلست بعد الانتهاء من كسوة غرفة الجلوس للأهل والأصدقاء، المطلة على شاطئ بحر الأنفوشي. أعادت النظر إلى وعاء الكحك والبسكويت والفول السوداني، وقطع الحلوى, هدية العيد لجارتها "أم حلويات", ساكنة البدروم أسفل شقتها. التفتت إلى الشاطئ من خلال النافذة، كان المشهد غريبًا.

صياح وشتائم! رجال يهرولون وراء امرأة عارية. تحاول الفرار من هؤلاء الرجال بعبور الطريق.

تراجعت للخلف إثر دقات باب الشقة. كانت القادمة حبيبتها ووكالة أنباء الأنفوشي؛ جارتها "أم حلويات"، الواردة لـ"شريفة" بالأخبار المعتمدة. لم تعطِ فرصة لـ"أم حلويات" بالجلوس. سحبتها من يدها إلى النافذة. مازال الرجال يحاصرون المرأة العارية!

أطلقت "أم حلويات" ضحكاتها, والتي تعرف "شريفة" توابع هذه الضحكات. أمالت "أم حلويات" على أذن "شريفة":

ـ هذه امرأة الشاطئ، وهؤلاء الرجال سكارى بحري. يخرجون بعد قضاء ليلة العيد بين الخمر والنساء.

التفتت "أم حلويات" إلى وعاء الكحك والحلوى. لم تكتمل فرحتها. نهرتها "شريفة" بكلماتها الهامسة بعدم مس الوعاء إلا في شقتها مع أولادها. أسرعت "أم حلويات" بالوعاء خارج الشقة، وهمست:

ـ الآن أقدر أمد يدي وأتناول منه رغم أنفك!

ضحكت "شريفة" وهي تراقب "أم حلويات" تلتهم الحلوى أثناء طريقها إلى شقتها.

***

أسرة "لطفي" على قدم وساق. الأسرة كلها تستعد لميعاد هذا اليوم، لم يلتفت "لطفي" إلى ولديه "علي" و"الملوم" وهما يجهزان أنفسهما؛ للذهاب إلى عقد قران ابنة العمة "جميلة". كان يراقب مشهد "شريفة" وهي تجهز ابنته "ثريا". غض بصره عن "ثريا" وما تفعله "شريفة" بها. هي تحاول بقدر ما تستطيع إظهار مفاتن وأنوثة "ثريا"! من الصدر البارز، مثل صدر أمها الجامح، والأرداف العامرة باللحم والشحم والأنوثة.

لم يقدر عن صد إبراز هذه الوجبات الشهية أمام احترام امرأته بإخراج مفاتن ابنتها لجذب وصيد العرسان والخُطاب، خاصةً في مثل هذه المناسبات. كان مستعدًا لطرق الخُطاب، وتلبية وتجهيز ابنته بكل ما ترغب، مثل أي عروس من بنات عائلته الأرستقراطية. كان يعرف أن هناك من الفوارق بينه وبين رجال العائلة. فهو ـ إن طلع أو نزل ـ عامل تلميع الموبيليا الأسطى "لطفي"، صاحب الأصابع المصبوغة بطبقة الجملكة. نظر إلى كفيه، وراوده السؤال المؤلم:

ـ كيف يكون حال العريس عندما يضع كفه في هذا الكف المصبوغ بمادة الجملكة؟! نعم, هذه الكف ستُغطى بالمنديل

الأبيض، لكن لا مفر من إحساس العريس بخشونة الأصابع. التفت إلى امرأته، ما زالت لم تنتهِ بعد من تجهيز ابنتها. انسحب هو الآخر. فقد حان الوقت بحلق ذقنه وارتداء ملابس الأفراح والمآتم!

***

الموسيقى تشتعل مع إضاءة الأنوار. رجال ونساء فوق حلبة الرقص، يتمايلون مع أنغام الفرانك وآراب.

كان "لطفي" يراقب عائلته، محاولتهم التشبه برقص الخواجات الأجانب! حركات نشاز عن مشهد فاتنات أوروبا، وما يشاهده بسينما الأنفوشي، من الأجساد النحيفة المشتعلة بالإغراء والشهوة.

ابتسم لمنظر شقيقه "سالم"، علامات السُكر بدأت تفضح حركاته وكلماته. انتبه لتوقف هذه المشاهد الساخرة من موسيقى ورقص. تلاشت الفوضى، كما يتلاشى ضوء النهار، مع خطوات فضيلة المأذون. أخفى "لطفي" كفيه بعد مشاهدة تلاقي كفى العريس ووالد العروس: "محمد بك" زوج شقيقته

"جميلـة"، والتفـاف الأهـل والأصـدقاء؛ لمشـاهدة طقـوس عقـد القران.

انتبه "لطفـي" لغمـزات امرأتـه، بمتابعـة هـذا الشـاب خلـف ابنته "ثريا". لم يتحرك من جلسته؛ طبقًا لتعليمات "شريفة":

عدم الاعتراض على مَن يحوم حول ابنته!

كظم غيظه. ما زال الشاب ورائها، بل تمادى في الالتصـاق بجسدها الأبيض الغض، مُستغلًا الازدحام حول مشهد المأذون. كان عليـه تلقـي أوامـر "شـريفة" بمـا هـي الخطـوة القادمـة. لـم تتبرم من هذا المشهد السعيد! بادلته بغمزة الرضا والارتياح!

الآن "ثريا" في طريقها لبيت الزوجية.

طأطأ "لطفي" رأسه إلى كفيه، وهمس:

- إلى متى ستظل هذه الأيدي ملطخة بصبغة الجملكة؟!

تنهَّد بالإجابة الحزينة:

- حتى دخول القبر.

أخرج قطعة الخبز من بنطاله، وبدأ القضم في هدوء.

***

رائحة البخور تملأ غرفة الجلوس المُطلة على شاطئ بحر الأنفوشي. كل شيء مُرتب ونظيف، حتى أبواب الغرف.

لم تنسَ "شريفة" إزالة الأتربة وخيوط العنكبوت. وتلميع خشب وزجاج النافذة المطلة على الشاطئ. تابعت خطوات ابنتها "ثريا" في انتظار خطيبها، فاليوم ميعاد الزيارة الأسبوعية التي سمح بها "لطفي" لهذا الخاطب للجلوس مع ابنته؛ حدده بالساعة واليوم؛ حتى لا يختلط الحابل بالنابل، ويذوب جمال "ثريا", ويفلت العريس بعد تناوله حلاوة عسيلتها.

نهضت "ثريا" مع احمرار وجهها، تهز عسلها وحلاوتها؛ لتختبئ في غرفةٍ أخرى.

نظرت "شريفة" من النافذة. العريس قادم؛ يحمل ما لذ وطاب من هدايا كل أسبوع. دلفت إلى فتح باب الشقة لاستقباله، وصده من الاصطدام بجارتها "أم حلويات"، التي ساءت العلاقة بينهما حسدًا للخاطب وما يحمل من هدايا.

***

الشوارع خالية من المارة، نوافذ المنازل مغلقة. السماء تُنذر بهطول المطر. برودة الهواء تتسلل من شاطئ البحر تصفر في الآذان. أنوار البلدية فوق الأعمدة تؤنس وحدة عربات الكرو التي امتلأت بالعِزال. أعطى "الطفي" إشارة التحرك، مُودعًا لشقة زواجه، فقد رُزق فيها بأولاده الثلاثة: "ثريا" و"علي" و"الملوم" وأجمل لياليه مع امرأته "شريفة". لا حيلة له مع إصرار امرأته بالانتقال إلى مسكن آخر؛ خوفًا من انهيار آخر. يكفي ما سقط من جدران الحمام، لم يُصب أحد. لم تصبر "شريفة" بإصلاح وترميم. أصرت على الرحيل، وقد كان.

فرك يده على درجات السلم الرخامية. قبل يده، التفت إلى شقة الجارة "أم حلويات" البارزة من الأرض. رفع نظراته في بطء وحذر. شقة المرأة اللعوب (الست مصيبة) كما يسميها. تمنى أن يراها في لحظات الرحيل. المغتصبة لشهوته منذ سنوات مضت، يريد أن يُشبع نظراته منها، ما زالت ذكرى متعة الحرام تراوده, بل وتلح عليه في هذه الدقائق المعدودة.

انتبـه إلــى الجــارة "أم حلويــات" وهــي تحتضــن أولاده وامرأتـه، تبكـى بجانبهـا. رفـع يـده مُنهيًـا هـذا المشـهد الـدرامي وسرعة الرحيل، فالسماء بدأت تُسقط قطرات الماء. تابعـت "أم حلويات" رحيل العربات. لم ينظر "الطفـي" إلـى الـوراء. أغلـق ملف ذكرياتـه الأنفوشـي. فـتح ملفًـا آخـر بسـكنه الجديـد منطقـة الحجاري, المطلة على مداخل بحري القديمـة. ميـدان المسـاجد, أولياء الله الصـالحين. السـيالة، بمنـازلهـا القديمـة وقواربهـا علـى أركانها.

ربت على كتفه ولده "الملوم":

- أيـن زوج شـقيقتي "ثريـا"؟ ألـيس مـن الواجـب حضـوره للمعاونة ومساعدتنا؟!

لم يهتم "الطفي" بالحـديث، فهـو راضٍ كـل الرضـا بمـا قـدم زوج ابنتــه مــن خــدمات، والمعاونــة فــي تقـديم المــال الــلازم للانتقال لهذا السكن الجديد. نظر إلـى امرأتـه بالعربـة الأخـرى، وهمس:

- يا لكِ من زكية! كـم تشـبهكِ "ثريـا" فـي اسـتغلال مفاتنهـا وحركاتها في أخذ ما تريد!

مسـح جبهتـه مـن الأتربـة، لـم يفلـح فـي إزالتـه مـن شـعره وحواجبه. كان مُغتمًا لفراغ حافظة نقوده مرة أخـرى، بعـد أخـذ

امرأته كل ما تريد لتجهيز ابنته "ثريا"، غير عابئة بمصاريف ولديه "علي" و"الملوم". كان همها أن تتحدى عائلته الأرستقراطية في المنافسة بكل ما يلزم ابنتها، بل وأكثر من بنات عائلته! حتى أصبح مكبلًا بالكمبيالات الشهرية؛ لتسديد بقية جهاز ابنته "ثريا"، ولا يدري، هل سيقوم العريس بالمطالبة بما قدم في المساعدة بمصاريف الانتقال لهذه الشقة الجديدة؟ أليس من الأولى أن نعرّفه بتكلفة جهاز حبيبته "ثريا"؟ هز "لطفي" رأسه بالنفي. لا يريد أن يقف أمام امرأته "شريفة" وعاقبة كشف المستور.

لا مفر من تناول كوب الشاي وكسرة الخبز، ومواصلة تعاسته كما كان في الماضي!

التفت لشاطئ البحر. بدأت العربات تنعطف عن الطريق، ويختفي فيروز عينيه. كورنيش الشاطئ، بما يحمل من ذكرياته، بين امرأته والمرأة اللعوب. همس:

- هل من عودة للسقوط بين أمواج البحر مرة أخرى؛ هربًا من مشاكله؟ وهل هذه المرة سيخرج من البحر إلى مستشفى الأمراض العقلية أم.. إلى القبر؟!

***

أطلت "شريفة" من النافذة الوحيدة لشقتها الجديدة، المطلة على الشارع، لا تملك غير أن تُبرز غير رأسها، أمام ما ترى من السائرين على جانبي الطريق، وأمام نوافذ الجيران وعلى درجات أبواب المنازل. رجال ونساء على الدرجات. لم يهتموا بهذه الملابس الفاضحة للمفاتن وعنفوان الشهوة. عروض بدون مقابل، تطلب كل محتاج من رجل وامرأة لسد حاجته من لذة وشهوة! لم يقف الأمر إلى هذا الحد؛ رائحة الكيروسين وماء النار تكمل رحلة الإطلال من النافذة. المحل الملاصق للنافذة؛ "سعداوي السمكري"؛ مُنقذ الأسرة الفقيرة المترامية بين أطراف محله، صاحب مزاجه العالي من سنة الأفيون اليومية مع فنجان القهوة.

كان عليها الصبر ومحاولة إخفاء مدى التعاسة التي وصلت إليها، فهي التي اختارت تلك الشقة ومغادرة الأنفوشي، حبيبة زوجها وذكرياتها، بكل ما تحمل من إمتاع. ضحت بماء البحر. والشاطئ ونسيمه المعطر برائحة اليود؛ في سبيل إنقاذ الأسرة من انهيار المنزل عليهم والسكن بشقة الدور الأرضي،

ذات العين الواحدة. نافذة تستقبل الهباب والأتربة وهفهفة روائح ماء النار.

كل هذه المُنفرات، كان نتاجها؛ إغلاق باب الزيارات من الأهل والأصدقاء، حتى خالتها "نرجس".

مضت الشهور، ولم تحل إلى بيتها المتواضع لمعرفة أحوالها وأحوال أبنائها، كما كان في الماضي. هبت عليها رائحة شاطئ البحر؛ اقتراب جارتها "أم حلويات" إلى المنزل. قفزت تكاد أن تطير لاستقبالها بما تحمل من رائحة البحر، وبما تحمل من أخبار أهل الأنفوشي.

لم تسلم من نظرات "أم حلويات" وعتابها المتكرر كأمواج البحر، بالرحيل إلى هذا السكن، فهي ما زالت تسكن بالبدروم مع أولادها السبعة، ولم تهتز كما اهتزت مثلها بالرحيل. لم تلتفت "شريفة" لتلك النصائح. كانت تظن أن هذا الرحيل وقُربها من الأولياء الصالحين، "المرسي أبو العباس" و"سيدي ياقوت العرش" وقبور المشايخ أصحاب البركات سيجعل من سكنها جنة من جنات الله في أرضه. أمالت "أم حلويات"، أعطت "شريفة" أذنها. بدأت بالإنصات لأخبار أهل الأنفوشي الطازجة. كانت هي الأخرى مستعدة بمد جسور الأخبار بأخبار أهل الحجاري. لم تسعد "شريفة"بأخبار الأنفوشي، فهي

الأخبار القديمة الجديدة. الست مصيبة اللعوب الشهوانية، كما يسميها زوجها "لطفي" ومغامراتها مع الرجال وخاصة الشباب. كما لم تسعد بأخبار "الشيخ الدرويش" قاتل زوجته الخائنة بالسم ودفنها، وزواجه بأخرى. انكسرت عيون "أم حلويات" أمام إخبار "شريفة" الطازجة، الملتهبة.

عاشقة المنجد "جمالات"، ورفيقة الرجل الدبلوماسي الزنجي أنجى. وبائعة الهوى سكرة، وتاجرة المخدرات "أم حربي".

انقطع شريط الأخبار بطرق الباب. همست "شريفة":

ـ جئنا بسيرة القط. جاءنا ينط.

القادمة جارتها "أم حربي" تاجرة المخدرات. زيارة كل صباح. لم تسلم "أم حلويات" من نظرات "أم حربي". انكمشت بجانب "شريفة". لا تقدر على الوقوف والخروج من جلسة الشُبهات. امتلأت الغرفة بدخان الأنفاس، وتمايل "شريفة" و"أم حلويات" مع تمايل رائحة المزاج من فوهة "أم حربي".

***

آه.. مالك؟ سعودي مات.. شخ عليه.

نظر "لطفي" من النافذة على أصوات (شخ عليه) أطفال وشباب الحارة، يحملون نعشًا صغيرًا. مُزينًا بطرحة وعِقال. يرددون: (شخ عليه)! كان ابنه "الملوم" يُنظم صفوف الأولاد أصحابه وأطفال الحارة. لم يكن يتوقع أن تسوء العلاقة إلى هذا الحد بين مصر الثورة وبلدان الخليج والأراضي الحجازية. هذه الإمارات والممالك في فزع من ثورة مصر، وما تحمله من دعوى لثورات الشعوب على حكامها! لم يتبرم "لطفي" من كلمات (شخ عليه)؛ تمنى زيادة العبارة. تذكر ابن عمه، وكيف طُرد من الأراضي الحجازية لمجرد وصول خطاب له بالحجاز يحمل عنوانه: "جمهورية السعودية العربية". ضاربًا بعرض الحائط بالمملكة العربية السعودية! كان يوم قيامة ابن عمه؛ جُذب من فراشه بالليل، وتم ترحيله إلى مصر بدون - كما يقول المثل - (ولا إحم ولا دستور).

ابتسم "لطفي"، فهو يعرف كلمة دستور. فماذا تحمل كلمة (إحم) تلك؟!

التفت إلى زوجته "شريفة"، تقبل عليه حاملة فاكهة الفقير؛ أكواب الشاي، همس إليها، واثقًا كل الثقة من إجابتها عن تساؤله؟

لم تتردد في الإجابة:

ـ كلمة (إحم) لا تقال هكذا، لكن تقال مرتان، وأحيانًا ثلاث مرات: (إحم إحم إحم) وذلك عند دخول دورة المياه (الخلاء)؛ خوفًا أن يكون بالداخل أحد يقضي حاجته.

لم تبخل عليه بإكمال الإجابة:

ـ إنها تُنذر ساكني الخلاء من الشياطين والأبالسة أن يبتعدوا لدخول زائر الخلاء أو دورة المياه.

لم تتوقف إلى هذا الحد، بل سردت باقي (الإحم) بذكر آخره (دستور):

ـ هذا قانون الإذن بدخول المنازل في كل مكان موجود على سطح الأرض، وهذا حال الغريب، والقريب عليه حرج.

لم تعطِ فرصة لزوجها بالاقتناع بهذه الإجابة:

ـ وأعلى دستور: ألا يُفاجئ الزوج زوجته في غرفة نومها!

أنهى "لطفي" احتساء كوب الشاي بعد هذه المحاضرة الرائعة من زوجته العبقرية "شريفة". اتجه إلى غرفة النوم بدون.. (إحم ولا دستور).

***

التفتت إليه، وقالت عبارتها المتكررة:

ـ أنت حضرت؟!

لم يأبه "الملوم" لكلمات أمينة المكتبة وهي تهمَّ بفتح باب المكتبة لأول الحاضرين.

"الملوم"، لا يهتم بأصحابه؛ أولاد حارته وزملاؤه بالمدرسة، وهم يتغامزون عليه في طريقه إلى "قصر ثقافة الحُرية". رحلة كل يوم، بعد انتقاله من الأنفوشي، والحناية تحت درجات السلم مع حلويات، ولعبة الطبيب العابث. إلى قصر الثقافة، والحب الجديد بالحجاري "بيحة" ابنة الجيران، صاحبة الشعر الأصفر والجسد النحيف واللقاء الساخن على درجات السلم.

سجل اسمه بدفتر رواد المكتبة. أخذ مكانه المفضل: رُكن القصص وبطوط وعم دهب وسندريلا. بحث كثيرًا عن قصص الشاطر حسن، لم يرها! لا يدرِ من أين كانت تأتي بها أمه "شريفة"؟! وبراعتها في مقدمة الشاطر حسن: طمبك طار. طمبك طار. أخذها الشاطر حسن وطار، مع الأميرة الجميلة،

مد شعورك الطويلة، يتسلق الشاطر حسن شعر الأميرة. يلتقي بها في قلعة الساحرة الشريرة.

التفت إلى أمينة المكتبة؛ تحث الجالسين:

ـ قد حان ميعاد غلق قصر الثقافة.

أخذ "الملوم" طريق عودته، كورنيش البحر النظيف. كان يريد أن يُحافظ على أناقته؛ من حذاء "باتا" الأصفر، والفانلة الحمراء الزاهية، والشورت المدعم بقطع الصفيح الصفراء. كان يمتلك من الفانلة أربعة ألوان: الحمراء لذهابه لقصر الثقافة. والصفراء وهي من مراسم ذهابه لشراء اللحم، طبقًا لتعليمات أمه؛ لشهرة صاحب المحل الواسعة في تشجيع فريق الكرة الإسماعيلي؛ يبتسم بمشهد "الملوم" بالشورت والفانلة الصفراء؛ يلفظ النارجيلة من فمه، ويهم واقفًا لتلبية طلبات "الملوم" من اللحم الأحمر الفاخر، ولا مانع من لملمة العظام المدعمة باللحم فوق الميزان، ليس من أجل عيون "الملوم"، لكن إكرامًا لهذه الفانلة الصفراء النظيفة الزاهية.

كان "الملوم" لا يتبرم بالإسراع بالعودة للمنزل؛ ليبدل الفانلة الصفراء بالخضراء، والخروج مرة أخرى لشراء ما يلزم اللحم من الخضار والطماطم والفلفل من المعلم سنكر مشجع نادي الاتحاد السكندري!

عبر "لملوم" الكورنيش إلى ميدان المساجد، صعد درجات سلم مسجد المرسي أبو العباس المغلق. جلس يتأمل مياه البحر ومراكب الصيد، وهي تعبر فنار القلعة العتيقة الصامدة. "قلعة قايتباي" الشامخة الحامية لحبيبته الجميلة، الإسكندرية. أسرعت دقات قلبه مع خطوات حبيبته الجديدة، "بيحة" بشعرها الأصفر وجسدها النحيل. تلاقى الحبيبان على درجات المسجد المغلق. لم يلتفت إلى خصلات شعرها الأصفر. أطبق على يدها بين كفيه، لم تتراجع حبيبته بسحب يدها. ضمت جسدها إليه وهمست:

ـ أتعرف مَن قابلت عند خروجي إليك؟

لم تمهله فرصة التفكير والاختيار:

ـ أبوك "لطفي" كان قادمًا من الخارج.

انتفض "لملوم" من جلسة الحب والغرام. أسرع في خطوات الرجوع, لم يلتفت لنظرات "بيحة"، وضحكاتها العالية بينما تتابعه في طريقه إلى البيت.

***

صعد "لطفي" السيارة "الفورد" قاتمة اللون، كئيبة المنظر. الجميع يخشاها ويخشى حتى مرورها بجانبهم. كانت ممتلئة بأمثاله من الرجال. لا يدرِ لماذا جُرَّ بعد صلاة الفجر وتم سحبه من قفاه، على باب المسجد؟! لم يرتكب جرمًا! ولم يفعل بعمله النهاري والليلي شيء يؤدى به إلى هذه السيارة، بهذه المعاملة القاسية، من هؤلاء الرجال غلاظ القلوب والأجساد!

حاول التحدث للرجل الجالس بجانبه، تلقى على وجهه أسرع حديث؛ قبضة اليد الغليظة!

هبط من السيارة في طابور المقهورين أمثاله. نظر إلى المبنى القديم المتهالك، عبر إلى ممر ضيق، انحشر مع زملاء صلاة الفجر، كان هو الشخص الرابع عشر لصُحبة الغرفة الخالية من النوافذ. لا يوجد غير دائرة صغيرة بالباب الحديدي. نظر إلى ساعته، لم تتعدَّ السابعة صباحًا. ربت على كتفه الرجل الذي حاول التحدث معه بالسيارة وهمس:

ـ ألا تعرفني؟ أنا جارك، خلف منزلك، "أبو تمام". ولدى "تمام"، زميل ابنك "الملوم". لا تحزن ولا تقلق، أنت رجل مُسالم، ليس لك نشاط.

لم يتفوه "لطفي" بكلمة واحدة. أخذ يفكر:

ـ كيف عرفني هذا الرجل؟ هل من خلال ابنه "تمام" زميل ولده؟ أم من خلال زمالة المسجد؟

كان يريد أن يسأله: ما الذي أورده إلى هذه المهالك؟! وما هو مصيره؟ وكيف حال امرأته "شريفة" وأولاده علي و"الملوم"؟

نظر إلى ساعته؛ تجاوزت الثامنة صباحًا. لم يسمع أي خطوات قريبة من الغرفة أو الزنزانة. ولا أصوات خارج المبنى تُبين في أي شارع هو، ولا في أي منطقة؟ أسئلة كثيرة لم يجد لها إجابات! اخرج قطعة الخبز من بنطاله؛ أخذ يقرضها في هدوء.

فتح عينيه من غفوة النوم بعد قرض كسرة الخبز. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحًا. التفت إلى باب الغرفة يُفتح، أبطئ في الوقوف مثل زملاء زنزانته. أظلمت الدنيا أمامه. لم يرَ غير نجوم السماء في عينيه. مسح وجهه؛ عسى أن يُخفف مما نال من القبضة التي لا ترحم؛ عقابًا لهذا التباطؤ. اصطف بين أصحابه. لم يرَ علامات الارتياح من الخارجين من تلك الغرفة؛ تحمل وجوههم العبوس والتوتر.

اقترب دوره بالدخول إلى الغرفة. أزفت الآزفة؛ قد حان دخوله، لم يرفع رأسه من الأرض؛ كان يريد أن يتفادى أي

قبضــة أخـرى تـأتي إلــى وجهـه. يريـد أن يُظهـر مـدى طاعتـه لصاحب هذه الغرفة.

جاءه صوت يحمل نبرات الرحمة والشفقة، أمره بـالجلوس. تـردد فـي الجلـوس، رفـع رأسـه ليُشـاهد صـاحب تلـك النبـرة الحانية.

أضاءت السماء أنوارها، خرجت الشمس والقمر فـي سـاعة واحدة، تحفهما النجوم وصفاء السماء بضـوء النهـار. المُحقـق؛ زميـل عنبـره بمستشـفى الأمـراض العقليـة، صـاحب النظـارة السوداء، خشن الملامح، بطـئ الكلمـات، أشـار عليـه بالصـمت التام. انتهى من كتابة سين وجيم، دس في يد "لطفي" لفافـة مـن الـورق، دق جـرس بجانبـه، أسـرع "لطفـي" فـي خطواتـه، لـم ينظر خلفه.

حـدائق الشـلالات تظهـر أمامــه، تعـج بالمــارة واخــتلاط السيارات. أخرج كسرة الخبـز مـن بنطالـه، جلـس تحـت ظـلال الأشجار يلتهما، لـم ينسَ إخـراج لفافـة ورق زميـل عنبـره، لـم يفرح بالنقود بقدر فرحه بمنصب صاحبه، في هذا المكان الهام. فحـص قصاصــة الـورق، رقـم هـاتف زميـل عنبـره صــاحب النظارة السوداء خشـن الملامـح، بطـئ الكلمـات. التفـت حولـه، اطمـئن؛ لـم يجـد أحـدًا يراقبـه. اتجـه إلـى مـا يُحـب أن يُشـاهده

ويكتحل بمائه الأزرق؛ شاطئ البحر. كانت خطوات قدميه تقفز مثل طائر "أبو فصادة". لم يقدر أن يحكمها، بل تركها تقفز بحريتها، فهي تعرف طريقها إلى المحبوب.. امرأته "شريفة".

***

- مدد يا مرسي يا أبو العباس. شلله يا سيدي القباري.

خطوات هادئة. نظرات تخترق ملكوت الأرض، تصعد إلى ملكوت السماء. حركات مطمئنة، ركوع وسجود، نظرات حالمة.

تلك كانت نظرات "الملوم" إلى كتاب اللغة العربية. يستند بظهره على عاموده المفضل بمسجد "المرسي أبو العباس"، بجانب مقصورة الشيخ العالم، الراقد تحت صحن المسجد هو وأبناؤه. صعد مقصورة "أبو العباس المرسي"، فهي المشهد الوحيد داخل المسجد. يحلم كما يحلم زملاؤه المنتشرون تحت أعمدة المسجد، يجتمعون جميعًا في ميضة الوضوء. ثم اختطاف الصلاة، والانتشار مرة أخرى تحت الأعمدة؛

لاستكمال المذاكرة تحت أنوار قوارير الثريا المعلقة، وفوق السجاد الأحمر الفاخر.

هدوء المكان؛ من أهم أسباب نجاح "الملوم" وأصحابه. الزميل "شكري" يشرح اللغة الانجليزية، و"الملوم" يشرح اللغة العربية، ويُبدع في شرح الأدب. كانت مادة الرياضة العدو الغبي أمام "الملوم"، وَصمة العار! كل شهر يسقط بين أنيابها، وتأتي في ذيلها مادة اللغة الأجنبية! يُعاني الكثير لفهم المواد. يحتاج إلى دروس التقوية، لكن لا فائدة؛ والده مازال يعاني من تسديد (كمبيالات) تجهيز شقيقته "ثريا". طريق الدروس مغلق أمام تطلعات "الملوم". أغلق "الملوم" كتاب اللغة العربية، لا يقدر على مواصلة المذاكرة.

هبت عليه عاصفة فقر أسرته وما بها من مشاهد المعاناة. كما تخلى عنه زملاؤه بالمسجد، لينفرد كل واحد منهم بدروسه الخصوصية! تمتم "الملوم" بكلمات لا يسمعها إلا هو ورب المسجد:

ـ نعم، الجميع يتنافس من اجل الشهادة الإعدادية. آهٍ من مُدرس اللغة الأجنبية! صدق في تصوير أهمية هذه الشهادة؛ فهي مثل تحويلة القطارات، من الممكن أن توصلك إلى القاهرة، ومن الممكن أن توصلك إلى صعيد مصر.

لم ينسَ "الملوم" موقف هذا المدرس طيب القلب بالتنبيه بإحضار كراسة جديدة، وعجز والده "الطفي" في تدبير القروش القليلة لشرائها. لن تُشترى إلا بعد استلام "لطفي" مرتبه الشهري خلال أيام قليلة. كانت مفاجئة مدرس اللغة، وموقفه الايجابي مع "الملوم"؛ بتحويله إلى الأخصائي الاجتماعي! سين وجيم! لم يتحرك قلم الأخصائي الاجتماعي، في معاونة "الملوم" بمحنة الكراسة الجديدة! كان وزر والده "لطفي" أنه موظف حكومي؛ يتقاضى مرتبًّا شهريًّا.

نهض "الملوم" من جلسته المغلقة، وَضع حذاؤه تحت إبطه، قبض على كتابه وكراسته؛ فقد حان ميعاد غلق مسجد "المرسي أبو العباس". هبط إلى الساحة الواسعة، عبر إلى شاطئ حبيبته الإسكندرية. نظر إلى كحل عينيه؛ البحر وأمواجه. تتهادى قوارب الصيد، تُداعب حاميتها الكبيرة الصامدة؛ "قلعة قايتباي" الشامخة بجدرانها وثباتها أمام أمواج البحر المداعبة والمُهاجمة سواء.

كان يتمنى أن يصمد هو الآخر أمام اللغة الأجنبية والرياضة. مادة الجبر، لم يفهم منها شيئًا. كيف يتعامل مع س وص؟! ما هذا الكلام غير المفهوم؟! لم ولن يكون حمارًا مثل زملاؤه الحاصلين على درجات النجاح. هُم الحمير، فعليهم

الحفظ دون فهم! ثم يفرغون كلمات السين والصاد؛ سيبقى حمارًا من نوع آخر، مثل زملاؤه أصحاب الدوائر الحمراء في الشهادات.

أسرع في خطواته؛ مُختصرًا الطريق من خلال حارات "السيالة". هبت عليه رائحة شواء الأسماك تنبعث من داخل أبواب صيادي البحر. لم يستجب لرغبات معدته، استجاب لرغبات قلبه؛ محبوبته "بيحة"، تنتظره على ناصية الشارع.

***

ينظر إلى شاطئ البحر، يتقدم خطوة. الطربوش النحاسي ملتصق برأسه، متحديًا هواء البحر، لا يقدر أن يُزحزحه مقدار أنملة، مثل مبادئه التي ذهبت به إلى المعتقل والنفي! يشمخ بأنفه، رأسه مرفوعة عالية في السماء. كل ما يرتديه من النحاس، مُلتصق بجسده النحاسي. تجلس أسفل منه المرأة المحروسة تتعلق بغصني الزيتون.

مسح "الطفي" الغبار من على وجهها النحاسي، يستعطفها أن تصعد معه إلى الزعيم. يريد أن يُصافح "سعد زغلول" بيده

ويلامس جسده، جسد هذا الزعيم حتى ولو كان نحاسيًّا. ويشاركه في مُشاهدته، خلال وقفته الصامتة والصامدة، عبر الزمان، أمام أمواج البحر الهادئة والهائجة في كل آنٍ؛ تتراقص لغة العيون بين سعد وقلعة قايتباي. يستمد كل منهما قوته من الآخر.

هبط "لطفي" درجات "سعد" في هدوء. لا يدرِ أهو خشوع أو انسحاب الخائب الذي لا يعرف ما هو مصيره ومصير أولاده أمام هجمات الظلم وأساليبه؟! ها هو يذهب بإرادته للقاء زميل عنبره بمستشفى الأمراض العقلية، الذي أصبح - بقُدرة قادر - المُحقق - عالي المقام - بإدارات الأمن القابضة الخانقة لكل مُتنفِس للحُرية، والمُغلقة لكلمة "لا". لابد أن تخرج كلمة "نعم". نعم. نعم، لا سبيل إلى كلمة "لا" بمصر. مصيرها الحبس والقتل بأساليب التعذيب المتطورة التي نهضت وترعرعت مع خطوات أحرار مصر؛ ضباطها الأحرار!

رفع "لطفي" رأسه إلى تمثال الزعيم. لا حيلة له! لا يقدر أن يُصافح يده أو يتعلق في ردائه النحاسي أو يلمس حذاؤه!

- لماذا هذه المِنصة العالية؟ هل وُضعت هكذا لإبعاد الشعب الحُر وعاشقي الحرية؛ فلا يقدروا على أن يتقربوا إلى الزعيم.

ويأخـذوا نصـيحته أمــام الطغــاة وأصــحاب الأقــلام الحمــراء وحاملي مفاتيح الزنازين وزوار الفجر؟

شـعر "لطفـي" بنشـوة النصـر. النصـر علـى نفسـه، وعلـى آماله الزائفة التي رسمها خياله الواسع المتسع لكل شـيء، حتـى إلى التعاون مع صـاحبه وزميـل عنبـره العـالي المقـام بـإدارات الأمن.

مع اقتراب الساعة من هذا الميعاد المشـئوم بحديقـة الـزعيم "سعد زغلول" بميدان محطة الرمل، كان واثقًا من قراره بعـدم إتمام المقابلة. لوَّح بيده إلى الزعيم مودعًا. أخـرج كسـرة الخبـز من بنطاله. لم تصل يده إلى فمه! توقفت. جمد في مكانـه! ظهـر صـاحب النظـارة السـوداء؛ زميـل عنبـره، يهـبط مـن السـيارة السـوداء. لـم يُخـفِ "لطفـي" كسـرة الخبـز، بـل أصـر علـى ظهورها أمام الرجل، وفى هذا الموقف، لماذا؟! لا يدرِ! اقتـرب بثقـة وثبـات إلـى صـاحبه وزميـل عنبـره. ابتسـم "لطفـي" إلـى الزعيم "سعد" في استحياء، كان يتمنى وصول كلماتـه إلـى أذن الزعيم:

ـ سيارة سوداء، ونظارة سوداء، وأيامـك كلهـا سـوداء علـى رأسك ورأس أبوك (ورأس اللي يشغلوك).

كان "الطفي" مطيعًا لصاحبه. لم تمر دقائق، توقفت السيارة أمام مقهى "السلطان حسين". أشار لصاحبه بيده. أدار موتور السيارة مرة أخرى. توقفت أمام كافتيريا "إيليت بوتيت". سبق "الطفي" صاحبه بالدخول. تابعه صاحبه يبتسم، همس:

ـ لا فائدة، فقر و(عنتظة). أين أنتِ يا أم بتعة؟!

أسرع النادل، لم ينظر إلى صاحب النظارة السوداء وملابسه الراقية الزاهية. بل مُسلِطًا بصره على "الطفي".

دق صاحب النظارة السوداء على الطاولة. دقات تشبه دقات قاضي المحكمة. قاطعة نظرات النادل. أصر "الطفي" على متابعة النادل له. أخرج كسرة الخبز من بنطاله. رفعها في وجه النادل:

ـ محتاجة هذه الكسرة لكوب من الشاي الكبير، الثقيل، خفيف السكر، وأفضل أن يكون هناك كوب من الماء المثلج.

ضحك صاحبه، أمر النادل بفنجان قهوة سادة. ابتعد النادل بين احمرار أذنيه واختفاء رأسه بين كتفيه.

أمال زميل عنبره رأسه، تابعه "الطفي" بخفض رأسه هو الآخر، مُصاحبًا انخفاضه بغمز عينيه.

النادل قادم، يُصاحبه رجل أنيق الهندام؛ البدلة السمراء الزاهية. كانت كلماته رقيقة؛ معتذرًا عن قبول "لطفي" بهذه الملابس؛ مُبررًا هذا المكان هُيِّئ للترفيه والانسجام. لم يكتفِ بهذا؛ أشار بيده في زاوية الصالة:

ـ هنا يجلس الفنان سمير صبري، وهذه يجلس عليها أبناء الجالية اليونانية، وتلك يجلس عليها...

قطع إشارته صاحب "لطفي" بلكمة قوية في وجه هذا الأنيق.

انسحب الأنيق متكأً على كتف زميله النادل. لم يتردد "لطفي" بقبض يد صاحبه؛ مودعًا لهذه الكافيتريا وهؤلاء البني آدميين الغرباء عن عدالة عبدالناصر وشعارات الثورة. سعد "لطفي" في قناعته بأن ثورة الضباط الأحرار قد بدأت في الزوال.

توقف محرك السيارة مرة أخرى أمام كايفتريا "على كيفك". أشار "لطفي" لصاحبه:

ـ أترى هذا الجالس الصامت. يضع ساقًا فوق الأخرى، جلسته لا يشعر بها إلا مَن يعرفه ويعرف مصيبته وآلامه. أترى؟ لا يتحرك، ولا تهتز سيجارته بين أصابعه. فنجان قهوته برد ونفد دخانه. صورة مكتملة باردة. أترى يا صاحبي؟

إنه الفنان والمخرج والمؤلف "نجيب سرور". كنت أذهب إليه لإعادة تلميع أثاث شقته. كنت أحسده على فلسفة كلماته وتعليقاته على أحوال مصر. كما حسدته على جمال امرأته. كان يبهرني بحديثه عن الثورة، والحرية، وكرامة الإنسان. سقط مع سقوط الأقنعة. لا حُرية، ولا كرامة، ولا ثورة! أتعرف؟ حتى امرأته ذهبت عنه! تركته بين أمواج العذاب، تقذفه في شواطئ التيه. ترتمي في حضن الآخر. الآخر يا صاحبي صديقه! الآن، يجلس وحده في عالمه الخاص.

قاطعه صاحبه ونزيل عنبره:

ـ الآن تذكرته. شاهدته كثيرًا بين ردهات عنبرنا بمستشفى الأمراض العقلية. كنت أظن أنه مثل مَن غضب عليهم القوم. مسكين هذا الرجل؛ عذاب حبه لا يساويه شيء. مسكين هذا الرجل!

جذب صاحب النظارة السوداء، جامد الملامح، "لطفي" من قفاه. أدخله السيارة. لم يتفوه "لطفي" بكلمة. أراد أن يرى نهاية هذا اللقاء!

أخيرًا تكلم بطيء الكلمات:

ـ أنت يا رجل! ألا تُشاهد أحوالك وأحوال أبنائك؟! التحقوا بمدارس مجانية، ويذهبون إلى الأندية الشعبية، وفُتحت لهم

أبـواب المستشـفيات، وتـوفرت لكـم جميـع السـلع الهامـة والضرورية. ألا ترى تحسن أحوال مصر في كل هذا؟!

أخرج "لطفي" كسرة الخبز من بنطاله، كأنما يستعد لمبارزته بها.

ـ كسرة الخبز تلك، أحملها دائمًا معي. أقضم منها. وأختزن بقيتها ليومٍ آخر. وهل ترى التعليم قد أصبح مجانيًا بعد الثورة؟!

أسألك؛ كيف تعلم الزعيم عبدالناصر؟ وكيف دخل إلى الكلية الحربية وهو ابن البوسطجي صاحب الراتب المُتواضع؟!

أليس قبل الثورة مجانية في التعليم؟ أما المستشفيات؛ ألا تقرأ مستشفيات أسرة الملك: "مستشفى الملكة نازلي" و"مستشفى ناريمان" وبناؤهما بجهودهما الشخصية. و"المواساة" وغيرها من أعمال البر؟

طبقة الباشاوات، والتي أطلقت عليهم الثورة طبقة الإقطاع، كانوا لا يتأخرون عن أعمال الخير والبر.

أفرغ "لطفي" كلماته، وداخله يرتعش خوفًا من صاحبه، مُنقذه من الاعتقال، ومركزه عالي المقام في الأمن. هل يكمل ثورته على الثورة؟ أم يتوقف إلى هذا الحد ويصمت؟ عِراك

وجِراك بداخله، لم يقدر على صده. صعد مع صاحبه على درجات مسجد القائد إبراهيم. لم يقدر أن يحبس كلماته أو يُغلق فمه.

ـ مسجد "القائد إبراهيم" كما نسميه. "إبراهيم باشا" ابن "محمد علي" من أشهر مساجد حبيبتي الإسكندرية. نصلي فيه ونردد اسمه. لكن مَن هذا الإبراهيم؟! وماذا فعل؟! وما هي نهايته؟! نُردد الكلمات مثل الببغاء ولا نفكر في هذا الرجل. هذا القائد إبراهيم ابن محمد علي باشا صاحب النهضة الصناعية بمصر. لم يتأخر"محمد علي" بإرسال شقيق إبراهيم هذا؛ "طوسون" ليحارب مَن؟ يُحارب أكبر دعوة مُجددة لعقيدة التوحيد! هذا المجدد؛ قضى على عصابات نشر الفَزع والنهب والسرقة بين قبائل الأراضي الحجازية. لماذا يُعظم؟! ولماذا يُمجد "طوسون" هذا؟! وعمله، يُظهر مدى الحِرص على تغييب أمة الإسلام عن جوهر عِزتها ومجدها التوحيد! لا شيء آخر. استخفاف بعقول المصريين!"محمد علي" الوالي لمصر. الألباني. الألباني. يُنصبه المصري. المصري المجاهد "عُمر مَكرم" هو بنفسه وقناعته، يرفع الألباني ليكون حاكمًا لمصر! يستخف "مكرم" بذاته، بقدره وجهاده ومصريته! كان الأَولى أن يكون هو الحاكم. نعم "محمد علي صاحب نهضة مصر، لكن بسواعد مَن؟ سواعد أهل مِصر.

ـ لا تتعجب من حديثي. تذكر حديثي معك بعنبرنا بالمستشفى. أنا لست بعامل جملكة وتلميع الموبيليا فقط، بل كنت في المرحلة المتوسطة من التعليم، لكن هذا قدري؛ انفصال الأب وتزوّج الأم؛ فكان حالي هكذا. أعشق الفن، وأحب الجنس، ويذوب جسدي في حضن امرأتي، ولا أُفارق حبيبتي الإسكندرية. أكحِّل عيني بمائها الأزرق.

صديقي وزميل عنبري، لا تمل من حديثي، أتمنى أن تصبر حتى ترى ملامح حال مِصر. أظنك لا تراها جيدًا من خلال نظارتك السوداء.

توقف "لطفي" عن خطابه وحديثه. صاحبه يخلع نظارته السوداء. ارتعش قلب "لطفي"! صاحبه بعين واحدة! لم يستطع الكلام. توقفت نبضات قلبه!

ابتسم صاحب النظارة السوداء. أزاح قِناع وجهه الجامد بتلك الابتسامة. أشار إلى عينه المغلقة:

ـ أتشاهد؟ هذه كانت ثمن ما تحدثت به الآن. تلوت تلك الكلمات، وذاك الحديث منذ أعوام مضت. كان هذا ثمن كلماتي؛ ففقأت عيني، واعتُقلت وطُفت سواح بين سجون مصر. كان آخر المطاف، مستشفى الأمراض العقلية، معك أنت، بعد فرارك من مشاكلك بمحاولة الانتحار بين أمواج البحر. كان

قدرك أن تخرج من الماء، وتواجه الحياة مرة أخرى ومشاكل أكثر اتساعًا. أحوال أسرتك أحوال مصر كلها. لن أنتظر سؤالك عن وَضعي في هذا المنصب المهم. والذي من خلاله أنقذتك من السجن، حتى ولو لأيام قليلة. مَن أشار بإصبعه في وضعي بهذا المنصب، هو نفسه الذي فقأ عيني؛ لكلمتي التي أعشقها وأحترمها: "لا". كان هناك من زملائي، مَن كنت أظن أنهم أكثر مني ذكاءً. رحلوا من مِصر إلى بلاد أوروبا والخليج. كنت مُصرًا على المواجهة، وتحمل الظلم والظالمين. هل تعلم يا صاحبي أن هؤلاء الظالمين لهم قلوب صغيرة! لا تتحمل نظرات امرأة. وهذا هو كان مفتاح خروجي من مستشفى الأمراض النفسية! عاملة السويتش بالمستشفى، هل تتذكرها؟ الجميع يخشاها، لا يقدر أحد أن يرفع بصره إليها. هل تعلم مَن تكون؟ إنها زميلة من فقأ عيني! كنت في أوقات كثيرة أجالسها وأتسامر معها، تستمع إليَّ وأنا الآخر أستمع إليها، كان إعجابً كلٌ منا بالآخر. جذبتني إلى التصنت ومراقبة أمثالي، أعطيتها الكثير من ملامح شخصيات عنابر المستشفى. هذا شيوعي، هذا إخواني، هذا يحب عبد الناصر، وهذا يكره... حتى جاء اليوم السعيد لي؛ أمرتني بخلع نظارتي، كانت مفاجأتها مثلك! بما رأيت! لم تتمالك نفسها؛ بكت كثيرًا، وكانت فرصتي للخروج وشغل هذا المنصب.

جلس صاحب العين الواحدة على درجات "مسجد القائد إبراهيم". أشعل سيجارته. لم ينظر إلى "الطفي" على الدرجات العُليا. نظر إلى دخان سيجارته يصعد إلى صاحبه.

***

(كنا حانبنى، وادي احنا بنينا السد العالي)

تغنى بها "الملوم" مع أصحابه وأبناء حارته، في طريقهم إلى حديقة "سعد زغلول" بميدان محطة الرمل.

التفت الجماهير تحت أقدام جهاز التلفاز. وَضعه الأحرار؛ ليُشاهد الشعب منجزات الثورة. ومد جسور الثقافة؛ لتكون في متناول الجميع. من أجل هذا؛ وُضع هذا التلفاز، يُلازمه مروضه ومُشغله الرجل العريض المنكبين، صاحب الشارب الكثيف المُكمِم لفمه. كلماته تخرج من العصا الغليظة إلى كل مَن يقترب من هذه الثكنة العسكرية؛ فما زال فكر الأحرار يتحرك ويدور من بين الثكنات والمعسكرات!

رؤوس المشاهدين مُعلقة بين السماء والتلفاز، لا تتحول أبصارهم! يهتفون:

(كنا حانبني ، وادي احنا بنينا السد العالي).

تمايل ظمأى الحُرية والأماني مع تفجيرات صخور السد، على يد الزعيم عبد الناصر.

انتفض "الملوم" مع أصحابه حول التلفاز. التهب الحماس. ارتفعت الأصوات مع حليم:

(كنا حانبني، وادي احنا بنينا السد العالي).

ومشاركة فرحة الزعيم. لم يُقدر الحارس مشاعر الفرحة؛ العصي الغليظة تهبط على الرؤوس!

أختبئ "الملوم" وأصدقاؤه خلف منصة الزعيم "سعد زغلول". كانت المفاجأة؛ لم تكن عصا الحارس وحده، لكن ظهرت عصى وهراواتٍ كثيرة! تُفرق الفرحة، وتقطع وِحدة الجمع!

مرت الدقائق، هدأت ساحة الزعيم.

كان المشهد مُخيبًا لآمال "الملوم" وأصحابه. تحسس "الملوم" رأسه، شعر بنتوء بارز؛ العصا الغليظة لم تُفرق بين الكبير والصغير. الجميع وقع تحت قبضتها وشرها.

أشار "الملوم" على أصحابه بالعبور إلى كورنيش البحر والعودة.

***

أرخى ستائر النوافذ, أحكم غلق باب مكتبه, فصل حرارة الهاتف, أشعل لفافة التبغ المدعمة بالحشيش الفاخر. كل شيء هادئ حوله بانصراف زملاؤه, أصحاب الملفات المتلصصة على خلق الله! لم يبقَ بالمبنى غير أفراد الحراسة والحجرات الممتلئة بالمطلوب؛ فك شفرات خزائن عقولهم, والتغلغل داخل قلوبهم.

كان يفكر في كلمات صديق عنبره "لطفي". كيف لم يُلاحظ تلك الثورة العارمة وسيطرتها على وجدانه وعقله؟!

شخصية مُسالمة, لا تحمل العدوانية, يعشق كسرة الخبز. وحبه لكوب الشاي هو القمة دون غيره من المشروبات، لم يشاهده مرة يُدخن.

تساؤلات كثيرة متزاحمة في رأس صاحب النظارة السوداء. أوقف مشاهد صاحبه "لطفي" وزميل عنبره. لم يكن هناك إلا المشهد الوحيد لحياة هذا الصاحب؛ حالة الانفصال بين والديه, وزواج كل منهما بزوج آخر. مع انحياز "لطفي"

إلــى عائلــة أمــه؛ طبقــة "البروليتاريــا" الكادحــة فــي ســبيل لقمــة العيش، وتنكر والده الارستقراطي المتشبه بأجانب مصر!

انتعش صاحب السواد. أشعل لفافة أخرى. ابتسم للدخان الصاعد مع صعود فكره لصاحبه "لطفي"؛ يعشق طبقة "البروليتاريا"؛ الطبقة الكادحة الحالمة بالقفز فوق خط الفقر!

جاءت الثورة لتعبر بمصر, من حاشية الملك والباشاوات والبهوات, إلى عدالة التوزيع والمساواة بين أفراد المجتمع المصري.

لكن مازال "لطفي" بعيدًا عن الوصول والقفز من الفقر إلى حتى أول درجات التنعم, ولو بالقليل من الرفاهية وسعة الرزق.

هدأ صاحب النظارة السوداء. بدأ كتابة تقريره حول طبقة "البروليتاريا", ومدى ما تُعانيه قبل رحيل رحيق اللفافات المدعمة بالحشيش من رأسه، ورحيل صاحبه "لطفي" في آن.

***

نظر "الملوم" إلى أمه, ممدة على الأرض, تغط في نومها. انسحب من الصالة في هدوء إلى غرفة نومها. فتش بين طيات ملابسها! أخيرًا عثر على جوزلان "شريفة", كان فارغًا من النقود! أغلق الجزلان, خرج من الغرفة يرتعش جسده؛ ليس من عادته فتح جزلان أمه دون عِلمها, لكن لهذا السبب المهم؛ يعتبره "الملوم" أمر لابد منه؛ فاليوم تظهر نتيجة الشهادة الإعدادية, وعليه إحضار الخمسة جنيهات لمعرفة النتيجة ومصيره من عبور (فلنكات) القطار. كما وصفها مدرس اللغة الأجنبية. الحاكم بأمره في هذا اليوم هو فراش المدرسة؛ يظلم الطالب, لا يرد إليه الخمسة جنيهات. يفرح الطالب بهذا الظلم الجميل؛ فهو ناجح. ثم يأتي طالب آخر ويرد له الخمسة جنيهات, لا يرضى الطالب بعدل الفراش؛ فقد رسب.

نظر "الملوم" إلى أمه, ما زالت تغط في نومها، وما زال هو يرتعش. خط على قصاصة ورق:

- خرجت لمقابلة أصحابي بمسجد المرسي أبو العباس.

وضعها بجانبها.

بضع جنيهات يحتاجها! هل يذهب إلى بيت شقيقته "ثريا"؟ أم يذهب إلى...! لا يرى أحدًا بالقائمة بعقله المهتز. خطواته المترددة لا تعرف سبيلًا لطريق البحث عن نقود الفرج.

مر الوقت، وبدأ النهار في والوداع. عليه أن يلتجـأ إلـى مَـن بيده كل شيء. اقترب من بوابـة "المرسـي أبـو العبـاس". دلـف إلـى صـحن المسـجد. لـم يجلـس "لملـوم" فـي مكانـه المفضـل بالمسجد. جلس بجانب مقصورة الإمـام؛ العـارف بـالله المرسـي أبو العباس, تحت صندوق النذور. أخذ يُراقب مريدي مقصـورة الإمام وما تحمل أيديهم من نقـود تعـرف طريقهـا إلـى صـندوق النذور. تمنى أن تُخطئ يـد الصـدقة؛ فتنـزل بـين يديـه. لـم تفلـح معه هذه الفكرة.

مر الوقت, لـم يتبـق مـن الـزمن إلا سـاعة وتُغلِـق المدرسـة أبوابها. لم يشاهد أحدًا من زملاؤه. كـان يتمنـى أن يقـوم أحـدهم بنجدتـه فـي هـذا الموقـف. هـبط درجـات المسـجد, اتجـه إلـى المدرسة. ما زالت أكف زملاؤه عالية في السماء؛ تلوح لفـراش المدرسة بالخمسة جنيهات. يـده مازالـت فارغـة يمينًـا وشـمالًا. كـان واثقًـا مـن نجاحـه، لكـن كـم حصـل مـن الـدرجات؟ وهـل ستذهب بـه إلـى الثـانوي العـام أم الصـناعي أم التجـاري؟ لـم ينصفه فكره. اللغة الأجنبية والرياضة, مادة الجبر الجاثمة علـى صدره.

انتبه بجلوس صـاحبه "نعـيم" بجانبـه علـى درجـات السـلم. برزت عيناه مع هفهفـة الخمسـة جنيهـات بيـد "نعـيم" المطأطـأ

الـرأس، شـرح لصـديقه (السـاقط) مـدى حاجتـه إلـى الخمسـة جنيهات؛ ليرى مصيره هو الآخر, سيل مـن الوعـود المتراكمـة بإرجاع الخمسة جنيهات من يـد الفراش أو يـد والـده "لطفـي". التقط الخمسة جنيهات، لم يتـردد بصـعود درجـات السلم. رغـم هياج فكره, كيف سيُرجع هذا المبلغ إلى "نعيم"؟ وإلي أي مـدى استجابة والده "لطفي" له؟ اختفت الخمسـة جنيهـات مـع اختفـاء الفراش. دقائق مرعبة في حيـاة "الملـوم"، فـي انتظـار الفـراش. ظهرت يد الفراش خالية من الخمسة جنيات؛ ابتسم:

ـ مبروك. ثانوي فني.

دارت الأرض تحـــت أقـــدام "الملـــوم"؛ المصـــيبة الآن مصيبتان! رد الخمسة جنيهات، ودرجاته للثانوي الفني.

لـم يتوقـع مصـيره بالثـانوي الفنـي، القصـير الـنفس ـ كمـا يسميه زملاؤه ـ "حسان" و"عطية" و"شكري" زمـلاء جلسـات المذاكرة بمسجد "المرسي أبو العباس". أخيـرًا (فلنكـات) قطـار الشهادة الإعدادية ترمي به خارج التعليم العـالي, والـذي أصـبح صعب المنال.

نظـر إلـى صـاحبه "نعيم"' مـازال جالسًـا مطأطـأ الـرأس. انسحب "الملوم" في هدوء. دلف إلى الشارع الجانبي. يدخل مـن

شارع ويخرج من شارع آخر. لا يريد أن ينظر خلفه, أو يتعرض لمُلاحقة صاحبه الساقط "نعيم".

***

هبت "شريفة" مذعورة على صوت المذياع.

(شبكنا ستائر وحرير. يلاه يا حبيبي نطير).

أغلقت المذياع. لم يتبرم "لطفي" من غلق المذياع, فكم تكره "شريفة" تلك الأغنية (شبكنا ستائر وحرير). لا يقدر أن يفعل أكثر مما فعل مع زوج ابنته "ثريا" بعد كشف المستور أمامه, ورأى وتحسس وباشر مفاتن الحُسن والجمال مع ابنته "ثريا". والآن أصبحت الكحكة في يد اليتيم عجبه! تهافت بنات الجيران حول زوج ابنته "ثريا"؛ متابعة خطواته ليل نهار, يعدون مرات غلق نافذة حجرة نومه وفتحها!

كان أمامهن وهو عازب بشحمه ولحمه وكيس نقوده الثقيل. الآن بنت الجيران تشاغله من خلال النافذة وخلف الستائر ـ كما تقول شادية ـ لماذا بدأ يتحسس أجسادًا لا تخصه؟! أو حتى ينظر إليها؟! كيف يفعل هذا الخزي؟! وبعد أن رُزق بزوجته

"ثريـا" الفاتنــة, صــاحبة العيـون الزرقــاء والجسـد الأبـيض الناعم؟!

أنوثة متحركة. نعم, هي الآن منتفخة البطن. ما ذنبها؟! فهو الذي نفخ فيها حُبه ورغبته وماء شهوته. لماذا هذا التحـول مـع أول خطـوات مظــاهر حبــه علـــى "ثريــا" الفاتنـــة؟! زوجتــه "شريفة" عندها كل الحق في الثورة على زوج ابنتها.

نظر إلى "شريفة"؛ مازالت عابسة الوجه. هَمَّ بفتح الحـديث معها؛ عسى أن يُذهِبَ عنها مشاكل "ثريا" وغراميات زوجهـا؛ لـم يسـتطع الحـديث, فيكـفِ مـا أعطاهـا مـن الوعـود بحـل هـذه الأزمة. ولم تُحل. حتى زوج شقيقته "جميلة", "محمد بك", كم وعد "شـريفة" بإمكانـه نسـف منـازل جيـران "ثريـا" أصـحاب المعاكسات لزوجها! تهدأ "شريفة" للنسف والقتل

تـنفس "لطفــي" الصــعداء، أخيـرًا خرجـت "شـريفة" مـن الغرفة. لعبت أصابعه بالمذياع، لـم يكـف عـن البحـث مـن بـين المحطات, عسى يجد مـا يُـذهِب عنـه همومـه فـي ابنتـه "ثريـا" وزوجها وامرأته "شريفة".

***

فجَّر نور النهار ظُلمة الليل. أصوات المشاة في الشارع.

راجع "الملوم" محتويات سلة الصيد؛ البوصة الهندية القصيرة.

شقيقه "علي" مازال يغط في النوم. فتح مزلاج الباب بهدوء؛ لا يريد إزعاج النائمين بصوت أصحابه، القادمين لاصطحابه برحلة كل يوم: رصيف "قلعة قايتباي", أو كما يسمى "رصيف عم محمود" حارس الرصيف.

كان "الملوم" يستحي من اصطحاب أصحابه الأشقاء: "سردينة " و"بطاطا" و"ممس" لشقيقتهم الكبرى "أحلام"؛ للصيد معهم. فهو مُعجب بثقافتها، وتفوقها الدائم في الدراسة، تتحدث بثقة وطلاقة. يظهر كل ذلك بمناقشتها لزميل رحلة الصيد "عاصم", الطالب معها بكلية الهندسة, تسبقه بعام, يُنصت لنصائحها في تحصيل المحاضرات والمذاكرة, تعطف عليه "أحلام". "عاصم" يقف وراءه من الأشقاء تسعة من الذكور والإناث. كلهم وكلهن فاتحوا أيديهم وأيديهن للطعام والشراب والملبس ومصاريف التعليم والأعياد والأفراح والمناسبات! لا يقدر عليها والد "عاصم"، العامل البسيط. فهو

بالكاد يكفيهم بالخبز وقليل من الفول والطعمية. وأيضًا توفير بعض النقود القليلة؛ لوجبته المفضلة: الخبز المفتت في إناء الكحول والمياه الغازية! يخلو بنفسه، يُغلق باب الحجرة؛ ليتناول هذه الوجبة الشهية! يضرب بعرض الحائط أحوال أولاده وتلبية طلباتهم المتواضعة.

التفت "الملوم" إلى "عاصم", يجلس على حافة الصخور, مصوبًا (بوصته) إلى الماء, ينتظر الفرج. الجميع يعرف أنه يمتلك مفاتيح بوابة النجاح: العزم، والمثابرة، والتحمل. تفوق بالثانوية العامة. ثم بكلية الهندسة، ولديه إصرار على الالتحاق بالكلية العسكرية بعد التخرج. "عاصم" يتمنى أن تُملأ سلته، لم يأتي للتسلية وصُحبة الرِفاق؛ بل لجمع القروش من بيع الأسماك؛ يسد بها حاجة أمه وأسرته المنكوبة بإناء الوالد وفتة مزاجه.

سحب "الملوم" (بوصته)، يبتسم لقدوم سمكة البطاطا الكبيرة (البرطوشة) كم يسميها. تبعته "أحلام" تخرج بوصتها بسمكة بطاطا. اقترب شقيقها "سردينة"، لم تتبرم، نصحته بإطالة خيط الصيد إلى عمق أكبر. التفت "الملوم" إلى شقيقهم الثالث "بطاطا". مازال قابعًا على صخرته المفضلة وسط المياه.

نهض "الملوم"؛ فقد حان وقت الرحيل. اقترب من صديقه الكبير "ممس". كان يحترم فكره وسعة أفقه. خطوات قليلة، ويصبح "ممس" مُعيدًا بكلية الزراعة. كان في إمكانه تبوأ كليات القمة، الطب والهندسة, مثل شقيقته "أحلام". اختار كلية الزراعة، بعدها استدعاه عميد الكلية، ينصحه بالتحويل إلى كليات القمة. يصر "ممس" على موقفه. كانت إجابته لـ"الملوم" على سؤاله:

ـ لماذا الزراعة؟!

يأتي الرد الماكر والذكي:

ـ طلبة الزراعة كلهم من (ترسو) الطلبة، وهذا ما أريده. التفوق عليهم بسهولة والتميز.

انتبه "الملوم" لصوت "أحلام". بدأ الأصدقاء في تصنيف الأسماك والمبادلة.

افترق الأصدقاء. لم ينسَ "الملوم" أن يلتفت إلى نظرات "عاصم" لـ"أحلام" وهي في طريق العودة مع أشقائها: "ممس" و"سردينة" و"بطاطا".

***

البحر يكتم أنفاسه, النجوم تتلألأ في السماء, تحرس شاطئ الأنفوشي بعد زوال النهار.

وَضع "لطفي" على الرمال حقيبته الخشبية, رأس ماله من مواد دهان الموبيليا: الجملكة والقطن وزجاجة الكحول.

كان يومًا شاقًا عليه, بدايةً من ساعات النهار الأولى حتى هبوط الليل. تهلل وجهه للنقود الورقية نظير عمل هذا اليوم, كانت أكثر مما توقع. قام بتقسيم الغنيمة, جزء لشخصه الكريم, والآخر لحبيبته "شريفة" زوجته أم أولاه. نظر إلى باقي النقود, فهي تكفِ بالكاد لتسديد قِسط من (كمبيالة) تجهيز ابنته "ثريا". أعرض عن الجلوس في قهوة (أنح)؛ الحقيبة تجذب الأنظار، ألوان الصبغة وبقايا المعجون وألوان الدهان ، خليط من القذارة المِهنية تُثير اشمئزاز الناظر! حاول مرات أن يغير شكلها العفن, لم يُوفق، تُصر على مشاركة أصابع كفيه المدمغة بالجملكة وخليط الصبغة ورائحة الكحول!

أشاح بوجهه عن مياه الشاطئ الهادئ. عليه هو الآخر أن يهدأ من عذاب التلميع وأصابعه المشوهة. لم يلتفت يمينًا أو يسارًا. مازال قلبه ووجدانه موصولًا بمنزله القديم ونوافذ

شـقته. تـذكر أيامــه مـع حبيبتـه "شـريفة"، ومُتعتـه الحـرام مـع جارته اللعوب. هل مازالـت تصـطاد الرجـال وتتمتـع معهـم؟ أم خمدت عواطـف حبهـا الجنسـي بعـد تـواتر ولادتهـا؟! ابتسـامته الساخرة تملأ وجهه؛ أولادها على كل نوع وشكل, لا أحد يشـبه الآخر, يحملون ملامح أمهم اللعوب! زوجها التائـه الغائـب عـن عواطفهـا, لا يشـبهه أحـد مـن أولاده! الكـل نتـاج حـب الشـارع الممتلئ بما تهوى؛ لإشـباع رغبتهـا. لـم يرفـع عينـه عـن نوافـذ اللعوب، يتمنى أن يراها ولـو مـرة واحـدة ـ كمـا فـي الماضـي ـ عارية تتمايل بإظهار مفاتنها عبر النافذة الليلية.

هبطت طموحاته لنافذة شـقته القديمـة، أسـفل شـقة اللعـوب. نوافذ مُغلقة، لا أنوار ولا حيـاة، أيـن امرأتـه "شـريفة"؟ وجههـا خلف قضبان النافذة تنتظـر حضـوره! لـم يشـعر بخطواتـه أمـام النافذة. تلاشت حبيبتـه "شـريفة" خلـف النافـذة. ظـلام يشـع مـن خلفها. يضـيء إليه خطوات عودته إلى منزله الجديد.

***

قرص الشمس في طريق الزوال. مظلات الشـاطئ تتسـاقط على الأرض, بعدد زوار بحر الأنفوشي, يتناقصون مع الـدقائق

الباقية من غياب الشمس. أمواج البحر تسترد هدوءها,عكس نظرات شباب بحري؛ يقدِّرون هذا الوقت ويحسبون حسابه. ميعاد خلع ملابس الاستحمام, ومشاهدة اللحم الممنوع من اللمس. اللحم الأبيض, الخمري, الأحمر, والأسمر. يتربصون خلف أكشاك خلع الملابس, يشاهدون ما يقصه الرقيب من شريط الشاطئ.

أصحاب "الملوم" ينتشرون, موزعين أنفسهم مع عدد الأكشاك, لا يختلفون وبدون عراك. الجميع يعرف مكانه وينتظر نصيبه من اللحم المخبأ بين الكستور والعبك والحرير والملاءة اللف.

كانت عين "الملوم" تراقب جسمًا ملفوفًا أبهره. أغلقت الفتاة باب الكشك الخشبي. اطمأن للمشهد المُمتع والمُشبع لنظرته الثاقبة والحادة. ابتسم لحيرتها؛ الباب الخشبي القصير، بالكاد يستر نصف جسدها؛ ما كان عليها إلا أن تجلس القرفصاء. انتفخ أنف "الملوم" مع انتفاخ جسده. كان عليه بالهبوط الاضطراري على الرمال. منظر اللحم الأبيض بما يحتوي في ثناياه! ذهب ورحل كل ما حوله! يُشاهد دنيا أخرى! لم تدرِ الفتاة بما يسترها من جدران ناقصة أعلى وأسفل.

أُعجب "الملوم" بهذه الستارة الربانية السوداء. تحجب الكثير عن عينه، ما يُحب أن يراه واضحًا وضوح الشمس فوق سطح المياه. لم يتبرم منها, يعرف متى زوال هذه الستارة السوداء في ليلة بيضاء، يوم زفافها وعذابها السعيد بقطعة حلوى السكر والليمون. تُصبح جسد مرمريًا ابيض ناصع التوهج واللمعان؛ لا ينتظر غير أن يؤكل من كل اتجاه.

صرف "الملوم" نظراته، توقف عن التلذذ. يقترب منه موكب عمته "جميلة" وأولادها. اعتدل في جلسته, الآن يأتي سؤال كل عام:

ـ أخبار نتيجة الدراسة؟

ـ لم تظهر بعد.

سار موكب عمته، وصار هو خلف جسده الأبيض الناعم.

***

جدار الحائط، مُزين بالحِبال, لا تحمل أعلامًا ولا تحمل مصابيح، تُضاء في عز النهار، مشابك خشبية تتدلى منها مصابيح من نوع آخر؛ أخبار وأحوال العالم؛ جرائد ومجلات:

أهرام. أخبار. جمهورية. سمير وميكي. روايات أجاثا كريستي. أرسين لوبين. روايات الجيب. كتاب الهلال.

"عم علي" يتربع بالكشك الخشبي, رسول الأخبار والثقافة بزاوية خَطاب وفُرن حبيب ورأس التين. لم يتبرم يومًا من إطلاع المارة على الصحف المعلقة, لا يزعجه ولا يخرجه من هدوءه إلا لمس الأصابع للجرائد المُعلقة. أبرزها، أصابع "الملوم" وأصحابه؛ تتلصص في غفلة من "عم علي"، وتقلب الصفحات. لم يفلت "الملوم" وأصحابه من تِكرار إنذار "عم علي" لهم عن اللمس والقلب والفتح. نفد صبره معهم، وكان الإنذار الأخير بعدم الوقوف أمام مصابيح ثقافته وأخباره.

التف الأصحاب حول زعيمهم وأكبرهم تعليمًا وثقافة. "ممس" شقيق "أحلام". عَقَدَ تكافلًا ثقافيًا: "عاصم" و"الملوم" و"عز" و"عبيد", الدور الأول في الشراء. "سردينة" و"بطاطا" و"ممس" و"النحاس" الدور الثاني؛ لشراء العدد الأسبوعي من الأهرام الساخن، مقال هيكل: "بصراحة".

لم يدم الأمر كثيرًا. جاءت محطة فِراق الأحبة؛ (النكسة)! معارضو الزعيم عبدالناصر: "ممس" مُعيد الزراعة، "عاصم" هندسة. "الملوم" تجارة. أمام مؤيدي الزعيم:"عز" تجارة، "عبيد" فاشل الثانوية، "سردينة" الثانوي. "بطاطا" لم

يفصح عن موقفه, يُكرر كلمته: انتظار ما يحدث في الأيام القادمة، فالأحداث على أشدها، حرب 1967م، والإطاحة بتاج الزعيم وتتويجه تاج النكسة!

توقف "الملوم" عن تكملة "بصراحة" لهيكل. نهض من بين أصدقائه على درجات سلم زميلهم "النحاس". أراد أن تكون هذه اللحظة الفاصلة. صعد أعلى درجات السلم، مزق "بصراحة", قذفها في وجهه أصدقاؤه، أمرهم بالإنصات:

ـ بيانات حرب النكسة: أسقطنا ثلاثين طائرة، النصر يا عرب. أسقطنا ستون طائرة، النصر يا عرب. اقتربنا من "تل أبيب"، النصر يا عرب.

رقص "ممس"، و"عاصم" يلطم على خده ويضرب على رأسه. كان هناك صمت من "عبيد" وسردينة و"عِز"، بعد أن بُحّ صوتهم:

ـ الزعيم عبد الناصر لم يقصد هزيمة الأمة.

زحزحوا تاج النكسة إلى رأس المشير عامر, لم يفلحوا. انتفش "الملوم"، الآن يكمل حديثه:

ـ عبد الناصر علمنا بالمدارس المجانية. نعم، "ممس" مُعيد بكلية الزراعة، "عاصم" أنهى الهندسة، سيلتحق بالكلية العسكرية. كلنا أخذنا حظنا من ثورة الضباط الأحرار، الأُسر

بدأت تشعر بكثير من الخير. جمعيات استهلاكية، لا احتكار للسلع. مساكن شعبية تُقام مكان الخرابات والعِشش والأكشاك، كل هذا لا يكفِ ولا يستر عورتنا بنكسة 67. نحن الآن أمام...

توقف "الملوم" عن الحديث, تنحى الأصدقاء على جانبي السلم في حياء؛ شقيقة صديقهم "النحاس", ست البنات؛ تصعد درجات السلم في دلال, ضاربة بعرض الحائط نظرات شقيقها. لم يتابع "الملوم" ست البنات. تابع نظرات صاحبه المُعيد "ممس" لها, بادلته نظرتها الحانية الملتهبة بنيران الحب. كان على "الملوم" لفت انتباه شقيقها "النحاس" وأصحابه؛ حتى انتهاء "ممس" من نظراته الملتهبة إلى حبيبته ست البنات. فجَّر "الملوم" سؤاله:

ـ النكسة لم تأتِ مع موجة بحر ولا فوق سحابة. النكسة كانت منذ سنوات، تتذكرون أحداثها؟ سأذكركم بها...

قاطعه صاحبه "عبيد":

ـ أخبرنا يا أستاذ التاريخ. أخبرنا يا عبقريو.

انتفض "ممس" بعد أن مَتع نظره من حبيبته ست البنات، بعد اختفائها على درجات السلم:

ـ أكمل يا أستاذ. أكمل. احكي يا شهرزاد.

أشار "عاصم":

ـ أكمل يا أستاذ "الملوم"، أمتعنا يا سيدي أمتعنا.

صعد "الملوم" أعلى درجات السلم. انتعش أنفه برائحة عطر ست البنات:

ـ أنا أحكي لكم بصدق، عن رجل يُلامسني كل يوم, عام دراسي كامل. أستاذ، مثال الاستقامة والأدب والعِلم. كنت أراقبه في تصرفاته. تذكرة الترام. الصغيرة، الصغيرة. هل تدرون ماذا كان يفعل بها؟! يهبط من الترام، يبحث عن صندوق القمامة حتى يجده. يسير خطوات بعيدة ليلقي بها في أول صندوق قمامة يُقابله. دائمًا حامل للمصحف الشريف وكُتب الدين. كانت هي سر نهايته واعتقاله خمسة عشر عامًا سجنًا؛ جنايته وإثمه هذه الكتب وهؤلاء الناس! كنت أحبه لأخلاقه وإخلاصه بعمله.

توقف "الملوم" عن الحديث، هبط درجات السلم. لم يقدر أن يُكمل كلامه بسجن واعتقال مفكرين وعلماء، سُجن مَن سُجن، وأُعدم مَن أُعدم. جلس يُريح وجدانه وعقله من عناء الأحداث وسردها على أصحابه. لا يستطيع الإفصاح أكثر من ذلك بأن هذه الأحداث كانت البوابة الواسعة لنكسة 67، وما تلاها من نكسات لشعب مصر المحروسة. كل أبناءها يلبسون تاج النكسة

في الداخل, وخارج مصر أصعب واشد. ربت "ممس" على رأس "الملوم". التف حوله أصحابه. همس "الملوم":

- الآن سنبدأ خطوات إحياء الفكر الذي كان في سبيله إلى الزوال.

***

الشمس في طريق الرحيل. مياه البحر تخلع ردائها الفيروزي, تتوشح بالسواد.

مازالت صنارة "الملوم" في الماء تتحدى الرحيل والسواد. تصبر بعدم قطع شهوة سمكة البطاطا, المفتونة بخصلات خُضرة الصخور, يجمعها "الملوم" من غير عناء أو دفع نقود. أخيرًا، اهتز خيط الصيد، صعدت سمكة البطاطا تتراقص برقصات الموت وتساقط دماءها الحمراء. صيد بلا رحمة. الشليح الهلب المُدبب بثلاث سنارات كبيرة الحجم, كافية لالتقاط السمكة من أعماق البحر. ليست لها وجهة محددة، من الفم, ذيلها, بطنها, جسد السمكة متاح لشليح السنار. الآن عليه العودة، وجبة العشاء جاهزة.

اقترب من المنزل، لم يشاهد أحدًا بالنافذة. تذكر، هذا ميعاد عودة والده من ورشة بعد الظهيرة. هرول إلى الداخل، لم يبحث عن والده، توجه إلى المطبخ. كان ما توقع؛ أمه "شريفة" تعد طعام العشاء. رائحة الفول المدمس المدعم بفصوص الثوم وقطع الطماطم تملأ المكان، لم يتبرم "الملوم" من اللحاق بأمه؛ لعمل وجبة البطاطا, حبيبة والده، الذي يُنقذه من عتاب أمه المتكرر والمتراكم في أذنيه:

- يا بني لا يوجد في البحر غير سمكة البطاطا؟! ألا يوجد سمك آخر حتى ولو قراميط؟!

ما كان على "الملوم" إلا أن يضحك من هذا الحوار المُعيب لصيده وسمكة البطاطا في آن. حاول مرارًا توضيح الأمر:

- سمكة البطاطا لا تكلفني شيئًا من النقود. سمكة قانعة بخُضرة صخور البحر.

انسحب بهدوء من أمام أمه. عليه الإسراع إلى جارهم بائع الخضروات، عسى أن يشتري هذه الوجبة الشهية.

***

اكتئاب وحزن مع صمت الخطوات. اكتئـاب لا يقـدر أكـابر المخرجين في تمثيله. تضـيء السيارات أنوارها في عز النهـار, شرطي المرور يفتح أنواره الخضراء. جنـازة مهيبـة، يصـحبها المـودعين، أهـل حـارة "شـريفة", الشـباب الصـاعد مـع هبـوط ثورة 23 يوليو. "لملوم" وأصحابه يودعون هـذا الجثمـان. جثـة محشـورة فـي التـابوت الضـيق, مثلمـا كـان فـي الـدنيا, حشـرته امرأته بين أمرين لا ثالث لهما: ورشـة الأحذيـة، والعـودة آخـر النهار إلى البيت. لم يُرفع عنه حظر العودة إلـى بيتـه فـي وسـط النهـار! لـيس لـه الحـق فـي نهـار بيتـه إلا يـوم الأحـد! العُطلـة الأسبوعية، من فراشه إلى الحمام، ثم العودة للفراش، ثم العـودة إلى الحمام، ثم إلى الفراش!

"لملوم" وأمـه "شـريفة" يعرفـان بدقـة تفاصـيل هـذا اليـوم. "لملـوم" يراقـب مـن الحمـام وأمـه تراقـب مـن منـور البيـت. "لملوم" يعلم بمراقبة أمه, وأمه لا تعرف بمراقبته لها.

سـكون المقـابر أبـدي، سـكون المـودعين جبـري. التـف المودعين حول الجثمان لحظة هبوطـه بـالقبر, ارتفعت الأكـف إلى السماء مع الدعاء، لا أحد يتكاسـل فـي بـحِّ صـوته فـي هـذا الموقف. الجميع يعرف ـ لا محالة ـ بدخوله في هذه الحفرة.

تنحى "لملوم" وأصدقاؤه من البح ورفع الأكف. نظراتهم تتحدث بلغة أمه "شريفة". "عاصم" ينظر إلى "لملوم", و"ممس" ينظر إلى "عبيد", وابتسامة "النحاس" تكاد تفضحه.

انسحب الأصدقاء مودعين المودعين لجثمان جارهم. اقترب الأصحاب من بوابة المدافن. امرأة المتوفى تتوشح بالسواد، لم يتعجب "لملوم" من غياب النساء من حولها ـ كما هو المعتاد ـ بالمواساة، هُن يُخرجِن حزنهن في هذا اليوم وبهذه الساعة, هذه تولول على حظها الأسود مع زوجها وتعاستها! وهذه تولول على كبس حماتها على نَفَسِها ونفس (اللي خلفوها)! وأخرى تولول على أخ وأُم وحبيب، تركها وتركته وحيدًا. كلهن غائبات عن هذه المرأة. الآن يُكشف عنها حجاب زوجها المتوفى، لا حماية لها من ألسنة الجيران. ستُروى مغامراتها مع زائر شقتها كل يوم إلا يوم الأحد.

منجد الشارع، يضرب القطن في صباح كل يوم، يصعد مع هبوط زوجها، يضربها هي الأخرى. جحظت عيناه من كثرة الضرب، يتساوى الاثنان في الفرفرة ، هي ، والقطن! ابتسم "لملوم"؛ الآن ستُشبع أمه "شريفة" شهوتها من حكاوي المنجد وصعود كل يوم.

***

كـل شــيء يهتـز, أشـجار النخيـل العاليـة ترتجـف وتهتـز. تنحنــي مــع أقـدار مِصــر، تُعــانق المخـدوعين بعظمــة قادتهــا ورُوادهــا, المرتجفـون مـع مصــائب تلـتهم آمـال شـعب مصـر وأمنياتها! كانت طعنات "أحمد سعيد" بالمذياع: أسقطنا ثلاثـون طائرة، ثم الستين، جيش مصر العظيم. كلمات صـلاح جـاهين، وصوت العندليب الأسـمر تلعـب بعقـول وقلـوب شـباب مصـر. تهبط المصيبة، سقوط المارد الأسمر، الزعيم القائد المُلهم!

- آه يا شعب مصر الحزين!

همس بها "لطفـي" علـى كـورنيش البحـر. لـم يبـالِ بسـقوط الأمطــار, لــم تغمــر ملابســه بعــد، كــان مُصِــرًّا علــى الســير بخطـوات واثقـة إلـى الأمـام, خطـوات الأمـل بعـد نكسـة 67, البوابـة الحتميـة لمقـادير مصـر للخـروج مـن كبـوة الهزيمـة! أشعلت عواطف الحُنو ومد أيادي المعاونة لشـعب مصـر. هـرم مصر الكبير: "أم كلثوم" قائدة المسيرة فـي تبرعـات المجهـود الحربي! مجتمع الخليج العربي بأكمله يتعاط بسخاء معها.

اشتد هطول الأمطار. عبـر "لطفـي" رصـيف البحـر. نظـر إلى الزعيم "سعد زغلول" بجسـده النحاسـي، لـم يغيـر وجهتـه,

مازال مُصرًا على شموخ الزعماء. نظرة الاحتقار تملأ عينيه أمام المارد الأسمر، وفراره من الهزيمة والنكسة، بالتنحي! انتبه "لطفي"، سيارة تُتابعه! مفاجأة من العيار الثقيل؛ صاحبه ونزيل عنبره، جامد الملامح, بنظارته السوداء! لم يتراجع "لطفي"، حشر جسده في المقعد الخلفي. لم يكتفِ بذلك، وَضع ساقًا على الساق الأخرى، جلسة الباشاوات وأصحاب السُلطة.

نظر إليه صاحبه، اختلطت ضحكاته مع ضحكات صاحبه، أمره "لطفي" بالذهاب إلى "قلعة قايتباي". طأطأ صاحب السواد بالموافقة، لم ينبس بكلمة واحدة. توقف هطول الأمطار مع توقف ضحكات "لطفي" وصاحبه ووقوف السيارة أمام "قلعة قايتباي". هبط "لطفي" من السيارة. لم يتابعه صاحبه, مكث في السيارة.

صعد "لطفي" فوق صخرة عالية تؤانس أسوار القلعة العالية. تذكر أيام اللوثة على درجات مسجد "المرسي أبو العباس", وخطبته الخالدة بين الشحاذين, وقفزه بين أمواج البحر، ولقاؤه مع صاحب النظارة السوداء بمستشفى الأمراض العصبية زميل عنبره.

الآن عليه الخطابة مرة أخرى، دون القذف بنفسه في مياه البحر, ولا عودة لمستشفى المجانين. التفت إلى صاحبه

ونظارتـه السـوداء, اطمـئن، مـازال مُتابعًـا لخطواتـه فـوق الصخرة. أخرج "لطفي" كسرة الخبـز مـن بنطالـه، قضـم منهـا قطعة كبيـرة، مضـغها فـي عجالـة، أشـار بيـده إلـى القلعـة, بـدأ خطابه السرمدي:

ـ هنا تاريخ مِصر المحروسـة، أنظـروا إلـى أسوار القلعـة, عالية مرتفعة شاهقة الارتفاع! لماذا؟ لماذا عاليـة هكـذا؟! لمـاذا هي عالية هكذا؟!

كانت صرخاته عالية وقوية. انتبه إلـى تجمـع الخَلـق أمامـه من أجانـب وعـرب. حـاول أن يُمـزق قميصـه، كمـا فعـل علـى درجات مسجد "المرسي أبو العباس". فشـل؛ امرأتـه "شـريفة" حريصة على ملابسه مـن متانـة، لا ينفـع معهـا شـد وجـذب، لا تقطيـع ولا تمزيـق. كـان فـي حالـة رضـا بإنصـات مـن حولـه ومُتابعة صـاحبه لـه مـن السيارة. التفت إلـى امرأة تنظـر إليـه بإعجاب. لم يُعجب بجسدها النحيل وخصلات شعرها الصـفراء وعيونـها الخضـراء. أُعجـب بزميلتهـا، الجسـد الأبـيض الغـض، واحمراره التفاحي, لعبت أصابعه إليها!

ـ محمد علي باشا، قضى على المماليك في مثل هـذه القلعـة. وهـذه القلعـة مثلهـا تمامًـا، قبيحـة عفنـة. لا تغتـروا بأسـوارها العالية، لم تـدافع عـن أهلهـا إلا قلـيلًا، أمـا الكثيـر مـن عمرهـا،

ذهب إلى أهلها. أنظروا إلى زنازين التعذيب والعذاب بداخلها، هل شاهدتم حجرة الخابور؟ يخترق المظلوم من أسفله ويصعد من أعلاه!

قاطعه أحد المستمعين المُستمتعين بحديثه:

ـ لم نشاهد ما تتحدث عنه, تجولنا بها، لم نرَ خابورًا ولا زنازين، ولا حتى مساجين!

علت ضحكات "الطفي" في عنان السماء. التفت إلى المُقاطِع المخدوع بعظمة القلعة وعلو أسوارها:

ـ هذا غير صحيح. "محمد علي" استغل قلعته في المذبحة. الآن, وحتى هذه الساعة, مائدة المذابح مُقامة من ذبح وقتل، وأزيد: من تعذيب واعتقال. وأزيد: من حبس. ذبح للكرامة، وقتل من يُعارض، وتعذيب من تراوده حتى الفكرة. الفكرة يا سادة. حجَّموا عقولنا، وقطعوا ألسنتنا. أنا "الطفي" صاحب كسرة الخبز, زميل كوب الشاي, حبيب فراشي الخشن, رضيت برزقي القليل. وامرأتي "شريفة", وأبنائي: "ثريا" و"علي" و"الملوم"، قنعت بانقلاب الضباط المُسمِّين بالأحرار! بنوا السد, رووا أراضي الفقر, بعد أن كادت تجف! زاد الفقر، وزادت فروعه, وكبرت أنيابه. كان ملكًا واحدًا. أصبح الأحرار ملوكًا, ينتشرون في الأرض ويعيثون فسادًا. "محمد

علي" قتل المماليك, المارد ذبح الشعب كله! أسقط مصر كلها! استنوق المارد! أصبح ناقة! أصحابه، سكنوا في أحضان فاتنات السينما والغناء, هدموا الأهرامات الثلاثة! الاتحاد والنظام والعمل. ذبحوا شعبًا بأكمله، وأنا من هذا الشعب المذبوح.. أنظروا إلى تلك السيارة وذاك الرجل..

أشار على صاحبه، بنظارته السوداء وجمود ملامحه. في حين تابع:

ـ هذا الرجل، صاحب العين الواحدة؛ إنه صاحبي وزميل عنبري، نجا بنفسه، تنازل عن مبادئه, ارتمى في حضن السلطة! لا يدرِ أنه يُذبح! أصبح قطعة شطرنج! انتقل من مربع المظلوم إلى مربع الظالم. كان يُجلد, الآن صار جلادًا؛ سيارة ورئاسة! هذا صاحبي ونزيل عنبري.

لم يصبر صاحبه في السيارة أكثر من ذلك, رحل في سيارته بهدوء, ومشاهدته لصاحبه يُحمل في السيارة "الفورد" السوداء! لم يهتز "لطفي" لليد القوية تسحبه من قفاه داخل السيارة. كان يثق بأن صاحبه ونزيل عنبره, صاحب النظارة السوداء, جامد الملامح, ذو العين الواحدة, سيخرجه صباحًا.

***

قِطـع الزجـاج تنطلـق كطلقـات المـدفع, الأسـلحة البيضـاء (قـرن الغـزال) تسـطع فـي سـماء المعركـة. "أم حربـي" بائعـة الحشيش تخلـع عباءتهـا، كمـا خلعـت أنوثتهـا مـن زمـانٍ فائـت. المعركة على أشدها, سِرية "أم حربي": أولاها وبناتها, يَقـذفون القوارير دون تمييز بين الفارغة والممتلئة!

لم تفزع "شريفة" من هذا المشهد. تنظر من خلـف (شـيش) النافذة الخشبي. لم تتحرك من مكانهـا، رغـم الـدقات علـى بـاب الشقة, فهي تعـرف مراسـم تلـك المعـارك؛ عـدم الفـتح لأيٍّ مَـن كـان. هـذه تعليمـات "أم حربـي" صـاحبة المـزاج العـالي كـل صباح بمنزل "شريفة".

تلاشت الدقات على الباب, لـم تهـتم بمَـن الطـارق, هرولـت "شريفة" إلى المطبخ. رائحة (شِياط) الأرز تمـلأ الحجـرات, لا مانع من إنضاج أرز جديد.

قامـت بمُتابعـة مشـهد المعركـة مـن خلـف النافـذة؛ عربـة الإسعاف تحمل جثامين المُصابين من تحـت الأرصـفة وفوقهـا! أصبح الشارع هادئًا من الأصوات ومن المارة. أغلقت النافذة.

لم تهنأ بالاستراحة؛ الطرق على الباب يعود. الآن عليها الفتح. "الملوم" يقفز إلى الداخل, لم يفلح في إخفاء ما بيده؛ كشف عن مدية (قرن الغزال) صديقة "أم حربي" في تقطيع المزاج الحشيش!

همس "لملوم" بخوف من أمه "شريفة":

ـ مدية "أم حربي" وقعت منها وهي تصعد عربة الشرطة, أخذتها دون أن يراني أحد.

فهمت "شريفة" موقف "أم حربي". الآن هي نزيلة الحبس والنيابة والمباحث. لم تترك "شريفة" يد ابنها؛ أخذت تتشمم يده؛ عسى أن يكون بها بقايا قِطع الحشيش, خاب ظنها, المدية بها بقع من الدم الجاف! أسرعت لمتابعة وعاء الأرز قبل حرقه مرة أخرى. استغل "لملوم" ذهابها؛ اختفى بالغرفة الأخرى قبل أن تنهال عليه أمه مُستفسرة عن أخبار "أم حربي" ومديتها.

اطمأنت "شريفة" من إعداد وجبة الغداء والعشاء, عليها العودة بجانب النافذة في انتظار "لطفي" وابنها "علي".

مر الوقت ولم يأتِ إلا "علي". اجتمع الثلاثة: "شريفة" وولداها: "لملوم" و"علي", حول المائدة دون "لطفي". حاولت بقدر استطاعتها الظهور أمام ولديها بأنها غير قلقة على أبيهم.

تناول الثلاثة الطعام في صمت. لم تنسَ "شريفة" استكمال مراسم تناول الطعام, كما علمها زوجها. أكواب الشاي، فاكهة الفقير!

هجم الليل مُحملا بهواجس غياب زوجها، لم تفصح لأولادها عن مدى التوتر بغياب زوجها. لم يتأخر بالخارج حتى هذا الوقت! إلا إذا كان هناك عمل يؤديه. لعبت بها الهواجس:

ـ هل جاءته لوثة السقوط بمياه البحر؟ هل عاوده الحنين لمستشفى الأمراض العصبية؟

لم تقدر على كبح جماح هواجسها, بل زادت في طريق آخر:

ـ امرأة أخرى؟! أم الحنين إلى بيت العاهرات؟ نعم، بيوت العاهرات قريبة منه. السكة الجديدة، وما تحوي من الحمراء والصفراء والسمراء. الصغيرات والكبيرات في آن!

كم حكت لها "أم حربي" عنهن, فهُن زبائنها للمزاج العالي من الحشيش.

التفتت إلى ولديها؛ النوم هجم عليهما، كما هجمت الهواجس عليها.

الساعة تقترب من العاشرة مساءً, جلست بجانب النافذة؛ عسى مشاهدتها لعودة "الطفي".

مر الوقت, لم يحضر, وما زالت هي جاحظة عينيها تترقب عودته.

لم تدفعها العواطف لهذا الانتظار، ولم يتحرك قلبها حبًا في عودته, كانت تحركها دوافع المسؤولية؛ إن غاب عنها زوجها مرة ثانية. نعم، ولديها اشتد عودهما، وأصبحا في أول مراحل تحمّل المسؤولية ومواجهة الحياة، حتى إن غاب كل منهما، هي وزوجها.

انتبهت لطَرق على الباب, هرولت بالفتح. الطارق: "حربي" كبير أولاد بائعة الحشيش. كانت تعرفه من خلال حديثه مع أمه عبر النافذة مع جلستها اليومية في الصباح. وقع عليها الخبر وَقع الصاعقة!

- "الطفي" نزيل سجن مديرية الأمن، بتهمة محاولة إثارة الفتنة بين السلطة والشعب، والتحريض على تشويه صورة الضباط الأحرار والثورة!

لم يعطِ "حربي" فرصة لـ"شريفة" لتعرف الكثير من التفاصيل عن حالة "الطفي". غير أن "أم حربي" قابعة معه

بمديريـة الأمـن! أغلقـت "شـريفة" البـاب, هرولـت إلـى دورة المياه، لم تقدر على صد سيل المياه من بين فخذيها!

الانتظـار، مـا أشـد قسـوته، ومـا أطـول سـاعاته, بـل أيامـه ولياليه.

تجاوز غياب "لطفي" أكثـر مـن شـهر. لـم تـرحم "شـريفة" صاحب زوجها جامد الملامح، صـاحب النظـارة السـوداء، مـن الدعاء عليه ليلًا ونهـارًا. هـو مُنقـذ زوجهـا بالماضـي, أيـن هـو الآن؟! ظلـت تبحـث عـن مكـان صـاحبه ورقـم هاتفـه داخـل بناطيله, حتى وجدت بغيتها: رقم هاتفه.

لـم تتوقـع إهمـال صـاحب النظـارة السـوداء باتصـالها بـه! تُخبره بحالة زوجها والقبض عليه. لم تكن تعلـم بعِلمـه بـالقبض علـى "لطفـي" وتركـه بـين أيـدي رجـال المباحـث, إلا حـين الاتصال به مرة أخرى بعد مرور الأيـام, لـم يـرد علـى الهـاتف صـاحب زوجهـا، بـل رجـل آخـر، يُخبرهـا بمعرفـة صـاحب زوجهـا، بـل ومشـاهدته لـه وهـو يصـعد فـي عربـة المباحـث والعرض على الأمن.

كان عليها الاستمرار والإصرار على مقابلة جامد الملامح صاحب النظارة السوداء. الآن، وفـي سـاعات الصـباح الأولـى, تقف تنتظره أمام مبنى الأمن, كل مَن يمر يُسرع وتهتـز قـدماه،

حتى يعبر هذا المبنى (الاسود على رأسه ورأس مَن بداخله). عبارة زوجها "الطفي", كان يُرددها دائمًا عند حديثه عن السياسة وعصابة السلطة، عمالقة التنكيل، والتعذيب والتشريد، والإقصاء والموت.

ارتعشت أطرافها، دارت بها الأرض. قادم نحوها رجل من رجال الحراسة, لم تتراجع، بل سارت هي أيضًا نحوه. همست له:

ـ أريد عبد الجبار بك، أنا قريبته وأنتظر مقابلته.

سحبها الرجل من يدها دون استئذان! لم يتفوه بكلمة واحدة! سحبها رجل آخر, عبر بها الممر الضيق المظلم, لم تستطع تفحص مَا حولها. جلست على الدكة الخشبية السوداء. كانت تظن أنها اقتربت من بغيتها ورجلها المنتظر، وعليها الانتظار.

طال انتظارها، لم ترَ أية بادرة توحي باقتراب المقابلة! بل لم ترَ صاحب زوجها! لعبت التساؤلات في رأسها! لم تراه يدخل المبنى منذ الصباح:

ـ هل لم يحضر اليوم؟ هل في أجازة؟ وهل ستطول؟ أم هو لم يبرح المبنى الاسود على رأسهم ورأس (اللي خلفوهم)؟! آه يا "الطفي"! مازلت تنعم بتعذيبي مع (اللي يسوى واللي

مايســـاويش). آه يـــا"لطفي"! (الله يخــرب بيتــك وبيــت اللـــي خلفوك).

شلال الماء ينتوي المرور بين فخذيها. لا تقدر علـى صـده أكثـر مـن ذلـك، لـم تبـالي؛ فالدكـة خشـبية، ستتسـلل الميـاه إلـى الأرض, لن يراها أحد، ولن يشعر جالس آخر بها. عضت على شفتيها:

ـ لكن ما العمل في الرائحة؟!

كتمت أنفاسها. ما أروع رمال الشاطئ؛ تُخفي كل شيء فـي ثوان.

مر أكثر من ساعتين، ولم يظهر صاحب النظـارة السـوداء. هل تنسحب في هدوء وتفر من هذه المقابلـة؟ أم تظـل هكـذا فـي الانتظار؟

ارتبكت! رجل المباحث يتجه نحوها! ظلت سـاكنة، سـكون الموتى. هل جاء لطردها من هذا المكـان الأسـود مثـل صـاحب زوجها؟

لم يقترب منها، أشـار إليهـا بإتباعـه. خطـوات ثقيلـة, هـدوء إتبــاع الجنــائز! توقـف الرجـل. الآن هــي فــي مواجهــة البــاب المُغلق! لم يدق الرجل على الباب أكثر من دقة واحـدة. انسـحب

بعد أن أغلق الباب عليها، أخيرًا في مواجهة المجهول, لم تستطع الجلوس على المقعد. سيفضح بللها!

كانت المفاجأة؛ رجل آخر غير صاحب النظارة السوداء يقتحم باب المكتب! اهتزت أردافها, جمال لم تعهده من قبل! وسامة شاربه الأسود مثل حد السيف! يهزم أيتها امرأة، مهما فاق جمالها ودلالها. لم تستطع الوقوف أكثر من ذلك أمام هذا الجمال! كانت ابتسامته تعرفها "شريفة", تفك طلاسمها، زميلة ابتسامة "الحاج نجاتي" صاحب المصبغة! تمتلئ شهوة ورغبة في عمل المستحيل! همست:

ـ هل من الممكن أن يتم المستحيل؟!

دارت الأرض, تمتعت بدورانها, لم تشعر باللذة أجمل من ذلك! طلبت المزيد من الدوران، الدنيا كلها تدور بها، وهي راغبة في هذا الدوران!

***

الصمت يجلجل في ردهات صالة سينما رأس التين, الجالسون ينتظرون نهاية البطل, الحزن يملأ العيون, الجميع

في صمت, إلا واحد؛ كانت يده تعبث بصدر حبيبته الخرساء! هي تصمت مع صمت بعثرة يد "الملوم"!

تفر دائمًا من بين المقاعد لتستقر بجانب حبيبها الأبيض الناصع البياض "الملوم", لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو قطع عبث "الملوم" معها, رواد السينما يعرفون عواقب هذا القطع؛ من صراخ ومأمأة. كما يعرفون ماذا ألمَّ بها من عذاب حبها القديم، الذي أدى إلى نهايتها بهذا الخرس وفقدان صوتها. تسمع جيدًا، تتزين كأجمل عروس, ترتدي أفخر وأحلا الثياب، يختبأ فيه جسد مرمري ينافس أجمل الجميلات، هي "فينوس" الخرساء. تطمئن مع "الملوم" وتجلس معه، ولا مانع من عبث يده بصدرها. أنهى "الملوم" العبث، ولم يصبر على نهاية الفيلم, تركها, خرج من السينما, لم يلتفت إليها.

مشهد اختفاء أمه "شريفة" قبل عودة أبوه "لطفي" المختفي بعدة أيام. عاد والده، لتختفي أمه!

التفت إلى مقهى "أنح"؛ "لطفي" غير موجود بالمقهى، اطمئن. عبر الترام, لم يجلس جلسته المفضلة على رصيف الكورنيش, افترش رمال الشاطئ. أمواج البحر البيضاء مع ظلمة الليل الحالكة لم تنجح في أن يعبر "الملوم" من مصيبة غياب أمه وصمت والده! حاول بكل ما يستطيع اختراق رأس

"الطفي"، لكن لا محالة، فهي مغلقة، موصدة بأقفال الدنيا كلها، لا سبيل للوصول إليها أو كشف ما تحوي. نعم رائحة الفقر، وذل الأيام، وصفعات الشمس المحرقة، وأتربة السعي هنا وهناك تكسوها منذ سنين طويلة، لكن لا يعرف ولا يقرأ ما بداخل هذه الرأس المزينة بالتجاعيد و في وجه أصبح في طريقه إلى الزوال.

كم حاول "الملوم" استدراج والده في التفوه ولو بكلمات قصيرة عن غياب أمه "شريفة"! كان يفشل، ينسحب ويتوارى بالهزيمة. يتخبط بجدران الغرف، حتى يصل إلى مخدعه الصغير، يهبط إليه.

انتبه ليد تربت على كتفه؛ فينوس الخرساء, أضاءت الأرض والسماء. هدأ بين لحظات الحب. غابت الأمواج وغاب بياضها الفائر أمام فينوس وبياضها المرمري! لم يتردد في سؤالها ولم يصبر، أطلق سؤاله إلى حبيبته:

ـ أين اختفت أمي "شريفة"؟

لم تلتفت إليه, أسرعت بالابتعاد عنه, لم يتابع "الملوم" رحليها المفاجئ! توارت خلف كبائن الشاطئ. عادت إليه أحزانه المتواترة بفراق أمه, ثم الآن فراق حبيبته فينوس الخرساء. لم يبرح رمال الشاطئ, أراح جسده المتعب على

الرمـال. السـماء سـوداء, لا نجـوم ولا قمـر ولا فينـوس تضــيء المكـان. الرمـال سـوداء. أغمـض عينيـه، عسـى أن تـذهب هـذا الظلمة وهذا السواد عنه.

لم يشعر كم مـر عليـه مـن الوقـت, كـان مُصـرًّا علـى غلـق عينيه. هبت عليه رائحة يكرهها, ولا يريد أن يضـع نافثهـا بـين أصابعه؛ لفافة التبغ! حبيبته فينوس تقف أمامه، ذاب مع بسـمتها الساحرة. لم يلتفت لرائحة الدخان, يُريد أن يُمتع عينيه بعـد هـذا السـواد بفينـوس السـاحرة. أشـارت إليـه, نظـر خلفـه؛ "السـيد النجـرو", كبيـر عصـابات بحـري، صـاحب النظـرات الحـادة، شوارع وحارات تملأ وجهه, جسده النحيل يخدع كـل مَـن يريـد أن يُنازله, يلعب بالسيف الحـاد اللامـع بـين أصـابعه كمـا يلعـب التلميذ بـالقلم! اعتـدل "الملـوم", مفاجـأة جعلتـه لا يقـدر أن يفـك طلاسمها! ومع مَن؟ حبيبته الخرسـاء! هـل فـرت للشـكوى مـن حبه إليها؟! ارتخت أعصابه؛ "النجرو" جاء ليقدم له العون فـي البحث عن سر اختفاء أمه "شريفة".

كانت فينوس تراقب نظـرات "الملـوم" و"النجـرو"، أطلقـت بسمتها الملائكية بعد أن ختم "الملـوم" حديثـه بوجـود "شـريفة" عنـد خالتهـا بطنطـا، كمـا يعـرف أهـل الحـارة. لـم يعتـرض

"النجرو" على تلك الملحوظة. تابع مع حبيبته الخرساء ذهاب "شقي الحتة متواريًا بين الكبائن.

أكمل جلسته على الرمال مع فينوس حبه. عادت أمواج البحر البيضاء، أضاءت النجوم السماء، واكتملت بنور القمر.

***

عينان زائغتان, دوامات السهر تملأ حدقتيها, لم تقدر على وقف الحاجب من الارتعاش, لا تستطع السيطرة على توتر أعصابها!

مقهى القاهرة يمتلأ بأهل مِصر. لم تشعر أنها في بيروت, تناولت الكثير من القهوة. لا فائدة، عليها الصبر بإنهاء الأيام الباقية لها في بيروت. لم تدرِ بأن حب رجل الأمن سيذهب بها إلى هذا الحد من الخراب في كل شيء! فِراق أسرتها وأولادها, وخراب عفتها وأنوثتها لتُباع وتُشترى! مهمة ساقتها بلا وعي بالعمل في ماخور من مواخير الجنس في بيروت, تجلس مع نساء الوطن العربي: اللحم السوداني والمغربي والجزائري

والتونسـي والصـومالي؛ نسـاء الليـل واللـذة المُحرمـة، يـرفعن أرجلهن لكل مَن يدق الباب!

لم تفكر في احتساء كوب من القهـوة أو الشـاي. التفتـت إلـى القادم, وَصل مَن طال انتظاره, جلـس بجانبهـا, لـم يتفـوه بكلمـة واحدة, وَضع على المائدة مظروفًـا مُغلقًا بإحكـام, تعلـم مـا فـي داخله. نظرت إلى الرجل! أجاب بابتسامته الصفراء:

ـ وجهك غير واضـح بالصـور، الواضـح كلـه لجسـدك بـين ذراعي الرجل، خمسة عشرة صورة.

أرادت مقاطعته, أشار إليها أن تصمت!

ـ أنتِ قضيتِ بين أحضـانه عشـرة أيـام، الصـور المتكـررة تزيد من وضوح وجهه في فراشك.

لم تتفوه "شريفة" بكلمـة واحـدة, كانـت تريـد الخـلاص مـن وَحـل المتعـة المحرمـة مـع رجـل الأمـن بالإسـكندرية، وهـذا الرجل المهم المُرتمي بين أحضانها في لبنان. لـم تشـعر برحيـل حامل المظروف، عبثت يدها بـالمظروف، لـم تـنجح فـي فتحـه, غادرت المقهى.

ميعاد الرحيل قد أزف، وعليها اللحاق بالباخرة. لم تفكر فـي طلـب سـيارة حتـى مينـاء بيـروت, عليهـا السـير بمفردهـا ومـع همومها الفائتة والتـي سـتأتي, وأولهـا سـؤال: هـل عـاد زوجهـا

"لطفي" كما وعدها رجل الأمن؟ ثم سؤال "لطفي": أين كانت؟ وبماذا ستخبر أولادها "علي" و"لملوم"؟ وما حال أهل الحارة؟ هل شاع خبر اختفائها؟ وكيف ستواجه رجل الأمن من قطيعة لذتها المحرمة معه؟ هل تستمر في تلك اللذة؟ لن تكون في خطر من هنا أو هناك, فقد رحلت إلى سن اليأس منذ سنوات, وهذه السنوات قد أعطتها الحرية الكاملة في أن تُشبع رغباتها الجنسية والتي بدأت مع رجل الأمن، ولتنتهي مع الرجل المهم في بيروت. لم تتحكم "شريفة" في البصق:

- كلاب, جميعهم جبناء.

التفتت حولها, لم يلاحظ المارة السب والبصق. ظهرت ملامح ميناء بيروت. أنهت مراسم الدخول إلى الباخرة, لا عقبات. شعرت بأنوثتها, أمن الميناء وموظفي الجمارك لم يسألوا عن هذا المظروف المغلق وما بداخله, كانت سعيدة عندما عبث أحد موظفي الجمارك بالحقيبة، وكيف انتفض عند إخباره بملابسها الداخلية بها! ارتعشت يده، كالسارق عندما يُكتشف وينفضح أمره!

لم تشعر "شريفة" بقيام الباخرة, فهي لم تبرح غرفة الدرجة الأولى، البيضاء الضيقة ذات النافذة الصغيرة. كان معها ما يكفيها من الطعام والخبز الجاف وقارورة المياه. لم

يغمض لها عين في ليلتها الأولى من الرحلة, تتزاحم الأفكار والأسئلة, وكيف تُدبر في مواجهة وصولها إلى ميناء الإسكندرية؟! هل تذهب مباشرة إلى رجل الأمن؟ أم إلى بيتها ومواجهة "لطفي" وأولادها "علي" و"لملوم"؟!

لم تدرِ بهبوط الليل وجسدها ملقى على الأرض بجانب فراش النوم, كما أنها لم تكن تدرِ بتخلفها عن حضور وجبات مَقصف الباخرة، يُسجل ويُبلغ يوميًا إلى قبطان الباخرة.

انتبهت لطرق الباب, مع جسد مُنهك وأعصاب غائبة. أصرت على السكون مع حِدة طرق الباب, مرت الدقائق مع سكونها وافتراشها الأرض! سكنت الدقات، وابتعدت خطوات الطارق. كان عليها الإسراع في الخطوة القادمة مع قدوم الصباح، أتخرج لمواجهة أمثالها من النزلاء؟ أم تظل قابعة ما دام عندها الكثير من الطعام, وما تحتاجه من الحسوات القليلة من الماء؟! لم تحتمل حرارة النهار, خلعت عن جسدها الأبيض الغض الثوب, ألقت بنفسها على الفراش, تتمنى معاودة النوم المستحيل مع ساعات النهار. دقات الطارق مرة أخرى! لم تهتم بستر جسدها، كان عليها استقبال مَن نغص عليها في المساء والصباح بالطرق والإزعاج.

أخذت في إنعاش فكرها؛ لماذا يريد القبطان الالتقاء بها؟!

أخرجت أثواب سهراتها الحمراء بشارع الحمراء ببيروت, التفتت إلى المرآة الصغيرة المعلقة، نعم لم تظهر صورتها كاملة، لكن يكفي هذا الثوب، يُظهر مفاتنها وجسدها الملتهب، أمام الشخصيات الهامة، كما علمها رجل الأمن!

ارتبكت خطوات "شريفة" للعين المراقبة لخطواتها عبر الممر. كان عليها عدم الاهتمام وهي تصعد لمقابلة القبطان. كما لم تشعر بأي اهتمام في اللقاء؛ جُمل وكلمات قصيرة، كانت كافيه للغَور في أعماقها. لم ترتعش أمام هذه المواجهة القصيرة الدقائق. عادت بعدها إلى غرفتها، لا استرخاء ولا راحة بعد اللقاء. التفتت إلى المظروف المغلق:

ـ لماذا هذا الاهتمام به من هذا القبطان؟! وكيف وَصل إلى معرفة محتواه؟!

الآن عليها الخيار الصعب والسهل في آنٍ: هل تتخلى عن عبودية وحب رجل الأمن في سبيل حريتها وعودة شرفها المغتصب والحياة في أرض الله الواسعة، كما وعدها القبطان؟ أم ترضى أن تكون حبيسة الحب المهان بتقلبها بين طيات الفرش والحُجرات المُزيلة بتوقيعات ضابط الأمن؟

مر الوقت سريعًا, لم تشعر بزوال النهار والدخول في ظلمة الليل. أضاءت مصباح الغرفة, رجحت كفة الحرية،

والخلاص من هذا الكلب الذي لا يعرف للشرف معنىً ولا للحب إخلاصًا. نعم للحُرية، كما وعدها الرجل, أماكن كثيرة، وعليها الاختيار: إيطاليا، اليونان، تركيا. ما عليها إلا أن تُسلم المظروف بما يحوي من عبث اللذة والحب الحرام. جميع حلقات الحب والسفر لبيروت، والرجل المهم، تعرفها كما تعرف ذاتها. لكن ما أهمية هذا المظروف لذلك الرجل قبطان الباخرة؟ وكيف علم محتواه من نجاسة وزنا؟! هل كانت مراقبَة كل هذه الفترة وهي لا تدرِ، حتى وصل بها المستقر بهذه الباخرة وهذا الرجل؟!

لم تجد إجابات مع دوران فكرها المهتز بين كفتي الحُرية والاستعباد.

الآن، عليها الاستعداد للصعود إلى بوابة الحُرية ومقابلة القبطان وتسليمه المظروف, لا مفر, هي في قبضته الحاكمة للباخرة ومَن عليها.

كان هذا قرارها الأخير والتي سعدت به؛ تسليم المظروف بما يحوي من مشاهد المتعة الحرام، وعودة حُريتها التي سُلبت مع شرفها, الحرية وإن كانت خارج مصر والإسكندرية.

أسرعت في ارتداء ثوب الحشمة والوقار. لم تلتفت إلى فساتين الغراميات. همست مع نشوة الانتصار:

ـ وداعًا أيها الكلب النجس الأخرق. أخيرًا خرجت من سجن لذتك وشهوتك وسطوتك وجبروتك وظُلمك لعباد الله. أيها الأخرق النجس.

بصقت على الأرض.

***

ـ حُريتي. حُريتي مطلب شاق، لا وصول إليه إلا بعد المواجهة، الموت, الاعتقال.

أمواج البحر سوداء، بظلمة الليل الحالك! حتى الوجوه حولها كالحة, جافة, لا فرق بينها وبين الأسماك المرصوصة على شاطئ البحر، تلفحها حرارة الشمس, تُجفف وتُملح، وتؤكل, وتلوك بها الأفواه.

جرى لُعاب "شريفة"، لم تستطع صد جريان لعابها. سمكة البوري المملحة.

قارب الصيد مازال يتأرجح بها, بحر "أبو قير" والشاطئ لم يظهر بعد. هذا هو أقرب مكان تهبط به، بعد قناعتها برد قبطان الباخرة، بالهروب من ميناء الإسكندرية ومن ضابط

الأمــن. فشــلت فــي كشــف المســتور ومعرفــة أهميــة صــور المظروف الساخنة, غير أن مَن كان فـي فراشـها رجـل يخـص القبطان.

التفتت إلى السماء، طيور النـورس تُحلـق، ثـم تسـتقر علـى سطح الأمواج. مازال رجال قارب الصيد يتحـدثون بالإشـارات مع كبيرهم. يلتفت إلى كل مكان. يبتسم.

ـ أخيرًا، ظهر الشاطئ.

لم تشعر بخطورة المهمة وانتهاءها إلا فـي لحظـات ظهـور شــاطئ النجــاة، "أبــو قيــر". الابتســامات تمــلأ وجــوه رجــال القارب، وسلامة العبور من عين المراقبة الساحلية.

اقترب رئيس القارب: تهنئة بسلامه الوصول.

عليها الآن الاستعداد للهبوط في مرسى بحر السلامة.

شاطئ أبو قير.

***

أغلق ستائر المكتب, أغلق الباب بإحكام, أخـرج لفافـة التبـغ المعبـأة بالحشـيش الفـاخر, اسـترخى علـى المقعـد, تـابع حلقـات

الـدخان، لـم يـنعم بأنفـاس سـيجارته المدعمـة؛ صـورة امـرأة صاحبه "لطفي" تظهـر بـين الحلقـات! لـم يسـتطع وقـف لعناتـه علـى زميـل عملـه، "العقيـد" الـذي أورد "شـريفة" المهالـك وطريق الرزيلة والخيانة. نعم، هي جميلة وساحرة, لكن لم تكن لعوبًا. صاحبه "لطفي" كانت كلماته تفضحه بمدى حبـه لهـا، لا يكل عن الحديث عنهـا، والمعانـاة التـي عاشـتها معـه، منـذ أول خطوات الزواج, تليهـا اللوثـة علـى شـاطئ بحـر "المرسـي أبـو العباس"، وقفزه بين الأمواج، والالتقاء به بمستشـفى الأمـراض العقلية؛ زمالة وصداقة تكشف المستور بفقـد عينـه وعذابـه بـين معـتقلات مصـر وسـجونها, وآخـره الالتقـاء بــ"لطفي" بعنـابر الأعصاب بالمستشفى. نعم، لم يكن "لطفي" يعرف من السياسة إلا القليل، فطرة عقيدته: يعشـق الحريـة منـذ ولادتـه، تنمـو مـع مرور الأيـام والسنين. وأخيـرًا الأحـداث الأخيـرة، دائمًـا هيـاج بداخله، مع فقر وعذاب ومشـاركة أسـرته لهـذا العـذاب، والتـي كـان ختامهـا اعتقالـه, لتـأتي "شـريفة" لإنقـاذه، فتسـقط هـي الأخرى في غياهب الرزيلة والخيانة والزنا واللعب مـع الكبـار. "لطفي" الطيب الفقير الثائر، لا يعلم بشـيء عمـا فعلتـه زوجتـه "شريفة", يطلب المعاونـة مـن صـاحبه وزميـل عنبـره. الجـاني هو زميله "العقيد" الـذي أوردهـا إلـى مهالـك الخيانـة. "لطفـي" يبحث عنها وعن اختفاءها أكثر من أسبوعان.

أشعل لفافة أخرى، عسى أن تخرجه من دوائر "شريفة" وزوجها "لطفي". يمتلك الإجابة، يخفيها عنه, أجابه حاضره, ينقصها أين هي الآن؟! يعرف الفاعل، مثل "العقيد", الذي فقأ عينه، ثم تكون الرشوة لعذابه بالمعتقلات والسجون وعنابر الأمراض العقلية وفقده لإحدى عينيه, العمل بالوظيفة الهامة بين صفوف رجال الأمن. كم يشبه عقيد "شريفة" عقيده الذي فقأ عينه. ها هو فقأ شرف امرأة صاحبه "لطفي"!

أزاح فكرة إشعال لفافة أخرى. غرفة مكتبه مازالت معبأة بدخان الحشيش. أخرج أوراق التقارير, عليه استكمال تقريره الأسبوعي عن أعضاء مجالس إدارات الشركات، لم يتمكن من التعرض لهم بالإدانة أو المساءلة! أكثرهم من المتقاعدين, من أهم دعائم الدولة، القوات المسلحة. وَضعهم زعيم النكسة؛ حتى يتمكن من فرد أجنحة السيطرة على طبقات الشعب، والتحكم في كل شيء. الشعب الباحث عن العدالة الاجتماعية. تبخرت ورحلت في مهب الرياح، آمال العمال والفلاحين، أصحاب الأيدي الكادحة الخشنة، طبقة "البروليتاريا" رجعت للخلف، أمر عسكري: للخلف دُر, تسكن في أحضان النكسة. أراد أن يكتب في ثنايا التقرير: الاستغناء عن هؤلاء القادة من ردهات القطاع العام ودواوين الحكومة.

التفت إلى ساعة الحائط، الفجر يقترب, عليه الإسراع بإكمال تقريره. انتبه لأصوات بالخارج، لم يحدث هذا منذ أعوام! أخرج مسدسه الخاص، تقدم نحو النافذة, تراجع أمام رنات الهاتف!

سُرَّ بالمفاجأة السعيدة, كان يتمناها, تكمن في صدره:

ـ قُتل الزميل "العقيد" في مهمة الليلة.

ثلاث طلقات بالصدر، تُنهي حياة الزاني لزوجة صاحبه "لطفي".

لم يتفوه إلا بكلمات قصيرة:

ـ الله يرحمه.

أغلق الهاتف, جلس يُكمل تقرير ليلته السعيدة بمشاركة لفافة التبغ المدعمة بالحشيش الفاخر.

***

شمس الصباح تداعب السحاب, تتوارى خلفه، ثم تظهر، ثم تتوارى.

طأطـأ "الملـوم" رأسـه إلـى الأرض. لـم يقـدر علـى متابعـة الاختفاء ثم الظهور. يكفيه اختفاء أبوه "الطفي", ليظهر، فتختـفِ أمـه "شـريفة". شمسـه المختفيـة، وسـحابه المُعلـق بـين السـماء والأرض،"لطفي". وصل أخيرًا إلى محطة مصر، عليـه إتبـاع إرشادات "السيد النجرو"، شقي بحري. رفض مصاحبة حبيبتـه فينـوس الخرسـاء فـي مهمـة الوصـول إلـى "أبـو قيـر". عليـه المواجهـة وحـده. والالتقـاء بأمـه "شـريفة". لـم يكـن يتوقـع أن يصل "السيد النجرو" بهذه السرعة إلـى مكـان أمـه. حـاول أن يعرف ما هي الخطوة القادمة، فشل. ترك الأمر يسـير تبعًـا لمـا قُدرَّ له. أو ما تقرره "شـريفة" مـن العـودة، هـل سـتعود معـه أم ستختفي مرة أخرى؟! اقشعر جسده، هجم عليـه إحسـاس عـدم وجودها أصلًا بـ"أبو قير". اطمـأن لتراجعـه أمـام "لطفـي" فـي آخر لحظات البدء في مهمته، كـاد أن يخبـره بعثـوره علـى أمـه "شـريفة", كـان شـعوره بـالخوف علـى "شـريفة" مـن بطـش زوجها "لطفي". فقد عمل بتوصية "السـيد النجـرو" بـألا يخبـر أحدًا بهذه المهمة، سواء أبوه أو شقيقه "علي".

اقتــرب القطــار مــن محطــة "أبــو قيــر", عليــه التأهــب والاستعداد لمقابلة أمه، حبيبة أبوه، شمسه الساطعة.

أخرج قصاصة العنوان، إرشادات السير واضحة؛ ها هو المسجد الكبير المهجور تسكنه الخفافيش والعناكب والكلاب الضالة الملاصق، للمقابر والمواجه لشاطئ البحر. كان عليه الابتعاد عنه بقدر الإمكان، توصية "السيد النجرو", فكم من الأشقياء يقطنون في باحة المسجد. وعليه الاقتراب من مقابر "أبو قير". أكثرها مُهدمة، لا أسوار ولا حراسة! حتى عظام الموتى مبعثرة فوق الرمال. ظهرت ملامح المساكن القصيرة، تحوطها مياه المجاري, حاول بقدر ما يستطيع تفادي المياه بالقفز فوق الأحجار المبعثرة, التفت إلى بغيته؛ كوخ من جريد النخيل وبعض الأخشاب المتشابكة، مقاعد خاوية، لا يوجد زبائن, رجل وحيد يجلس يحتسي كوب الشاي مع سيجارته، كما وصفه "السيد النجرو" تمامًا. لم تهتز أعصاب "الملوم", عليه الثبات في هذا الموقف ومع هذا الرجل. كما عليه إخفاء أي ملامح الطلبة أو التلمذة. عليه أن يقنع هذا الرجل بكونه مجرد عامل من عُمال الورش. لم ينتظر أكثر من ذلك, فأمه ليس لها أثر بين المقاعد أو بأحد الأركان. كانت المقابلة فاترة، وإجابة غامضة:

ـ المرأة التي تبحث عنها اسمها "دوسة". كانت تقطن بمنزلي المتواضع الصغير, لم تكن تخرج إلا في الليل؛ لشراء

ما يلزم، وتعود مسرعة. كنت ألاحظها وأتعجب من امرأة قابعة طوال النهار والليل بغرفتها الصغيرة!

قاطعه "الملوم" بصورة أمه مرة أخرى. كان يتمنى ألا تكون هي أمه "شريفة"، تأتى الإجابة من الرجل:

ـ هي "دوسة" التي أعرفها.

صبر "الملوم" بالاستماع عن أحوالها. كم حزن لسماع نفاذ نقودها والعمل مع هذا الرجل. انتفض الرجل وعلا صوته! كانت كلماته كافية لإنهاء هذه الجلسة وهذا التحري عن "دوسة" أو "شريفة".

ـ سيارة سوداء، ينزل منها رجلان هذا الصباح، أحدهما يرتدي أفخم الثياب، مع نظارته السوداء. ورجل تظهر علامات شقاء الأيام, بنطاله واسع مُرقع، ملطخ بأصباغ كثيرة. لم تقدر "دوسة" أن تفر من قبضته، سحبها بداخل السيارة. علا صوت الرجل وهو يرتعش:

ـ هذه المرأة ليست من أهل السُوء، إنها امرأة طيبة ذكية، ليست من أهل السُوء. امرأة يظهر عليها الحسب والنسب والأصل.

ارتعش "الملوم" بعد معرفته الرجل.

هارب من حكم بالمؤبد من عشر سنوات، وهاهو يقطن هذا المكان, يسترزق من رواد مقهاه الهاربين أمثاله بضع من القروش والتي بالكاد تسد حاجته في الحياة.

لم يقوَ "الملوم" من الاستمرار في هذه الجلسة. اقشعر جسده، نفذ صبره، ينفجر في هذا الرجل ويُحطم مقاعده وأكوابه الفارغة.

أشار بيده للرجل، أسرع بالرحيل. يضرب بقدميه وذراعيه بؤس الرياح وعذاب الأيام.

***

الإسكندرية تبكي بكاء العاجز عن إخراج نبرات حزنه وعذابه. كورنيش البحر, لم يكتفِ بالرياح وظلمة الليل, اكتمل مشهد البكاء.

"شريفة" هي الأخرى تشارك الإسكندرية في بكاءها, لا تُخرج صوت نحيبها، تكتمه، يصرخ البكاء بداخلها, يكسر عظامها، الكورنيش يحتفي بعذابها. أمواج البحر السوداء، تدق طبول التائهة في صحراء الألم، وفقدان كل شيء.

"لطفـي" زوجهـا، حبيبهـا الـذي كـان، اكتشـف كـل آهاتهـا, علامات الآهات تركت بصمتها علـى جسدها الأبـيض الغـض, فراش الحب، كَشـف هـو الآخـر فُقدانها لمـرور لـذتها الضـيق، أصبح واسعًا، يتسع للجميع! لم يقترب منها بعد عودتها من هذه الأيام الملعونة. ابنتها "ثريا"، رضـخت لتعليمـات زوجهـا بعـدم الاقتـراب مـن بيـت أمهـا "شـريفة". ألـم كـل صـباح، "علـي" و"لملوم", النظرات المنكسرة الفارغة من الحب. لـم تسـتطع أن تقدم حضنها الدافئ لـ"لملوم", شـقيقه الأكبـر "علـي" لا يجلـس معها في مكانٍ واحـد. هبـت عليهـا لوثـة زوجهـا "لطفـي"، هـل تقفز بـين أمـواج البحـر هـي الأخـرى؟ لا سـبيل للانتحـار, هـي تجبن في هذه المواقف، حتى إن كان للخلاص مـن هـذا العـذاب وجحـيم حياتهـا مـع زوج وأولاد نُكِّسـت رؤوسـهم بفعلتهـا المشئومة!

لاتكل من لعنة صاحب النظـارة السـوداء، صـديق زوجهـا. نعم، أعادها إليهم، لكن بعد أن فضحها أمام زوجها! لـم يسـترها مـن أيـام الضـياع. حتـى "لطفـي"، هـو الآخـر فضـحها أمـام أولادها: "علـي" و"لملـوم" و"ثريـا". لا تقـدر علـى الاسـتمرار في تلك الحياة التي أصـبحت بـلا معنـى. المـوت أهـون لهـا مـن المأساة التي تحيياها وتتنفس بهـا, كيـف الوصـول إلـى المـوت؟ الجُبن يحسم الموقف, يُغلق كل أبواب الخلاص.

التفتـت إلــى سـينما الأنفوشــي؛ رواد الحفلــة المســائية فـــي طـريقهم إلــى الخــارج. تـأخر الوقـت، عليهـا العـودة إلــى البيـت المخـرب بفعلتهـا السـوداء, نهضـت مـن بـين رمـال شــاطئ الأنفوشــي. أسـرعت بـالعبور واختـراق زقـاق "بندقـة"، كانـت ترتعش من نظرات حارس الليـل. كفـى معانـاة مـن الأمـن ومـا جر عليها من مصائب: فقد أعز ما تملك، زوجهـا وأولادهـا. لـم يعد للشرف مكان. ذهب في مهب رياح اللذة ومُتعتها الزائفة.

اقتربت مـن مقهـى "أم حربـي"، تتمنـى ألا تراهـا, مازالـت تحن وتعطف عليها، ضاربة بعـرض الحـائط سُـمعتها الملطخـة بالعار. كم عرضت عليها الذهاب إلى خالتها "نرجس" أو حتـى الجارة "أم حلويات"؛ تحتهن الصفح، والعفو، ومعاودة الود.

فشلت "أم حربي". رياح النميمة، تعم وتنتشر بـين الجميـع، من الأنفوشـي حتـى الحجـاري. زقـاق "بندقـة" الوحيـد الـذي لا يسـتطيع أحـد أن يتحـدث عـن "شـريفة"؛ أوامـر "أم حربــي"، سُلطانة المزاج.

التفتت إلى المقهـى فـي آخـر خطـوات وصـولها للبيـت؛ "أم حربي" مُنهمكة مـع زبـائن الحشـيش. السـيارات تصـطف، فـي انتظار استلام المزاج العالي الجودة. همست "شريفة":

ـ آه يا بنت الكلب، حشيش الحنة والخبز المحروق للغلابة أصحاب النهار.

دلفت داخل البيت في هدوء ـ دون أن يشعر بها أحد من حبها المفقود، زوجها ولديها "علي" و"الملوم".

***

اجتمعت نظرات الوداع, تنظر "شريفة" نظرتها الأخيرة لحقيبة المسافر، لم تنسَ شيئًا، كمية اللحم المشوَّح المتواضعة، مع الملح والفلفل. "لطفي" ينظر إلى ولده "علي" يتأهب للرحيل, ستة أيام؛ الأجازة الشهرية بالجندية. نبرات الحزن تظهر واضحة بصوت العسكري الراحل "علي". معسكره بعيد، نعم شاطئ وبحر، ونسيم الهواء الذي يرد روح مَن يعشق مياه البحر، لكنه ليس بحر الأنفوشي، بل بحر الإسماعيلية، على ساحل القناة. انتهت مدته الإلزامية، لا خروج ولا خلع للبدلة الصفراء التي تذلُّ وتذلُّ بسنوات النكسة وحرب الاستنزاف.

كانت عين "الملوم" تراقب شقيقه، ومشهد أمه الحزينة، تبعد عنهم بمسافات عيون كل من أبوه "الطفي" وشقيقه "علي", وهو أيضًا, الجميع يتحاشى النظر إليها، حتى في هذه الحال وهذا الفراق! "شريفة" نظراتها دائمًا أسفل قدميها, لم تمحُ الأيام فعلتها, حُفرت في صخور وجدران أسرتها الحزينة. قطع "الملوم" صمت الصرخات: الانطلاق للرحيل، واللحاق بقطار المساء. حمل "الملوم" الحقيبة، الوداع المتكرر منذ أعوام مضت، لكنه هو الفراق - وإن تكرر - يصحبه مجهول العودة أو لا عودة، من جبهة القتال.

دس "لطفي" بعض النقود، لم يمتنع "علي" من أخذها والقبول. عليهم الآن الإسراع في اللحاق بترام رقم 4 محرم بك؛ وسيلة النقل المتواضعة بتواضع قيمتها وتذكرتها الصفراء إلى محطة مصر. توارى "لطفي" خلف النافذة, يتابع الرحيل. "شريفة" تتوارى بين جدران حجرتها، زنزانة الليل والنهار, سبيلها الأوحد بالاختفاء من أعين الجيران ورواد الحارة. عين واحدة تعذبها؛ "لطفي" زوجها, حبيبها الذي كان, من حين لآخر يراقب حركاتها, هل يعاوده الحنين إلى حبها الدافئ؟ أم يفكر في الخلاص منها؟ كما فعل "الشيخ الدرويش" بزوجته الغانية بالأنفوشي. والخلاص بدس السم لها وقتلها.

غير قانعة بهذه الخاتمة, فـ"الدرويش" كان في عصر الملك فاروق, عصر حماية الشرف والكرامة للرجل، وأولها مع امرأته. الآن، عصر آخر، يُداس الرجل ويهان بالأقسام والمحاكم! وآخره لعبة حرية المرأة! تضرب وتطيح، ولا مانع من تقطيع الرأس والأكتاف والأرجل، والقذف بها في أقرب أكوام من الزبالة!

أزاحت فكرة التنكيل بـ"لطفي" وتقطيعه، عليها الصبر مع الأيام؛ لترى ماذا سيكون من أمرها؟

التفتت لصوت "الملوم"، حضر الآن ورحل شقيقه "علي"، وغابت عنها ابنتها "ثريا".

لم تشعر بيدها وهي تمزق رداء نومها، انفلتت الخيوط، ظهر صدرها المرمري, المنافس لجميلات هوليود، أطفأت الأنوار, رقدت في تابوت الحزن والألم.

***

لم تدرِ أين تذهب خطواتها؟! ضاقت بها دنياها الصغيرة، ذات النافذة الواحدة، تتمنى زوال النهار لترتمي في أحضان

الليل, تهرب من العيون الراصدة، حتى إلى نظرتها العابرة للمارة أو الجيران. الآن هي في طريقها إلى خالتها "نرجس", تمتطي ترام الرمل، تجلس جلوس المنكسرة الذاهبة إلى القضاء برغبتها, خالة تتبرأ من عارها, والتي تلوك به الألسنة من القريب والبعيد! لا مفر من لقاء الخالة التي راعتها من بداية خطوات زواجها. انقطعت المشاعر وغاب الحب، وتغيرت الأقنعة، هي خائنة وخالة تبتعد عن العار الذي لحق بالعائلة ذات الحسب والنسب.

انتبهت "شريفة"، الترام على بُعد خطوات من محطة "سيدي بشر"، ملامح شارع "خالد بن الوليد" بدأت في الظهور, هبطت وهي تلتفت في كل اتجاه, لا تريد أن يراها أحد تعرفه. أحكمت الايشارب؛ عسى أن يستر القليل من ملامحها وشعرها الأسود الناعم. كانت تسرع في اختراق شارع "خالد بن الوليد"؛ لتختفي في بيت الخالة. الآن يُحدد مصيرها مع خالتها "نرجس"، لم تضغط على زر الجرس ستدق بيدها المرتعشة!

مرت الدقائق, لا أحد يرد, ارتعش جسدها! ضغطت على زر الجرس، رنين متواصل, لا فائدة؛ لا يوجد أحد بالداخل! لم تستطع إعادة المحاولة، فهي تتمنى ألا يشاهدها أحد من جيران

خالتها. أسرعت بالرحيل، أين تذهب؟ تركت خطواتها لتذهب بها في أي اتجاه.

على ماذا تخاف؟ وعلى ماذا تبقى؟! الضياع طريقها.

نظرت إلى كبائن البنا، خاوية على عروشها، تحوطها الرمال من كل جانب، تسكنها القطط والكلاب الضالة، رياح شاطئ "سيدي بشر" تهب عليها، تنفر منها. لا راحة إلا بشواطئ حبيبتها الأنفوشي ورائحة اليود المُحملة بالذكريات؛ "لطفي" حبيبها الذي كان. لم تستطع الجلوس بين الكبائن, كفى ما جرَّت عليها أماكن الشبهة من خراب. عبرت إلى رمال الشاطئ، لم تستطع المسير أكثر من ذلك، البكاء لا تقدر عن صده، جلست مع الدموع والذكريات, على مثل هذه الرمال، وعلى مثل هذه الأمواج, حبيبها الذي كان يقفز بين الأمواج, تحتلها الغيرة, يتبادل "لطفي" القفز بين الأمواج وبينها، تشعر بماء حبه، ترتوي منه ارتواء الظمأى لماء الحب, علا صوتها ولان للحبيب:

شفت الهنا ويا زماني.. شفت الهنا

فاكر أول ما رأتني لما هويتك وهوتني

وقلت إنك حبتني، حبتني.

وقلت لك قول من تاني

قول من تاني.

شفت الهنا.. شفت الهنا ويا زماني.. شفت الهنا.

آه من الهوا ساحر وجميل، فيه المنى والشوق والميل.

ما حلى القلوب لما بتميل. لما بتميل.

وتحن لك عهدي الحالي. عهدي الحالي.

مرت علينا سنين وأيام.

عايشينا في خير وأمان وسلام

تزقين من كاس الأحلام

وأذقييك أنا شهد حلالي

شفت الهنا. شفت الهنا ويا زماني.. شفت الهنا

حَضن كفيها وجهها الباكي. لم تشعر بذهابها بين الأمواج، رفعت ذيل فستانها, غاصت خطواتها بين الرمال والأمواج البيضاء, هل يُجيب الحبيب نداء الحب؟ ويأتي إليها حبيبها المفقود بين رياح الخيانة وصحراء العذاب؟ لم ترحم الحب من النداء إليه. لا حيلة ولا سبيل لنسيان الماضي بما كان. تحملت المأساة بأكملها؛ الزواج بـ"لطفي" الغير مناسب لحسبها ونسبها وعائلتها. نعم كان المنقذ لها من أُم لاهية، تمرح مع زوج جديد, وشقيق نفد إلى بناء أسرة، تاركًا إياها بين عذاب زوج أم

ومرارة الأيام! تنتظر الفرج، فرج "لطفي" الزائف، بين شقاء الحياة والسقوط في الرزيلة. ومازال الشوق إلى حبيبها الذي كان، لم يبرح ويرحل كما رحل هو. الآن عليها الرحيل من شاطئ "سيدي بشر", والعودة إلى شاطئ ذكرياتها الأنفوشي.

***

خطوات متثاقلة, عيون ما زلت تمتلئ بنوم المضطر, الصراخ في الشارع يصم الآذان, تراجعت مع صراخ آخر يأتي من داخل المنزل! وقفت "شريفة" مع حيرتها! لا تقدر على فتح الباب ومعرفة هذا الصراخ ولمَن؟! جميع الجيران يقاطعونها، يبتعدون عنها, هي لهم عار ومرض, يخشون العدوى منها منذ فِراقها لزوجها وأولاها، وعودتها الفاضحة لشرفها.

اتجهت إلى النافذة، يكفيها النظر من خلال الفتحات الخشبية, كثير من الناس تقف أمام محل "الإسكافي" المغلق! نساء تبكي! الرجال يضربون كفًا بكف! انتبهت إلى الورقة المُعلقة على باب المحل. دقات الباب تقطع تأملها، أسرعت إلى القادم: "أم حربي"، لم تُسلم على "شريفة"، هبطت متربعة

على الأرض، طلبت كوبًا من الماء. أسرعت "شـريفة" بالمـاء، جلست بجانبها في صمت. عليها الصبر مع هذه المـرأة صـاحبة المزاج العالي، والصبر على الـذهاب لـدورة لميـاه! كُشـف سـر الورقـة المعلقـة: إعـلان وفـاة "الإسـكافي" مسـاء أمـس! (دون جـوان) الشـارع، تلتـف حولـه البنـات وأولهـن.. "بيحـة" بنـت جارتها! الآن, عرفت سـر صـراخ السلم، الجميـع يعـرف يـوم خِطبة "الإسكافي" على "بيحة". كان الآسي يظهر علـى وجهـه المعلمة "أم حربي". عائلة حبّوب البنـات بـالنعي المعلـق: الأب طبال، والعمة راقصة، والأخـت حلاقـة نسـاء. وكيـف تكـون أم "الإسكافي" بهذه الشـهرة الكبيـرة مُغسـلة مـوتـى؟! ثـم المفاجـأة التـي تهتـز لهـا الأرداف؛ تخـرج الجنـازة مـن كنيسـة العـذراء بمحرم بك!

شهقت "شريفة":

ـ لا يجوز، لا يجوز. كيف تتزوج من غير مِلتها؟!

كان جواب "أم حربي" شـافيًا بالإجابـة الكبيـرة التـي هـزت لها "شريفة" رأسها إجلالًا بعقلية المزاج العالي.

ـ كان سيخرج من ملته، وهنا علم أهلـه بهـذه المصـيبة, فمـا كان عليهم إلا بقتله.

أسرعت "شريفة" و"أم حربي" إلى النافذة, كان المشهد عجيبًا! تحول الصراخ إلى زغاريد وتهليل وتهنئة, "الإسكافي" المحروس حبيب "بيحة", قادم يسير بلحمه وشحمه وحذاؤه اللميع الزاهي اللمعان! لم يعترضه أحد عندما هَمَّ بفتح المحل. أشارت إليه امرأة, جمدت ملامحه, قرأ نعيه وجنازته, سقط مغشيًا عليه وسط الزغاريد الصراخ!

***

الأقدام تتلألأ، لامعة، جديدة, لم تطأ الأرض إلا في هذه اللحظات، كانت ملابس رجال العزاء، تلفت الأنظار؛ البناطيل الواسعة، الأحمر الفاتح, الأصفر الفاقع، السكري الزاهي، البرتقالي الطازج, الأبيض الناصع، سرا دق يتحدى قصور الباشوات والبهوات! مُتكامل بالبُساط الأخضر والمقاعد الحمراء! صوت المقرئ يجذب القلوب والأبصار, الجميع في صمت واستماع وخشوع، إلا "الملوم" وأصحابه، قلوبهم تهتز، ترتعش من الخوف وانكشاف أمرهم الخسيس! نعم أكثر الحاضرين، صناع الأحذية والشباشب و"أبو كعب عالي" معشوق النساء. صُناع، أنظارهم كل صباح قِبلتها ووجهتها

النِعـال، لا يلتفتـون أثنـاء الحـديث يمينًـا أو شـمالًا، إلا إلـى نعـل الحـذاء والصـندل, فِكـر وتأمـل فـي آخـر المـوديلات المكتسـحة الأسواق. يجلسـون الآن لمواسـاة زمـيلهم فـي الصـنعة, المفقـود نِتاج النعي الزائف! لم يتحمله حبيب بنت الجيران "بيحـة" ذات الشعر الأصفر والجسد الفرنسي النحيف.

كـان الحـظ مـع "الملـوم" وأصـحابه؛ لـم يهـتم أهـل الشـارع والجيران بمَن الفاعل لهذا النعي. الأهم هو رحيـل "بيحـة" بعـد المصيبة بفقدان خطيبها، لا أثر لها, اختفت باختفاء حبيبها!

ختم الشيخ التلاوة والدعاء.

بحث "الملوم" عن صاحبه. كـان يريـد المواجهـة بمـا فعلـه. نعم هو يعرف مدى تأثره بفقد "الملـوم" لحبيبتـه "بيحـة". لكـن, هـل يصـل الأمـر لهـذا النعـي الزائـف، وهـذا المـوت المفـاجئ لخطيبها؟! اختفـى الصـاحب، لا يوجـد لـه أثـر بالحـارة ولا فـي العزاء! تردد "الملوم", هـل يُعلـن عـن صـاحب النعـي الزائـف؟ استجابةً لضميره وتألمه لهذا القتل وإن كان بغير عمد؟ المشكلة مشكلتان: فقد حبيبته ، واختفاءها مع اختفاء صاحبه!

لا، لـن يفعلهـا، سـيكتم هـذا السـر. يكفيـه عـذاب ضـميره, وفِراق حبيبته. تسلل من بين أصحابه, يخشى التحـدث فـي أمـر النعي الزائف وصاحب النعي والسؤال أين هو الآن؟

كان عليه الاسترخاء على رمال شاطئ الأنفوشي. لم يهتم بالعودة متأخرًا إلى البيت، رحل الاهتمام من والده "لطفي" وأمه "شريفة" وغياب شقيقه "علي" بالخدمة العسكرية، اقترب من زقاق "بندقة", مازالت "أم حربي" تقطع الحشيش الفاخر لأصحاب السيارات الفارهة, لم يسلم من نظراتها ومتابعة خطواته, أسرع بالمرور، ترتعش أطرافه، نظراتها تُوحي بمعرفتها شيء ما, هل كشفت سر النعي؟! لماذا تلك النظرات ومن هذه المرأة ذاتها؟!

لم يجد إجابة لهواجسه المتواترة. عرج إلى حارة "ابنجه"، مُغسلة الموتى تابت من العمل الحرام, المخدرات، ندرت حياتها لغسيل الموتى، تَرضى بالقليل. التفت إلى أكوام الليف الناصع البياض بجانب عشتها، تساءل:

ـ لماذا ليف أبيض ناصع يُغَسَّل به الموتى في يومٍ أسود حزين؟! أليس من الأفضل أن يكون أسود اللون أو داكنًا, بعيدًا عن ألوان الفرحة والسرور والبهجة؟!

انتبه لضوء القمر؛ "ليلى" الخرساء، فينوس حبه, تطل من النافذة. التقط مشبك الغسيل من الأرض, أشار إليها، دلف إلى درجات السلم المظلم.

أنـارت "فينـوس" الخرسـاء أضـواء لهيبهـا المُشـتعل بـين أحضان "الملوم".

***

السماء تُنذر بالأمطار. لم يهتم، حتى بملابسه الخفيفة، هكذا كان حال "الطفي"، لم يبالِ بالصقيع وبرودة الهواء. نعم, السنين زحفت على جسده, تلتهم شبابه وعنفوان قوته, واقتراب نهايتـه. لا يبالِ ولا يهتم، آماله ما زالت تتفتح, لا تنتهـي ولا ترحـل مـن أمام عينيه.

هـاهو الآن يـذهب بخطـوات المُصـرِّ علـى تكملـة رحـلات أهدافه ومبادئه. لم يهتز لخيانـة امرأتـه "شـريفة"، لا يبـالِ بهـا, أصبحت نكرة, باللونة ، كان يلعب بها, ثم انفجرت وطارت فـي الهواء. نعم, صوت مصيبتها مازال يرن بين ردهات حبه الـذي ضاع، رحل عنه الشعور بالذنب.

ـ نعم, وقعت في وحل الخيانة، لكن برغبتها، كـان بإمكانهـا الصبر على غيابه حتى يعود, لم تصبر وتتحمل بعض المشـاق

والرعاية لأولاها، طرقت أبواب جهنم الحمراء, الشهوة والحب الحرام!

التفت إلى المارة يسرعون في الخطوات؛ الإمطار تسقط بحبات الثلج, لم يبالِ بملابسه الملتصقة بجسده بعد أن غمرتها المياه. اقترب من فندق "سيسل". ها هو الزعيم, يقف منتصبًا شامخًا. لا يبالِ مثله بما أصابه من المياه. الزعيم "سعد زغلول" لم يختفِ بين زوايا القبور, هو الحاضر الغائب.

صعد "لطفي" درجات منصة الزعيم، لم يلتفت إلى المرأة حاملة غصني الزيتون, فيكفيه ما أصابه من امرأته "شريفة".

الآن, الجلسة السرية بينه وبين الزعيم, لن يفتح فمه, لن يتشدق بالكلمات الرنانة بالتلفاز والراديو ليل نهار؛ محاولات فاشلة لمحو عار نكسة 67 عن الزعيم وزبانية الأسوار العالية والسلك الشائك, والاغتيالات، الزعيم يغتال أقرب زملاؤه: المشير عامر, يُحْبَّكُ السيناريو, ويُبث الإعلان! لوثة حب الزعيم فشلت بالإقناع لمن غنى له: ناصر يا حرية, ناصر يا اشتراكية. الشعب كشف الغطاء عن انتحار المُشير في سجنه الحربي، لم تدخل عليه حِيلة الانتحار, مات المشير مقتولًا بيد أحد عساكره! أكثر الناس من الكبار والشباب لم تفلح معهم حيلة الزعيم.

هدأ "لطفي" مع توقف الأمطار, نظر إلى الزعيم "سعد زغلول"، لم تزل قطرات المطر تتساقط من بين يديه, التقطها "لطفي"، مسح جبهته بها، فرك بها شعر رأسه, التفت إليه الزعيم سعد, كانت ابتسامته سحرية لـ"لطفي"! جلس بجوار المرأة حاملة غصني الزيتون، همس:

- الآن. الآن أعرف ما هو الواجب عمله، "شريفة" امرأتي الخائنة هي بدايتي الأولى..

***

أسدل ستائر مكتبه، لملم كل ما يخصه من أدراج المكتب, لم يتردد في حرق بعض الأوراق والمستندات، كان مستعدًا لهذا الموقف وهذه اللحظات الفارقة. الصخب والبكاء والصمت في عِراك بهذا المبنى الخرِب! صوت واحد كان يصاحبه؛ صوت المذياع، الشيخ "عبدالباسط عبدالصمد" في جميع المحطات, يرتل القرآن الكريم.

نظر إلى سلاحه الشخصي، مسدسه الأميري المزود بكاتم الصوت. التقط سيجارته المعبأة بالحشيش الفاخر, لم يبالِ بغلق

مزلاج باب مكتبه. الأمر الآن أصبح في يد رياح التغيير، لا أحد من زملاؤه بمبنى الأمن يهتم إلا بنفسه! كما هو حاله الآن، هل سيُفارق هذا المكتب، ويغادر هذا المكان، ويرحل كما رحل الزعيم؟!

حتى الآن, لم يصدر بيان من الرئاسة بموت الزعيم ناصر. أطفأ سيجارته مع دقات الباب، لم يعترض بسحب مسدسه الأميري. الآن, هو أيضًا يجب عليه الانسحاب ومغادرة مبنى الأمن، تمنى أن تكون هذه نهاية لخطوات حياته. لم يكترث بسيارته أمام المبنى، عليه الاعتماد على قدميه. التفت إلى المارة، الدنيا تسير, الحياة لن تتوقف ولن تنتهي. كان يفكر في الساعات القادمة. نعم, اقتربت ساعات الحزن وإعلان وفاة الزعيم في الإعلام، يجب الإسراع لسماع النبأ. عَرج إلى شارع فرنسا، لم يفكر في الجلوس بمقهى الإسعاف، لم يستجب لرائحة مطعم "سلامة كوارع", وأبخرة قُدوره النحاسية بما تحوي من حساء الكوارع وفتة الأرز، لم يرضخ لرغبات معدته الخاوية. عليه الإسراع إلى ما هو أهم، محل "الخواجة فرحان"، توقف, مازال الخواجة تلتف حوله النساء, عليه الانتظار حتى تنتهي نبوءاته لهؤلاء النسوة. كان في رضا من العودة إلى حياة الإنسان البسيط, عليه أن ينسَ بريق مكانته الأمنية، حاول بقدر ما يستطيع ألا يراه "فرحان"، يقطع حديثه

لزبائنـه مـن النسـاء ويتفـرغ لصـاحب المقـام العـالي, انتبـه إلـى المارة يُسارعون في التقاط خبـر مـوت الـزعيم ناصـر. الـزعيم كان له الفضل الكبير في حماية الخواجة فرحان من الطـرد مـن مصر، كما طرد أبناء عشيرته من اليهود؛ كبار الدولـة يحمـون صاحب النبوءات, يسلمون أيـديهم لـه، يلعـب بأقـدارهم: ستُنقل إلى أعلى المناصب, عدوك اللدود سيخرج مـن الـوزارة, حتـى هو, تذكر كيف أسعده بخبر ترقيته منذ أيام، وهـا هـو الآن يـأتي إليـه طواعيـة؛ ليسـتمع إلـى كذبـة أخـرى! خـرج مـن تأملاتـه بصراخ امرأة في وسط الطريق, ترتمـي تحـت إطـارات سـيارة عابرة، وها هي أخـرى تحـاول القفـز مـن النافـذة. وفـاة الـزعيم ناصر، تلعب بوجدان الشـعب كلـه! أسـرع بالرحيـل, يكفيـه مـا أصابه وما سيأتي في عِلم الغيب. تذكر "الطفـي" صـاحبه زعـيم طبقـة (البروليتاريـا)، تمنـى لقـاؤه. دلـف إلـى سـوق "التـرك"، أسـطوات النجـارة وتلميـع الموبيليـا يفترشـون الطرقـات, لا يعيرون انتباهًـا لسـماع خبـر مـوت الـزعيم ناصـر، تُحاصـرهم ساعات اليوم؛ لإنـهاء ما بأيديهم من أجل أن تمتد في آخر النهار للنقود القليلة, عسى أن تكفِ ليـوم آخـر مـن حيـاتهم المتواضـعة في كل شيء. اقترب من هدفه وصاحبه, "الطفي"، يجلـس علـى جانب الطريق، يُنهى عمل كـوب الشـاي، الشـاي يفـور, أسـرع بإطفاء قطعة القطن المُشبعة بالكحول. كـان عليـه الصـبر حتـى

يُكمل "لطفي" صب مزاجه الخاص. لم تصل يده بأول جرعة إلى فمه, التقطها منه وهو يضحك، لم يلتفت "لطفي" لصاحبه، ملأ كوز الشاي مرة أخرى, أشعل قطعة القطن المحاصرة بالبراغي الثلاثة، وَضع كوز الماء بخليط الشاي. كان عليه الانتظار لفراغ صاحبه من احتساء الشاي المختطف. لم يصبر"لطفي", اختطف هو الآخر كوب الشاي، ابتسم صاحب النظارة السوداء, جامد الملامح. كان في اشتياق لهذه البسمة؛ عسى أن ترد إليه ما فقده خلال الساعات الماضية. رفع "لطفي" كوب الشاي:

- الآن حان تناولي لمزاجي الخاص.

لم يتبرم صاحب النظارة السوداء جامد الملامح، عليه الرضا بالخلع, خلع مسدسه الخاص، خلع من منصبه الهام. وهاهو صاحبه وزميل عنبره, زعيم طبقة (البروليتاريا) يخلع الكوب من بين يديه!

كان ينتظر تعليق زميل عنبره على رحيل الزعيم ناصر. "لطفي" لم يهتز، لم يترنح، كما ترنح وجدان شعب مصر! هو الصامد الساخر من تاريخ الأحرار، وشقاؤه المتواصل والمستمر ليل نهار لا يُمكنه من أن يرى أكثر من حياته الباهتة النافرة, المتمردة من كل شيء.

أنهــى احتســاء الشــاي، أشــار "لطفــي" إلــى أصــحابه المتراميين علـى جوانـب الطريـق؛ استجاب زمـلاؤه إليـه فـي ثـوانٍ, التفوا حولـه، لـم يهتمـوا بمَـن يجلـس بجانبـه, اهتمـامهم وأبصارهم لعاشق ومعشوق (البروليتاريا). صعد "لطفي" علـى المقعد الخشبي، الذي لم ينتهِ من تلميعـه وطـلاؤه، خلـع قميصـه العبك, نكش شعره، مسح وجهه بقطرات الشـاي المخـتلط بتفل الشاي, كتم أصحابه أنفاسهم، صمت وترقـب للـزعيم، الأسـطى "لطفي".

التفت الزعيم إلى صاحبه جامد الملامح بطئ الكلمات.

كان يعرف صاحبه ماذا سـتكون الخطـوة التاليـة لـ"لطفي" عندما يصعد، الخطابة والانفجار في كل شيء, حتى هو, زميـل عنبـره. امتلكتـه الدهشـة! مـا زال أصـحابه ينتظـرون خطابـه السـرمدي, الـذي أزف بإشـارة "لطفـي" زعـيم طبقـة (البروليتاريا):

يا حبيبتي يا روحي يا حُرية

عطشان لك أكثر من المية

ده أنا ألف الدنيا برجلية

وهدومي أغسلها بإد يا

وافطر واتغدى بطعمية

ولا حد ش أبدًا يتحكم فيا

المال والجاه ضحيت بيهم

وأنا مش ندمان على لياليهم

عاي زيني أكون ملك أيديهم

وأنا عيز أكون ملك إيديا

يا حبيبتي يا روحي يا حُرية

تعجب صاحبه بقناعة زملاء الزعيم لكلمات الحُريـة, بـدأوا بالانسحاب مُرددين:

- يا حبيبتي يا روحي يا حُرية.. عطشان لك أكثر من المية.

***

الحنين والحب والأمومة, تدفعها دون أن تشعر بعواقب هذه الخطوات، لا يهم أي شيء في سبيل هذا اللقاء, لن تتراجـع عـن

الارتواء بحبيبتها، فلذة كبدها، ثمرة حبها الذي كـان. كـم عانـت في سبيل سعادتها واستقرارها, سـهرت الليـالي فـي عـذاب مـن أجلها؛ تُفكر وتخطط في الوسائل التي تبعـد بنـات الجيـران عـن زوج "ثريا". كم تشتاق لقُبلة أو ابتسامة من أحفادها!

كانـت حريصـة علـى هـذه الزيـارة صـباح اليـوم. لا تريـد الصِدام بـزوج ابنتهـا, يكفـى صـدام ابنتهـا القـادم, والآتـي يبتعـد عنها بخطوات قليلة لتصل إلى البيت. اطمأنت "شـريفة", مكـان سيارة زوج "ثريا" خالٍ؛ إذًا الزوج مازال بالعمل.

صعدت درجات السلم، لن تدق جرس البـاب، ستدق بيـدها, لا تريـد إزعـاج أبنـاء "ثريـا"، تتمنـى نـومهم. لـم تقـدر علـى الصـمود، ارتمـت فـي حضـن ابنتهـا "ثريـا"، لـم تخلـص مـن العتاب والاتهام وارتعـاش ابنتهـا وعُلـو صـوتها, مـا أقسـاه مـن عتاب, وما أشده من عذاب! لا أحد يغفر لهـا أو يرحمهـا, هنـاك بـين "لطفـي" وأولاهـا "علـي" و"الملـوم", وهنـا مـع أول ثمـرة حب كان! قلب "ثريا" لا يرى ولا يسمع ولا يسـمح قـدر أنملـة للصفح أو ينسى للحظات. لا حيلة لديها للـدفاع عـن نفسـها أمـام أصابع الاتهام، كان عليها الانسحاب مـن مواجهـة مَـن ضـحت من أجلهم بكل شيء؛ أيام عمرها وشبابها وشرفها.

ـ من أجل مَن فعلت كل هذا؟!

مرور السنوات لم تبهت أو تزيل فِعلتها المشئومة. همست:

ـ عجيبة يا دنيا! تمحي عمري بأيامه وشهوره وسنينة وعذابه في لحظات!

انتبهت "شريفة"، أحفادها يهرولون إليها, لم تصبر "ثريا" لبعض لحظات الحب بين "شريفة" وأحفادها, اختفوا بين الغُرف، كان عليها الاختفاء مثلهم، أمام رنين جرس الباب، اكتملت قسوة المشهد واللقاء.

زوج "ثريا" القادم، لم تسلم "شريفة" من سماع السباب لابنتها منه. أسرعت بالمغادرة والرحيل الذي لا رجعة فيه. كانت تود الإفصاح لابنتها بأسباب الزيارة.

"ثريا" أول المودعين من أسرتها قبل الفِراق!

***

أزاح همه الكبير, ولو لقليل من الأيام. أغلق مفاتيح حبه ولذته، الاثنتان يُشغلان قلبه ووجدانه. أمه "شريفة"، وليلى الخرساء. اليوم لا راحة ولا حب، اليوم يوم الرحيل, رحيل الزعيم ناصر، وداعه إلى مثواه الأخير.

لم يستطع مغادرة الإسكندرية إلى القاهرة للمشاركة، كان في قناعة بتلك النهاية لناصر. حرب الاستنزاف أمام نكسة 67، أعادت الهمة المصرية لطريق الثأر وطيّ أيام النكسة. نظر "الملوم" إلى أصحابه, الجميع يشارك في احتفالية الوداع، "ممس" ـ المُعيد بالزراعة ـ يتحدث في الميكروفون عن ناصر. كل الأصحاب يتهافتون في مشاركة هذا الوداع! شعر "الملوم" بالارتياح بعد أن أنهى لوحته، كتب بقناعة الحِس الشبابي والوطني:

(رحل رسول السلام في أحلى أيام الإسلام)، الإسراء والمعراج.

كان يشعر بعظمة الزعيم في تصفية أجواء المنطقة العربية كلها, أهل فلسطين وحكومة الأردن وحُكام الخليج، الكويت. مشاق تحملها الزعيم حتى آخر أنفاسه. بالأمس كان في وداع آخر الملوك بعد وداع وُفود وحكام دول الخليج.

أنهى "الملوم" مهمته بنجاح, اللوحة تُزين جدار الشارع، التفت إلى إشارة المعيد "ممس"، استجاب مع أصحابه, لم يعترض "الملوم"، "عبيد" يتلوا عليهم مقال "حسنين هيكل" "بصراحة"، أجاد هيكل بوداع الزعيم ناصر. لم يتبرم أحد أو يعترض، الجميع يؤيد كلمات هيكل عن لحظات موت الزعيم،

ترحل روحه مع زوال الشمس, يرحل نـور الصـباح ليـأتي ليـل طويل, الزعيم كان يُعاني أمراض قلبه وأمراض الوطن، رحـل بقلبه المريض، ومازالت أمراض الوطن تئن!

انتبه الأصدقاء لضحكات صاحبهم "عِز"، افتـتح بضـحكاته أبواب المؤيد والمعارض. ابتسم "الملوم"، خطوات "عِز" تشـبه عندما يصعد على درجـات السـلم، جـاء مـا توقـع: "عـز" يعلـن الخبر الكبير:

ـ الزعيم مات بالسم ليس بمرضـه!

أشار إلى "عبيد":

ـ عليك بحرق هذا المقال وهذا الكذب. لن تفيـد أقـلام الـدنيا، لستر موت الزعيم؛ ناصر مات مسمومًا بأوامره هو، لا بغيـره، ولكن بيد غيره! الماكر العميل! لن أفصـح لكـم أكثـر مـن ذلـك، كان بالأمس في وداع آخر ضـيوف مصـر مـن الحكـام العـرب, الزعيم عَلِم بتعاونه مع أمريكا، يتجسس على الرؤساء والملـوك العرب، وكانت أسـهل الفـرص وأحسـنها عنـد وداعـه ورحيلـه. تُعد القهوة، تُقدم للزعيمين باسـتراحة المطـار, يهمـس فـي أذنـه أحد رجاله، يفهم المـؤامرة، الـزعيم يلتفـت لأحـد رجالـه، تـدور الأكـواب، يحـتسِ الـزعيم فنجـان السـم والملـك الضـيف يحـتسِ الآخـر ويرحـل إلـى بلـده. هـذا هـو الموقـف بكـل صـدق، مقـال

كاذب خادع, كما حاول رجال ناصر خِداعنا بانتحار المشير عامر.

لم يتفوه أحد من الأصحاب، أصابهم الخرس أمام كلمات "عِز"، فقد سبقتها كلماته بنبأ وفاة الزعيم قبل أن يعلن الإعلام بساعات عن الموت.

قطع "عبيد" صمت الأصحاب, مزق "بصراحة"، صعد على درجات السلم، لم يعترضه الأصحاب من المدح والثناء على ناصر، قائد العروبة وزعيم الوطنية, وإن كانت هذه نهاية مَسيرة حياته؛ شرف وكرامة وعزة للقومية العربية.

انسحب الأصحاب، التفت "الملوم" إلى صديق فِكره، "ممس" مُعيد الزراعة. همس:

ـ ناصر مازال هو المغني الأوحد لهؤلاء! شعب مِصر لن يرفع جبهته ولو لأيام قليلة!

تائه, خطوات لا تعرف إلى أين؟! لن يذهب إلى شاطئ الأنفوشي، كفى ما تحمل من شكواه وتواترها. لحظات عمره في تواصل مع كل حَبة من رماله، كل موجه من ماؤه لا تمل من متاعبه وأحواله.

مشاهد عذاب أمه "شريفة" تضوي بين جدران البيت. حبيبها الذي كان، يُعلن الحرب عليها! لا تقدر على المقاومة.

"لطفي" الحبيب, ينتوى الاستغناء، يرصد كل جوارحه بالقذف بـ"شريفة" إلى متاهات الغيب والاختفاء! لا سبيل لعودة الحب، ولا مفر من التقدم إلى الأمام, الماضي أُغلق، لا رجعة فيه، هذه هي شروط التعامل مع قمة الخيانة بعد أن يُداس الحب بأصابع غريبة ومشاعر مُفتعلة، تذهب أدراج الرياح مع لحظات لذة لا تدوم، شجرة صماء لا تُثمر، جافة من كل شيء، تُعد للاحتراق.

اقترب "لملوم" من حديقة الشلالات؛ فرصة للاسترخاء والبحث عن رحيل ل"شريفة". الرحيل إلى أين؟! "الخالة نرجس" والجارة "أم حلويات"، حتى "أم حربي" بائعه الحشيش، الجميع تخلى عنها. نفدت حيله في جمع الشمل بين أمه و"لطفي". "شريفة" وقعت في شباك الرزيلة من أجل مَن؟! مَن هذا؟! لم يُقدِّر قلة خبرتها في مسالك الحياة!

تُحل مشكلة اختفاء "لطفي" بمشكلة وَحل الخطيئة التي تُنهي كل شيء.

انتبه "لملوم"، خاله "صابر"، يُجالس امرأته بكازينو الشجرة. لم يتردد في الاتجاه نحوهما. مقابلة فاترة من خال وزوجه! يعاودان لحظات الحب! انسحب بدون كلمة وداع، الخال لا يسأل عن أحوال أمه، حتى لم يسأل عن شقيقه

"علي"! أحوال الخال والد، رحلت مع رحيل كل شيء في حياته! كان يريد الاسترخاء والراحة، راحته أصبحت بعيدة المنال.

التفت إلى القلعة المتواضعة الصغيرة، المشهورة بـ"قلعة جحا"، لم يأخذه الحنين إليها كما كان في الماضي، ماتت الذكريات ورحلت المشاعر!

اقترب من ميدان محطة الرمل، لن يعبر إلى كورنيش البحر، عليه السير بالجانب الآخر تحت مظلات المحلات؛ يحتمي من حرارة الشمس, ويتنعم بهواء البحر.

توقفت خطواته! والده "لطفي" يجلس تحت عتبات الزعيم "سعد زغلول", نائم في ظل أقدام الزعيم! لا يدري ماذا يفعل! هل يذهب إليه؟ أم يمر مرور الكرام ويختفِ؟

كان القرار بالإسراع والعودة إلى أمه "شريفة".

***

نظرت حولها، الغُرف تكسوها الأتربة، هنا كانت تُجالس أولاها: "ثريا" و"علي" و"لملوم". هناك فراشها مُرتب، يئن

من حرمان اهتزازه وفركشة أغطيته, لا بلل ولا لزوجة، تائه عن الآهات والتأوه مع مَن لفظ كل الحب، وهجر كل السنين بكل ما فيها!

التفتت إلى النافذة المغلقة، لم تقترب منها, عليها الآن الاقتراب من باب الرحيل الأبدي، لا عودة إليه ولا سبيل في محاولة طرقه مرة أخرى.

راجعت الحقيبة، أخذت كل ذكرياتها، لم تترك شيء يُذكِّر "لطفي" الحبيب بها. كانت تتمنى لقاء ولديها: "علي" و"الملوم". لا سبيل لـ"علي"؛ ميعاد أجازة الجندية لم تحن بعد. "الملوم", لا تعرف أين مكانه! يكفيها أن تشاهده، بدون كلمة وداع.

أغلقت الباب خلفها في هدوء دون أن يشعر بها أحد من الجيران. لن تذهب لوداع ابنتها "ثريا" وأولاها الصغار, يكفي عذاب آخر لقاء، كفى ما تحملت من سب وقذف ومَهانة من زوج ابنتها "ثريا".

لم تنظر خلفها في نهاية ميدان المساجد. لم تتوسل إلى أولياء الله الصالحين. لم ترَ أية كرامات منذ أول خطوات سكنها بالجوار معهم! الآن هي في طريقها لتكون مثلهم: ذِكرى وتاريخًا.

كانت تريد اختصار الطريق من خلال شارع فرنسا، لم تلتفت إلى محلات وورش الموبيليا أصحاب "الطفي"، عرَّجت إلى الشوارع الخلفية، أخيرًا ظهر شاطئ البحر بأسواره العالية، لا تشاهد ماءه, يكفيها هوائه وروائحه.

اقتربت من ميدان محطة الرمل وحدائق الزعيم "سعد زغلول". كانت تعرف بغيتها وهدفها؛ مقابلة "الطفي". لم تقدر على الثبات أكثر من ذلك، أطرافها تهتز, أقدامها لا تقدر على حملها أو التقدم إلى الأمام, "لطفي" الزوج والحبيب يجلس أسفل أقدام سعد الزعيم تحت حرارة الشمس وسخونتها، لم تلتفت إلى زوجها، نظراتها إلى الزعيم النحاسي الشامخ المُعذَب بين أحضان السماء, لا حيلة له إلا النظر ومشاهدة ما يجري بينها وبين مَن هجرها. جلست بجانب حقيبة الرحيل، لم تقترب من "لطفي"، الآن جاء وقت كلمات الدفاع والرحيل في آن، خلعت الايشارب من شعرها، هبط شعرها الأسود كأمواج البحر بخطوطها البيضاء, حسرت ذيل فستانها، ظهر بياض شواطئها المُعذَبة، لم تكتفِ بذلك, بدأت بهمس قلبها المعذب لحبيبها الذي خان:

العشرة هانت. هانت عليك.

والدنيا هانت. عاليا

قلبي اتحرق بين ايديك

وأنا الحبيبة. أنا الحبيبة

أنا الحبيبة الوفية

دي حياتي كانت عنيك, وانت قريب من عنيا

وكنت أنا الوردة الندية, يحمي فؤادك هواها

ترميني ليه؟ ترميني ليه؟

وكنت أنا النسمة الهادية

يسعد حياتك هواها

تنساني ليه؟ تنساني ليه؟

وتفوتني في الدنيا غريبة

لا حبيب يواسي ولا حبيبة

غير قولت آه. آه

حيرانة أبكي على حالي

وأدوق من المُر ليالي

أشكي لمين غدرك؟

وانت اللي كنت أشكيله

وأحكي لمين هجرك؟

وانت اللي كنت أحك يله

صبحت بعدك وحيدة

والصبر ألقاه فين؟ ألقاه فيه؟

أنا التعيسة الغريبة

أجيب لي بخت منين؟

أجيب لي بخت منين؟

أجيب لي. بخت. منين؟

التفتت إلى حبيبها الذي خان, "لطفي" لم يتحرك من مكانه، لـم تهتـز أطرافـه، صـامت مثـل حبيبـه وظِلـه وصـاحبه سـعد الزعيم! لم تشعر بالتفاف زوار الزعيم "سـعد زغلـول" حولهـا. أشارت إليه، لم يلبي حتى بإشارة من يده!

اتكأت على كتفه؛ عسى أن يغفر لها.

سقط على عتبات الزعيم!

صرخات الفِراق تقتلها.

حملت حقيبتها متجهة إلى شاطئ الذكريات.

الأغاني:

يا حبيبتي يا حُرية "مصطفى السيد" المطرب: "إبراهيم حمودة"

(شفت الهنا) "عبد العزيز سلام" مطربة القطرين: "فتحية أحمد"

(العشرة هانت عليك) "أبو السعود الإبياري" "فتحية أحمد"

رواية

*** ليال القهر***

الجزء الثالث من ثلاثية الأنفوشي

محمد عزام

التفت إلى زملاؤه بمنطقة التجنيد، الرهبة والفزع تكسوا الوجوه، إلا هو"لملوم" البائس الهارب من عذاب أمه "شريفة"، وشقاء والده "لطفي".

يوم آخر يمر في معسكر التجنيد، ينتظر توزيع سلاحه، لم يقدر على الصبر أكثر من ذلك، كان عليه الرحيل هو الآخر, حياة لا تطاق، لا أحد يُسامح أحدًا، ولا أحد يعذر أحدًا!

"لطفي" هو سبب مشاكل أمه "شريفة" كلها، نعم.. الدنيا ذهب بهاؤها وجمالها.

العصا الغليظة هي سيدة الموقف، ذهب ناصر وأتى الآخر، مُحمل بأطياف مختلفة من رفيق سلاحه، خلع رداء العسكر، التحف برداء الإيمان والتقوى والصلاح! تلون الخطاب من بدايته! لكن هل سيكون النجاح حليفه بتلك المشاهد الإيمانية؟

الغليون مُعلق في فمه، وسيدة مصر الأولى، تبعد بُعد السماء عن صفات نساء الشرق! الزعيم ناصر نجح في الغناء على شعب مصر.. هل سيغني الزعيم المؤمن أم يُرتل ويصلِ؟

الأيام هي خير وسيلة للترقب والانتظار بمدى موهبة الزعيم المؤمن في النجاح مثل صاحبه ناصر على شعب مصر!

وها هو حظه الأسود يُرافقه مثل ظِله وخياله الذي لا يُفارقه! كيف حدث ذلك؟! صديق عمره "ممس" المعيد بكلية الزراعة، خاله العقيد بالقوات البحرية يُصاحبه إلى معسكر التجنيد. تحدث المصيبة الكبرى! سيارته تدهس طفلة في الطريق! يتشاءم العقيد، ينسحب من مهمة التوصية عليه للتوزيع بالقوات البحرية، يأمره بالذهاب إلى المعسكر، الآن لا توصية ولا عقيد في انتظار معرفة سلاحه. كم تمنى القبول بالقوات البحرية بقاعدة رأس التين، مسقط رأسه ومَولده وذكرياته بكل ما تحمل من رياحها المختلفة، نعم كان يود الرحيل إلى أقاصِ ربوع مِصر، لم يقدر على مواصلة الرحيل، تجبن عواطفه، يخر راكعًا في حب قمره المُكتمل أبوه "لطفي" وشمسه الساطعة أمه "شريفة".

اليوم الثاني بالمعسكر يكاد ينتهِ ولا سبيل لبادرة خير تأتِ مع نهايته، ألسنة العسكر أشد من السِياط بألفاظها في شنق الكرامة ولعنة الأمهات والآباء! لم يستطع "الملوم" الصبر ولا تحمل السِباب، وحرارة الشمس الحارقة تخترق رأسه هو وزملاؤه.. بينه وبين الحياة هذه البوابة الحديدية وحراسها

أصحاب القبعات الحمراء. بضع خطوات تفصله عن الحياة المدنية وما بها من روائح الكرامة والشرف، بل الرد والدفاع. بوابة خادعة بشعاراتها ورايتها الزائفة!

انتبه لأوامر العسكر بالوقوف لسماع توزيع السلاح, لم يتبرم من سلاحه، رحلت القوات البحرية، سيلتحف بالبدلة الصفراء، الصحراء أصبحت موطنه لقضاء مدة خدمته، البدلة الزرقاء رحلت بشواطئها ومياها بدون رجعة، مثل رحيل العقيد بتوصيته والتي ذهبت في مهب الرياح.

التفت إلى زملاء سلاحه، سلاح لم يسمع عنه من قبل! لم يتعرف أحد منهم على نوع هذا السلاح! انتبه إلى إذن العسكر بالمغادرة والعودة ليوم الرحيل، لم يشارك زملاؤه الفرحة، خمسة أيام! مفاجأة كان يظن أن ليلتان تكفِ لمغادرة الإسكندرية وشواطئها ورمالها البيضاء، خمسة أيام؟ خمسة أيام!

يا لها من أيام بما تحمل من المجهول، حاول خِداع خواطره، ستأتي أول مواجهة يخشاها، شقيقه "علي" وصده عن هذه الخطوة، وأهمها فرصة عدم الدخول بالعسكرية، هو وشقيقه لا ثالث لهما، هذا ما أيده رقيب المعسكر، قوانين

الجندية تسمح بالإعفاء والتأجيل حتى يخرج الشقيق، ليدخل الآخر.

لم يرغب في اعتلاء ترام الحضرة للعودة, كان في حالة توحد مع فكره بعيدًا عن النظرات والتصنت لحديثه وتأمل حالته التي لا يعلمها إلا رب السماء وهو.

وقف أمام وكالة الحضرة، بورصة الخضروات والفاكهة، ما زال البيع والشراء على قدم وساق. لم يتردد، اندس بين الحمالين، هذا هو الحل للحصول على بعض النقود نظير حمله الأقفاص والأجولة.

انتبه لاقتراب غروب شمس النهار مع غروب الأحمال، حاول طمس علامات الحِمل من على كتفيه، لم يفلح، كما كان حاله أمام صراف الأجور من نظراته إليه والفحص من أخمص قدميه إلى شعر رأسه، كانت ابتسامة الرجل توحِ بمدى شفقته على حالته. قبض على النقود، كانت أكثر بكثير من الحمالين زملاؤه، بادله بكلمات مع ابتسامة تعبر عن مرارة الموقف، تحاشَ مواجهة نظرات الصراف، كانت فرحته ليست بالنقود، لكن لأنه ما زالت الفرص مواتية له للعمل في الأيام المقبلة.

أسرع بالرحيل، لا يريد أن يفتح باب التعارف، حتى ولو بمعرفة اسمه.

* * *

فتح عينيه، ضوء النهار يصده عن فحص ما حوله، نوافذ كثيرة، عنبر شبيه بمكان.. لا يقدر على تذكره..! تحسس النافذة، لا توجد قضبان الحديد السوداء، فشل في معرفة أين تلك النوافذ؟! بل أين تلك القضبان؟ برز برأسه في الهواء الطلق، سعد بمشاهدة المارة دون القضبان الحديدية السوداء، ما زال الفشل حليفه في معرفة أين تلك النوافذ ، التفت إلى السرائر البيضاء وهؤلاء النزلاء، حاول أن يتذكر كيف أتى إلى هذا المكان؟ لم يفلح في لملمة أفكاره، عجز عن المواجهة وإجابة السؤال، حتى من أقرب ساكن للفراش بجانبه، كان عليه الانتظار والصبر.

الصبر نزيل حياته التي لا يعرف عنها غير هذه الرائحة، رائحة الصبر التي تهب عليه وتحتويه في هذه اللحظات المُحملة بالمجهول. كانت دهشته من تلك الأصابع المدموغة بألوان الدهان، أي دهان! لم يفلح في معرفة ما الذي أصاب

كفيه! رائحة الكحول تزكم أنفه، خطوات الفشل في إجابات تبتعد عنه، تغيب، لا يستطيع الاقتراب منها أو العثور عليها.

انتبه إلى خطوات الحسناء البيضاء، تقترب منه، دلال وجمال، والعيون الزرقاء، ابتسامة ساحرة، تهز شغفه بكل قوة وقسوة إلى حب لا يعرف أين ذهب؟! وجه يشبه إلى حد كبير هذه الفاتنة، بلباسها الأبيض ورشاقتها الساحرة، لم ينتبه إلى النداء:

- "لطفي"، يا عم "لطفي"

نفذ صبر الفاتنة البيضاء، ناولته المحفظة الجلدية، صُورته بارزة، بطاقة تحمل اسم "لطفي"، قلّب أوراقها، هاهو اسم الزوجة: "شريفة", تلا أسماء الأبناء: ثريا، علي، لملوم. ذاكرته تعود إليه في سبات الموتى وسكون الصمت. لم تتبرم الحسناء ذات العيون الزرقاء، ما زالت تصبر عليه، الآن فهم مَن هو. "لطفي"، وتلك امرأته، وهؤلاء أبناؤه. لم يصمد أمام ارتعاش يده، تاريخ ميلاده تاريخ بعيد؛ يبتعد عن حاله وحالته الآن، أسماء من يدّعون أنهم أبناؤه وامرأته، لم يصبر أكثر من ذلك، ابتعد عن الحسناء، دلف إلى دورة المياه.

حقيقة أمره تظهر الآن، المرآة تفضحه, قسمات وجهه تصفعه في مقتل.. فروة رأسه خليط من الليل الأسود والنهار

الغارب، تجاعيد جبهته بما تحمل من الغُلب والشقاء، تحسس أنفه البارز كمنقار الغراب، يتوه مع ابتسامته البائسة. عاود النظر عسى أن تصالحه وتحسن من هيأته، لم يفلح في الضحك، عليه إزالة الأتربة من عليها، ما زالت تُصر على كشف سَوءة حياته المعذبة وقسمات وجه وتجاعيد الزمن، لم تمن عليه إلا بهذا الرجل القادم من خلفه، التفت إليه، كم يشبهه، خذلته الذاكرة كما خذلته أمام أسماء تلك البطاقة، أحس بالهدوء يعود إليه، الرجل يصبر عليه في تساؤلاته وحيرته، ينصت إليه باهتمام، لم يفلح صاحبه في إخفاء اندهاشه أمام ذاكرته المفقودة لذلك الحد! أخرج أول كلماته:

ـ يداك تحمل علامات الصانع الماهر، تعمل في دهان الموبيليا، رائحة الكحول تفوح من بين أصابعك، أظافرك تكسوها الصبغة الحمراء والسوداء والصفراء.

لم يتبرم من انسحاب الرجل، انتبه.. وجبات الصباح توزع على أمثاله بالأسرة، نزلاء العنبر لا يعرف أحدهم الآخر في تلك اللحظة, كان عليه هو الآخر المشاركة في الانتباه لتلك الوجبة بما تحمل من البيض المسلوق وقطعة الجبن مع شرائح الخيار والخبز الأبيض الطازج. لم يدرِ لماذا أزاح البيض المسلوق بجانبه, لم يرده مع طاولة الإفطار, لم يصمد أكثر من

ذلك، هل تأتِ الإجابة من الرجل القادم إليه، كم يشبهه ؟ ما زال خائبًا خاسرًا مفتقرًا للإجابات, كان مُصر على أن هذا الرجل يشبه الآخر، مَن هو يا ترى؟ كلمات مختصرة تخرج:

ـ أنت حضرت فاقد الوعي من عدة أيام، نفس صناعي ومحلول في يدك، وأنت ما زلت لا تدرِ بمَن حولك، لم تنهض من فراشك إلا صباح اليوم، عليك بمراجعة حافظة أوراقك؛ عسى أن تجد مَن يهتم بك.

قصاصات من الورق كثيرة باهتة صفراء, أشار إليه صاحبه، أرقام تليفونات، أخذه من يده، لم يعترض من إتباعه عبر ردهات وحجرات وعنابر المرضى، فشلت محاولات عامل السويتش من تكرار طلب (نِمرّ) قُصاصة الورق، لا أحد يرد، ولا تأتِ إجابة، لم يشعر بالفشل في محاولة الاتصال، كما لم يتأثر بفقد صاحبه، اختفى في ثوان!

عاد إليه سؤاله، كم يشبه هذا الرجل؟ لا يجد إجابة!

جلس على فراشه، ما زال البيض المسلوق بجانبه، انتبه إلى ملاك الرحمة، بثوبها الأبيض وجسدها الأبيض وعيونها الزرقاء، لم يتأثر من النهاية، عليه الآن مغادرة المستشفى، سعد بمدى تأثر ملاك الرحمة بتقديم المعاونة، تحسس جيبه, أخرج من بنطاله النقود الورقية، لم يكتف بالنقود، أخرج من

بنطاله كسرة الخبز, كانت ابتسامتها خاتمة للوداع، كم تمنى أن يكون الوداع ساخن دافئ حار في حضن تلك الفاتنة الصغيرة! التقط البيض المسلوق وضعه في بنطاله مع كسرة الخبز، لم يلتفت إلى جاره بالفراش، تجاهله حتى بكلمة شكر أو وداع!

مر عبر بوابة المستشفى الحديدية، لا جنزير حديدي ولا حارس! حرية كاملة للخارج والداخل. لم يفلح في لملمة ذاكرته عن البوابة المغلقة بالجنزير والقفل والحارس أين كانت؟ حتى هذا الصاحب المُتابِع لخطوات خروجه من خلف النافذة، لم يهتم بنسيم شاطئ الكورنيش وحديقة الزعيم سعد زغلول، لن يسترح حتى يعرف مَن هو؟ وما تلك الأسماء "شريفة" "الملوم" "علي" "ثريا"؟ حتى الاسم الذي لُصِق به: "الطفي"؟ لم ينتظر أكثر من ذلك، أخرج حافظة النقود، راجع قصاصات الورق، قبض على أول خطوات البحث, عنوان ما زال مُحتفظ بثبات أحباره، شارع خالد بن الوليد، منزل الحلواني، شقة رقم واحد، الخالة نرجس.

قفز بترام الرمل، شعر بالارتياح، ذاكرته تعود إليه لكن ببطء، وأولها ترام الرمل وسيدي بشر وخالد بن الوليد، أما الخالة نرجس ما زالت بعيدة بعدد محطات الوصول إليها، والصبر حتى اللقاء، والجوع المُهاجِم لمعدته الخاوية، البيض

المسلوق وكسرة الخبز في بنطاله، لماذا في بنطاله؟! وما تلك الكسرة من الخبز؟ ولماذا يحتفظ بالبيض المسلوق؟

أزاح أسئلته، طوي صفحتها، كان ينظر إلى محطات الترام، تتواتر أمامه الإبراهيمية، كليوباترا، سيدي جابر، جليم ، سان ستيفانو، سابا باشا، أخيرًا سيدي بشر. هبط من الترام، التفت إلى الشارع المُنحدِر الواسع الطويل، لن يسأل عن منزل الحلواني وبيت الخالة نرجس، ترك الذاكرة تعود وتذهب به إلى غايته. عليه أن يتألم ويعاني هذه العودة الغائبة لذاكرته المفقودة.

ارتعش أمام هذا المنزل وهذه النوافذ المغلقة، الآن حانت الفرصة لبوابة حياته الهاربة أن تُفتح وتعود إليه، دقائق معدودة ويعرف مَن الخالة؟ ومَن هو؟ ومن "شريفة"؟ لم يصبر أكثر من ذلك، ضغط على زر الجرس، رنة واحدة، فشلت أصابعه في معاودة الضغط، مرت اللحظات كأنها ساعات، بل أيام وليالي، لم يشعر بالارتياح مع صوت فتح المزلاج، بل زادت دقات قلبه وانفلات أعصابه! ما هذا الوجه؟ ومَن تلك الفاتنة؟ مثل جميلات هوليود حبيبات فراشه ولياليه الخالية، الدنيا كلها تشارك فرحته باللقاء، هذا الوجه وهذه الفاتنة، لم تصمد أمامه، سقطت على الأرض مَغشيًا عليها!

* * *

الظلام ينسج خيوطه على الحجرات، نافذة الشارع الوحيدة مغلقة تكسوها الأتربة، رائحة هجر المكان تزكم الأنف، سكون المقابر يُكمل المشهد، لم يخلع حذاؤه العسكرية من قدميه، كان "علي" يتمنى أن بعد غيابه الذي طال بجبهة القنال يرى ولو القليل من الفرحة، لمة أسرته الحزينة مرة أخرى. لا أحد، الجميع غائب، أمه "شريفة" ووالده "لطفي" وشقيقه "لملوم". لم يفكر بالذهاب إلى شقيقته "ثريا" بمنزلها الجديد بشاطئ ميامي، كيسة نقوده لا تكفِ المواصلات وبعض الحلوى لأولادها، عليه الانتظار.

أمال جسده المنهك وعقله المشتت على أريكته، بين العودة إلى معسكره أو البحث عن غياب الأحبة أسدلت جفونه دهاليز الحيرة ومسرحه الصغير الفاقد لأبطال مسرحيته الحزينة، رحل مع النوم، صديقه الوفي. النوم، يحتضنه في كل الأمكنة، لا يفرق بين معسكر وبيت.

لم ينعم بالنوم، مزلاج الباب يتحرك، شاركت نبضات قلبه حركته، كان يتمنى أن يكون القادم أحد أحبابه: أمه "شريفة" أو "لطفي" أبوه. لم يخطر على باله أنه شقيقه "لملوم".

عَلِم بالمصيبة الكبرى، رفض كل مبررات "الملوم" لإقناعه بهذه الخطوة السوداء من التقدم للجندية وتأدية الخدمة الإلزامية، الآن لا مفر من الصبر وتحمل الأيام القادمة، ليس له وحده، لكن هو وشقيقه "الملوم"، لم يتحمل "علي" نبأ اختفاء أمه وأبوه في وقت واحد، كان على قناعة بإجابة "الملوم" بوجوده بمعسكر التجنيد، ولا حيلة له بالبحث عن والديه.

أزاح فكرة العودة إلى معسكره في نفس الليلة، خلع البيادة من قدميه، عليه البحث عن ملابس النوم، ومراقبته لشقيقه وهو يحضر وجبة العشاء.. كم اشتاق إليها في معسكره، الفلافل والفول المدمس والخبز الطازج وقطع الجزر واللفت والبصل المملح، كان يتمنى تكملة مشهد الإمتاع بأكواب الشاي، فاكهة الفقير كما ينعتها أبوه "لطفي"، اكتملت الفرحة، "الملوم" قادم بأكواب الشاي، ارتشف الشقيقان الشاي في صمت البكاء وفقدان الأحبة.

لم يخبر "الملوم" شقيقه برحلة صباح الغد، الذهاب معًا للخالة نرجس؛ عسى معرفة شيئًا عن إحدى والديه. نظر إلى رحيل شقيقه في سبات النوم, تَمدد هو الآخر على الأريكة الأخرى في غُرفتهم.. فكم عانى الصبر على شقيقه في شخير

كل يوم. تبدلت الأحوال، يتمنى أن يسمع الشخير كل يوم وليلة، لا يريد رحيله ولو ليلة واحدة.

* * *

تتكئ على عصاها، رحل كل شيء، صحتها وعنفوان بهجتها بالحياة والأمل، حتى بصيص النور ذهب، لا ترَ إلا الظلام يحوط بخطواتها المهتزة والمترددة في آن، حاسة السمع ما زالت معها لم ترحل كما رحل الآخرين.

أمسك "لطفي" بيد الخالة "نرجس" قبل أن تصطدم بالحائط، جلست بجانبه، كان حديثها مفتاح عودة الذاكرة إليه، عرف مَن هو، ومَن تلك المرأة الفاتنة بهزات أردافها تتحدى راقصات الطبل البلدي، إيقاع أردافها يغني ويشبع نظرات الرجال! "شريفة" حبيبة قلبه، أول مَن أشبعه بالحُب الحلال، أول مَن أهدته أولاده "ثريا" و"علي" و"لملوم". لم يشعر بالحرج وهو يُتابع حركاتها بين الغرف. الخالة لا ترَ شراهة نظراته المُتعطشة لأبواب الحب الكثيرة في امرأته "شريفة"!

مرت عليه ساعات الليل كأنها حلم لا يريد أن يغادره. أنهى احتساء كوب الشاي، ذاكرته في قمة الانتعاش، الآن تذكر صاحبه في المستشفى، كم عاونه في معرفة مَن هو، هو كثير

الشبه بصاحبه زميل عنبره بمستشفى الأمراض العقلية، صاحب النظارة السوداء، جامد الملامح، صاحب المقام العالي في إدارات الأمن، وكم تشبه بوابة خروجه من دار عودة الذاكرة بوابة عودته للحياة! الفارق هو الحارس والجنزير الحديدي. حاول بقدر ما يستطيع أن يغض الطرف عن صفحات غياب امرأته وفِعلتها المشئومة، عليه أن يخدعها بنسيان ما مضى من كل شيء، ابتسم إلى "شريفة", بادلته بثغرها السحري الملتهب في جميع الأوقات، التفت إلى الخالة "نرجس" وحديثها عن أولاده "ثريا" و"علي" و"لملوم". لم يفلح في إجابته. "علي" بالقوات المسلحة. سيبحث عن "لملوم" عند غروب شمس النهار، فما زال لم يتعافى من حرارة شمس حديقة الزعيم سعد زغلول، هدأت الخالة برد "شريفة":

ـ نعم عليه أن يتحاشى التعرض لحرارة الشمس، كفى ما نال منها.

استجاب للخالة، عليها الذهاب لغرفتها، أمسك "لطفي" بيدها اليمنى، شاركته "شريفة" في يدها اليسرى، كانا يؤمنان على دعوتها لهم بلم شمل العائلة.

سرح "لطفي" مع ذكرياته، تذكر ليلة زفافه، تخرج عليه "شريفة" من غرفة النوم بالقميص الحريري، تتحدى فاتنات هوليود حبيبات فراشه العفن الرطب في بيت أمه، همس:

- يا لها من ليلة! يا ترى، هل من عودة لتلك الليلة وعذوبة الحب؟

نظر إلى ساعته، ما زال من الوقت الكثير للخروج والبحث عن ولده "الملوم", انتبه إلى نظرات امرأته، يعرفها ويعرف كيف تغوص في أعماق ودهاليز عقله، اقتربت منه، بادلها الاقتراب، أجنحة الرغبة ترفرف، تُغرد، ترقص، يغني قلبه، يخرج من صميم أحشاؤه، صوت نجاة، نوجا حبيبته، يا هاجر بحبك يا هاجر بحبك، ما أحلى حنان حضنها الدافئ, ما أحلى رشفات ثغرها الحاني، ما أحلى وما أحلى، كلها حلوة ممتعة ساحرة, عاهرة بكل ما تحمل من حب, لم تشعر "شريفة" بحلاوة حب "لطفي"، سرحت في حب آخر، الحاج نجاتي صاحب المصبغة ومحاولته في الغور والقفز في صدرها المرمري النافر، ورجل الأمن الذي دارت مع دوران حبه، أنهت استمتاعها معه بالحب، بالليالي ببيت العاهرات في بيروت مع الرجل المهم.

نهضت "شريفة" مع دقات جرس الباب، اعتدل "لطفي" في جلسته المُفعمة بالحب ورائحته الفائحة بين طيات ملابسه، لم يستطع "الملوم" الصبر على اللقاء، ارتمى في حضن أمه "شريفة"، أسرع على في صدر "لطفي"، ارتعش قلب "لطفي"، ولده "علي" يتشمم ملابسه، أسرع "لطفي" بإخراج البيض المسلوق من بنطاله مع كسرة الخبز. ابتسمت "شريفة"، لن ينفضح أمرهما بين ولديها، رائحة البيض أنقذتهم من الحرج.

* * *

لم يعطِ ظهره له ولو لمرة واحدة، لا يشبع من النظر إليه، يحن إليه صيفًا وشتاءً، رماله البيضاء تضوي مع نور القمر, أمواجه تسبح في كل وقت، شاطئ الأنفوشي، جوهرة بحري التي لا تختفِ من على رؤوس أهله وأحبابه، الآن يودعه أحد مريديه وعُشاقه.

"الملوم"، لا يستطع الحراك أو النهوض من بين رماله، كان يتمنى الأنس بإحدى حبيباته، "ليلى" الخرساء أو "بيحة" حبيبته الغائبة غياب الموت، لا أثر لها، اختفت برحيل حبيبها الاسكافي بالمقابر، أصبح ذكرى، جثة محشورة بين المقابر، لم

يعثر عليها، يأس أهل الحارة وأهلها من العثور عليها، قلب "الملوم" ما زال ينبض إليها، يهمس إلى ماء الشاطئ يتمنى الإجابة! أين "بيحة" بشعرها الأصفر وجسدها النحيل وعيونها الخضراء؟

حاول أن يزيح حُبه المرمري الأبيض وطراوة صدرها الأبيض، فينوس زقاق بندقة الخرساء, ذهبت هي الأخرى، ذهاب لا رجعة فيه، لؤلؤة مدفونة بين المقابر، تركته بين آلام الرحيل وعذاب موتها على يد شقيقها، تأتِ بنهاية متعة الحب بينها وبين "الملوم"، الجالس الحائر بين وداع الشاطئ ووداع "بيحة" وفينوس!

كان يتمنى ألا يبرح الشاطئ، لكن حانت ساعة الوداع، فغدًا الرحيل إلى القاهرة مع زملاؤه العسكر لمركز التدريب بالجبل الأحمر، عرف سلاحه من شقيقه "علي"، سلاح الإشارة، سلاح الكعب العالي كما يُسمى هناك.

الآن بعد لم شمل أسرته مرة أخرى، يتمنى أن يُوزع تجنيده في حبيبته الإسكندرية، وعده "لطفي" بالمحاولة مع رؤساؤه بقاعدة رأس التين، دائمًا يتوددون له من أجل تلميع أثاث مكاتبهم، لم يترنح من ابتعاد خاله "صابر" في السعي هو الآخر, انكشف سر خاله:

ـ لماذا تريد الإسكندرية والقوات البحرية؟

تأتِ الإجابة:

ـ لتكملة تعليمي

يتبادل الخال النظرات مع امرأته، يترجمها "الملوم"، الخال لا يريد أن يتساوى أبناء شقيقته مع أبناؤه!

انتبه "الملوم" لصوت الشتائم والصياح بين الكبائن، "السيد النجرو"، فتوة بحري يترنح من احتساء الخمر، عجز بسيفه ومهارته في الدفاع عن نفسه أمام عصابة كرموز، حانت الفرصة لتنتقم منه شر انتقام، يُقطع على الشاطئ وبين الرمال! "بدر" الفتوة وعصابته، يغمسون سنان السيوف في أنحاء جسده النحيف، لم يقدر أحد على الاقتراب منه, ينتظرون بين لحظة وأخرى سقوطه على أرض المعركة, لا أحد من أهل حارته أو أصحابه يتواجد في ساحة القتل، الجميع اختفى! لا يستطيع "الملوم" التقدم بضع خطوات. ينتظر، عسى أن يرحل أشقياء كرموز من أمام الجثة التي في طريقها إلى الزوال!

"النجرو" شقي بحري، الآن تطوى صفحات حياته الممتلئة بكل مواقف الخير والشر في آن، ارتعش "الملوم" أمام نظرات فتوة كرموز "بدر", كانت ابتسامته تزأر كزئير الأسد، تجاهل "الملوم" نظرات تلك الابتسامة الشيطانية، انسحب مع

عصابته، تواروا خلف الكبائن، لم يدرِ "الملوم" ما العمل؟! لا حيلة له إلا أن يتقدم إلى "السيد النجرو" المكوم في دماؤه، خلع سترته، غطى بها هذا الجسد الراحل إلى العالم الذي رحلت إليه أغلى حبيباته, فينوس الخرساء، حبه الذي كان.

* * *

كم يشقى القلب، وكم تنوح العيون، وكم تشتاق الروح، وكم ساعة للانتظار تحت حرارة الشمس وعذاب الأعين الراصدة لها!

"شريفة" تتحمل كل تلك الرياح؛ في سبيل مشاهدة ولو نظرة واحدة لأحفادها أبناء ابنتها "ثريا"، في طريق العودة من مدارسهم.

ممنوع الاقتراب وتلاقِ البسمات، لم ترضى بموقف "لطفي" لتعفو عنها، حتى زوجها لم يعفو هو الآخر, ابنتها "ثريا" لم تتعلم منها كيف السبيل إلى إقناع الرجل وفتح شهيته إلى حبها الطازج الذي لا ينضب وجريان لعاب حبه الدافئ بالعفو والمغفرة، تابعت "شريفة" حارس المدرسة يعطِ أولاد ابنتها الحلوى والعلكة التي تعشقها حفيدتها "سلوى"، تتقاسم مع شقيقها الحلوى والعلكة، سعدت "شريفة"، الحفيدة تحن على

شقيقها الصغير، كم تشبهها الحفيدة مع شقيقها صابر، تحرم متعتها من مذاق الحلوى، يلتهما الشقيق، هي تنظر إليه تمتلئ بسعادة أكثر منه، الآن يعاد المشهد بين أحفادها، همست:

ـ يا هل ترى سيكتمل المشهد بتخلي شقيق سلوى كما فعل صابر معها؟!

كان عليها الصبر في تواري الأحفاد بين التلاميذ، أسرعت بتلاوة آيات الشكر لحارس المدرسة، لا يعرف سرها الشائن والمعيب من جراء عدم الالتقاء بأحفادها مباشرة، أقنعته بإجابتها: زوج ابنتها في ظن دائم أنها وراء مشاكله التي لا تنتهي بينه وبين امرأته!

الآن عليها البحث عن جارتها "أم حلويات"، رحلت هي الأخرى إلى منطقة سيدي بشر قبلي السكة الحديد, ابتعدت هي وأولادها عن الرياح العطرة بشاطئ الأنفوشي، أجبرت من أولادها بالطفو على سطح الأرض! كفى الحياة وراء شمس النهار وقمر الليل، البدروم، هو وزنزانات المعتقلات سواء, كما كان يسميها زوجها "لطفي"!

لم تعتمد على قصاصة العنوان، يكفيها عناء البحث، محلات العم موريس، بائع السجاد والمفروشات، صاحب دفتر البيع الآجل، "شريفة" و"أم حلويات" إحدى زبائنه بالأنفوشي،

هو الدليل لشقة "أم حلويات" الجديدة، انتبهت إلى اقترابها من المحلات، العم موريس ما زال يدخن النارجيلة، لا يتركها من فمه إلا بقدوم مَن يهتم به, لفظها من فمه أمام خطوات "شريفة"، أشار بيده، "أم حلويات" تتماسك بعدم القفز من النافذة لترحب بجارتها "شريفة" العاهرة!

* * *

الوداع، باي باي الإسكندرية حبيبتي.

تغنى قلبه بكلمات الوداع، لا متلصص ولا متصنت على هذا الحب المعذب مثله، يسمع أنين رناته: بلاش تفارق، بلاش تفارق، خليلك هنا خليك.

حاول "الملوم" أن يتماسك بين زملاؤه في سيارة الترحيلات من معسكر الحضرة، دقائق وتصل العربات إلى محطة سيدي جابر، التفت إلى آخر مشاهدة للحبيب وأمواجه العالية، تقفز فوق أسواره العالية، تتحداها، لا تريد رحيله، أشار إليها بأصابعه المهتزة مع اهتزاز سيارة الرحيل. التفت إلى بوابات المحطة، ظلام يرفرف عليها، تكشف عبوس ملامحها على هؤلاء المسافرين: فلذة أكبادك يا ماريا في

طريقهم إلى ليالي وسنين في كنف المجهول. التفت إلى زملاء دفعته بالجندية، بحت أصواتهم بأغاني الوداع:

- هون علينا هون، كرامة للنبي.. كرامة للنبي، هون علينا هون، كرامة للنبي.

لم يشارك في الصدح بالأغاني، كان عليه الحفاظ على كرامته في أيام خدمته العسكرية، لم يبخل عليه شقيقه في بيان ما له وما عليه بالجندية:

- إياك إن يسبك أحد، احرص على الطاعة، لا تمل من الأوامر، كلما أطعت، كلما ذهبت ورحلت عنك الأوامر.

اندس بين زملاؤه على رصيف الانتظار، لم يأتِ بعد قطار الترحيلات، راجع حقيبته بما تحمل من الأطعمة وأشياؤه الشخصية من ماكينة الحلاقة وفرشة أسنانه، راجع محفظة أوراقه، لم يجد تحقيق الشخصية! لا يعلم أين فقده؟! لم يتوتر لفقده، كان يكفيه بطاقة الجندية، هو الآن يغنيه ويحميه من أي شر يأتي من خارج معسكره ومدة خدمته. الحياة المدنية ألغيت بكل ما تحمل من جوارح وهبات، لم يتأثر بفقدان أحبابه في هذا الموقف، "شريفة" و"لطفي" أبواه لم يتأثرا برحيله، هو الآخر مثل شقيقه "علي".

انتبه لصوت القطار القادم، لم يكن قطار الرحيل, التفت إلى جموع الهابطين منه، لم يمل من فحص الوجوه، كان يتمنى أن يرى شقيقه بين العائدين، خابت آماله، تابع القطار المغادر لسيدي جابر إلى محطة مصر، نكس رأسه، لا حيلة ولا أمل في أن يودعه أحد.

التفت إلى القطار القادم، ها هو مُفرق الأحباب وهادم اللذات قطار الترحيلات، صعد وسط زحام زملاؤه، لم يتبرم من هذه العجالة في الصعود، كان يتمناها أيام غياب أحبابه أمه "شريفة" و"لطفي" والده، لكن الآن يحاول أن تتأخر الدنيا كلها في سبيل لحظات في أحضان حبيبته الإسكندرية، يتمنى أن تمتد الربع الساعة لقيام القطار إلى بضع ساعات، لا حيلة له إلا أن ينعم بنسيم الهواء القادم من ناحية شاطئ سيدي جابر، إنه يعرفه، ليس بغريب عنه، هو ساكن في صدره. الآن حان سواد الليل وقتامة المناظر، لا سبيل له إلا الصبر على الفراق، جحظت عيناه أمام نظرات زملاؤه، تتعلق رقابهم بالنظرة الأخيرة إلى الحبيبة الإسكندرية.

* * *

حان وقت الرحيل، كان ينتظر رحيل ولده "الملوم"، الآن الشقيقان في الجندية. لعبت الظروف واختلطت الأحوال، وها هو يقف مع امرأته "شريفة" للرحيل من سكن الحجاري وزقاق بندقة، الشاطئ ذهب في رحيله الأول، والآن رحيله الثاني إلى راغب المقر, لا يدرِ أهو المقر الأخير أم ما زالت هناك مقرات سيرحل إليها؟ كانت امرأته تشاركه السعادة خلاف رحيلهم الأول من الأنفوشي، هناك لا حشيش، لا تهتك وبيع في الأعراض والشرف، لا عاشقين للحب الحرام، لا نظر من خلف أخشاب نافذة العين الواحدة، ستفتح أبواب الشرفة على مصراعيها، سيطلق العنان للستائر تتمايل مع هواء النوافذ الكثيرة.

يحمد الظروف، الشارع خال من "أم حربي" بائعة المزاج، لا أحد بشارع الرحيل، حتى سعداوي السمكري رحل هو الآخر, الجميع رحل للمتعة ومشاهدة حفل أبو عاصم بطهور ابنه الوحيد، فناني الإسكندرية التقوا بحفل الطهور على رأسهم بدارة الإسكندرية بدرية السيد، هي نجمة اليوم.

التفت إلى سيارة النقل تحمل الأثاث والأمتعة، صعد مع امرأته بسيارة الأجرة، لم يقبل عتبات منزل الرحيل، لن ينظر إلى شرفة عاشقة المنجد، ينظر إلى امرأته، أطرافها ترتعش!

لم يفهم ماذا حل بها؟! أهي السعادة من المغادرة أم العودة والحنين إلى أخبار الجيران وهفهفة دخان مزاج "أم حربي"؟ التفت، "أم حربي" قادمة لوداع "شريفة"، لها كل الحق في الارتعاش والخوف من هذا اللقاء. لم تصبر "أم حربي" لنزول "شريفة"، دست جسدها بجانبها، التفت "الطفي" للسائق، ابتسامته تملأ وجهه، ناولته "أم حربي" مزاج كل يوم، سعدت "شريفة"، لفافة النقود تسقط في يدها، لم تتفوه بكلمات الشكر, ما عليها إلا الأحضان الساخنة والقبلات الحارة، كانت خطوات الوداع كافية لإنهاء ما بقى من الوقت، لم يلتفت "الطفي" إلى الخلف، إشارات امرأته بالوداع تعلن انتهاء مشاهد مسرح الحجاري.

* * *

الجبل الأحمر، الرمال بلون الدم جبال تسكنها البدلة الصفراء، هي الشريك الدائم لهذا المشهد, الهواء ساخن والشمس حارقة، ينتظر غروب الشمس بفارغ الصبر وانتهاء تدريبات الخطوة السريعة وللخلف در ولليمين لف ولليسار لف. لم يجد "الملوم" إجابة على جدوى تلك التدريبات؟ يعلم اليمين والشمال، حتى وقفة صفا وانتباه كان تعلمها في حصة

الفتوة أيام ناصر والضرب بالبندقية القديمة كما يسميها سلاح خفير الدرك. لم يرضى عن السلاح, رشاش بورسعيد إنتاج مصر ومصانعها الحربية، دقة بسيطة عليه دون قصد يفرغ ما في خزينته من طلقات! كان يحب طابور المذاكرة، دوائر كهرباء أجهزة اللاسلكي ترحل به من الأتربة وأوامر رقيب الصفا والانتباه إلى أصحابه بالأنفوشي وحديثهم عن مواد الدراسة، عرف الكثير من "ممس" زميله المعيد و"عاصم" ودوائر الكهرباء التي ميزته عن زملاؤه العسكر.

غروب الشمس المُنقذ اليومي من عذاب العسكرية، انسحب يجر جسده المنهك من أرض التدريب، تابع سير زملاؤه إلى دورات المياه، لم يعبر مثلهم، اتجه إلى مُتعته الليلية، أعلى الجبل، التفت إلى السماء، كم تشبه سماء حبيبته الإسكندرية، النجوم تزينها، لكن أين القمر؟! لا قمر ولا شاطئ ولا...، توقف عن السؤال.. تُقبل عليه فينوس حبه، "ليلى" الخرساء بابتسامتها الساحرة، لم يستطع الوقوف أو التحرك إليها، جسدها المرمري زاد جماله بردائها الشفاف، سحرته بضحكتها وثغرها الملتهب، كم يشتاق إلى ماؤه العذب. دار الجبل، تفرقت النجوم، تتلاشى، يرحل من دنياه إلى الصوت الحاني، يعود من جديد، عجز عن الاقتراب منها، مُحال أن يلمسها، محال أن يصعد معها إلى السماء، هي وحدها التي تأتِ والتي

تغيب، أسكرته بجمالها المكتمل وصوتها العذب، سيمفونية مياه تترقق على سطح الجبل.. ما عليه غير الإنصات والخشوع مع الركوع لفينوس حبه "ليلى" الخرساء:

ـ عزائي لك أكثر من مجرد عزاء، لا فرع شجرة، مجرد فرع شجرة، في لحظة جعلت مني ما أنا عليه، حبك مقدس برزخي محال أن أناله ولا حتى أنت تنوله، آه من فراقك وآلامه، لا شيء أكثر شهوة من الألم، هذا عذابي، وأنت أنت، فلا شيء أكثر إثارة من الإهانة، لا شيء أكثر إثارة من الإهانة..

سجد "الملوم" يبكِ و يرتل: لا شيء أكثر شهوة من الألم، ولا شيء أكثر إثارة من الإهانة.

* * *

بدأ مراجعة ما كتبه في محضر حادثة قتل فتوة كرموز "بدر" للسيد النجرو فتوة بحري بشاطئ الأنفوشي.

دنيا عجيبة! لم يكن يصدق أن يتلاقى مع صاحبه "لطفي" وولده "الملوم", في تلك الظروف من القتل، وجذب "الملوم" من معسكره، والتحقيق في كيفية وصول سترته على جسد المقتول

الفتوة بما تحمل من تحقيق شخصية مَن اشتبه به، "الملوم"، كانت كل الشبهات تحوم حوله.

كان المنقذ من الاتهام هو تقرير الطبيب الشرعي: لا توجد بصمات لـ"الملوم" على أداة القتل، السيف الذي وجد بجانب الجثة.

شعر بالسعادة لفكر "الملوم"، ذِكره لمشاهد التمرد والثورة التي يعشقها "الطفي"، كم يشبه "الملوم" أباه, إجابات بثقة واعية بما يحيط بها من التفوه بالاعتراف بالقتل، حاول عدة مرات المقارنة بين "الطفي" وولده "الملوم"، لم يجد الكثير من المقارنة، "الطفي" ينطلق في ثورته من أول خطوه في كلماته وأفعاله لوثة الانتحاريين أمواج بحر المرسي أبو العباس وخطابه السرمدي تحت أسوار قلعة قايتباي، وشقاؤه بين سنوات عمره، يمتلك ولده تلك الخطوات والأفعال لكن توجد نقطة فرق عن والده، خبرة كبيرة في المحاورة والردود المتزنة الواعية بما تحيطه من أحداث، توقف عن كتابة تقريره، متعه مشاهد "الطفي" زميله بين عنابر مستشفى الأعصاب، وولده الجندي "الملوم"، الأبيض الغض، حامل الكثير من جمال أمه "شريفة" وبصمات الحسب والنسب التي تحوطه بهالة من الاحترام، التفت إلى أوراق التحقيق، قلب

صفحاتها، اطمئن بسد أي ثغرات تشير في شبهة "الملوم" بقضية قتل "السيد النجرو" فتوة بحري، القاتل هو فتوة كرموز "بدر"، وقع "عبد الجبار" الصفحات بابتسامته التي لا تخرج إلا إلى مَن يُحب.

* * *

راغب، راغب، كم تشبه شارع محمد علي بالقاهرة، أصوات الفن تنبعث من كل بيت، في كل صباح، هناك بلابل مصر: عبد الغني السيد، وله يا وله. كارم محمود، إبراهيم حمودة، عبد المطلب، ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين، وهنا بلابل الشاطئ، عزت عوض الله، نوارة حارتنا، بدرية السيد، من فوق شواشي الدرة وبحيري يا واد بحيري، إبراهيم عبد الشفيع وعلي عليوة، وتفاحة وريري راقصات ملاهي محطة الرمل، كوكبة من الفن تُشبع من يعشق الليل ولياليه.

"شريفة" ومسكنها الجديد بجانب مقرات تلك الكوكبة، رحلت من ميدان المساجد والمرسي أبو العباس وسيدي ياقوت العرش وسيدي الأباصيري، أكابر الصوفية وقداسة السماء، رحلت برغبتها التي لا يقدر "لطفي" أو أحد على أن يصدها،

لم تكن لديها نية في العودة والبحث عن مسكن آخر بجانب شاطئها الفيروزي الأنفوشي، راغب بحواريها القديمة الضيقة كانت من أهم أسباب سعادة "شريفة"، في سهوله ويسر تمد يدها عبر النافذة، تأخذ من جارة المسكن المقابل "عنايات" كوب الشاي، الراقصة التائبة بعد ترهل جسدها وكثرة أولادها، كان عليها الانسحاب من العيون العطشى للجسد الملفوف، لا تجد المدح والإعجاب حتى من بني جنسها، "شريفة" تبرع في استعادة "عنايات" لمجدها الفائت من المدح والثناء، تسرع الجارة بأكواب الشاي، لا تمل "شريفة" من الحديث عن أهل الفن معها، لم تستطع صد باب الإثارة واللعب مع ذكريات "عنايات"، لم تمانع من تناول بدلة الرقص بعد ترددها ومروره كلمح البصر, كانت نظرات "عنايات" آمرة بما يكفي للانصياع بالأمر، حجرة نوم "شريفة" بعيدة بُعد الزمان بينها وبين بدلة الخلاعة والمجون وكشف ما تحاول الآن ستره، الجسد المترهل وتلك النهود المترامية والمقتربة من وسطها، هناك فرق شاسع بين أعلاها وأسفلها، أسفلها ما زال متماسك لا ينقصه إلا حوافر الفرسة المستعدة للسباق، عليها الاختيار المر والصعب في آن، نعم الراقصة "عنايات" أصبحت في توحد مع جسدها الذاهب إلى الزوال من جمال ودلال، لا مفر، عليها هي التحدي والمغامرة، لترى ما تفضحه أعين الراقصة

من مشاهدة لجسدها هي الأخرى. دقات الباب تقطع دقائق الانتظار بينها وبين الراقصة، رحلت هزات جسدها ودلاله بتلك البدلة الماجنة، جاءت "أم حلويات" منقذة "شريفة" الدائم في مواقفها السفلية والعلوية، كانت أحضانها ماكرة خبيثة، لم تتركها تجلس، أخذتها إلى غرفة النوم، لم تستطع "أم حلويات" صد شهيتها أمام البدلة اللعوب وما تحوي من ألوان الإثارة والشهوة، حاولت "شريفة" إخفاء بسمتها أمام جسد "أم حلويات"، عظام تكسوها القليل من اللحم الأحمر الرشيدي، بما يحمل من آثار الحملة الفرنسية، وجدتها "زبيدة" امرأة الغازي الفرنسي مينو، كم حكت لها عن جدتها وغرامها مع ذلك الفرنسي المفتون بجدتها، لم تستطع "أم حلويات" الفكاك من مشاهدة جسدها النحيف بالمرآة، غمرها احمرار جسدها المزيف لكل سنين عمرها، لم تصبر "عنايات" في الانتظار، قفزة واحدة من النافذة لتستقر في شقة "شريفة"، رنات الطبلة بيد "عنايات"، لم تفلت "أم حلويات" من إيقاعها، وسطها يهتز، صدرها يتأرجح، لم تقدر عن صده يمينًا وشمالًا، "شريفة" تغمرها السعادة، حفلة منتصف النهار، الهز والتأرجح يخدعهن بزوال الدقائق والساعات مع حرارة الهز والدق ورقصات "أم حلويات" وإبداعها بحركات تبهر "شريفة" والراقصة المعتزلة. توقف كل شيء من شقاوة

الإبداع. جلست "أم حلويات" القرفصاء، جامدة مثل حجارة المدافن، "شريفة" اختفت وراء باب غرفتها، أسرعت "عنايات" بالقفز إلى شرفة منزلها، لم تهتم بسقوط الطبلة محطمة تحت أقدام "لطفي"!

* * *

لم يتردد في الذهاب إليه، يعرف مدى صمته ووقفته، يستقبل رواده وعاشقيه، لا يسمع صوته إلا مَن يجالسه ويتحاور معه، ساحته معدة لاستقبال كل مَن يريده، خضراء ناعمة مثل نظراته لمريديه وعاشقيه، "لطفي" من أوائل الصاعدين للقاء، تذكر كان بالأمس القريب يشكو "شريفة" إليه، الآن يحمل شكواه إلى الزعيم سعد زغلول، تجاهل نظرات المرأة وغصني الزيتون، يعرف كم تكرهه وتسعى لصده عن تلك المقابلة، لم تكتف بعذاب الماضي تحت أقدامها وحرارة الشمس وغياب ذاكرته وشكوى حبيبته "شريفة"، كان يتمنى إزالتها من تحت أقدام الزعيم سعد، هي حاقدة على أمثاله، تتغنى بما ترى من شكوى أمثاله من الرجال، الآن عليه أن يوصل شكواه إلى مَن يحبه ويستمع ويلتفت إليه، مثلما كان يلتف حوله أصحابه بالماضي القريب، منهم مَن مات، ومنهم

من سجن، ومنهم مَن ما زال يحلم بعودة أيامه ولياليه وجهاده أمام الملك وحاشيته من الانجليز.

لغة السكون تشكو حبيبته "شريفة" وأفعالها التي ما زالت في مراحل التطوير والانبطاح في ظلمة التنعم بكل ما يحلو لها دون ضابط ولا رقيب! ما زالت تصر على خضرة عمرها وألاعيبه، غير مكترثة بمَن حولها، وأولهم هو وأبناؤه "الملوم" و"علي" و"ثريا"، نعم ما زالوا في قناعة بالجلوس تحت أقدامها والتنعم في حنانها وعطفها. أطال مع الزعيم حوار الصمت ولغة العيون، لم يشكو أكثر من ذلك، عليه الاكتفاء بما أورد من شكواه إلى زعيمه وقائده وملهمه سعد زغلول، كانت الإجابة واضحة صريحة فاصلة في الأمر.

هبط "لطفي" درجات الزعيم، التفت إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، لم تعجبه ابتسامتها الماكرة، لم يستطع فك شفرتها ومعرفة هل عرفت بما يجب فعله مع امرأته "شريفة"، أصبح همه همان: هَم امرأته وهَم توصية الزعيم بالمقابلة العاجلة مع ابنته "ثريا" والشكوى من أحوال أمها.

لم يفكر بالانتقال إلى كورنيش محطة الرمل، عليه الاتجاه إلى ترام الرمل، تحسس بنطاله، ما زالت كسرة الخبز قابعة في جيبه، عليه الآن بمضغ القليل منها لحين الوصول إلى

محطة ابنته، مساكن الرمل الراقية تحوط بها حدائق الورد وعلامات الطريق من النخيل، كان في راحة بلقاء "ثريا" في هذا الوقت، لا أحد من أبنائها بالبيت، الجميع في مدارسهم، وزوجها في أوج شهرته وتألقه بعمله ومنصبه الكبير, حاكم وآمر لكل مَن يُحيط به من زملاء العمل.

لم يتردد في فتح باب الشقة غير المغلق، لم يشعر أحد بدخوله، حاول بقدر ما يستطيع ألا تسمع خطواته، اهتزت أطرافه بما يسمع من آهات النشوى واللذة، الدنيا كلها تدور من حوله، الظلام يحتله من كل جانب، ابنته "ثريا" يمتطيها خادم زوجها! الخادم الوفي ينظفها من أتربة الشهوة، كما نظف أمتعة البيت من الأتربة!

لم يستطع السيطرة على ارتعاش أقدامه، لا تقدر على حمله حتى ولو خطوات الخروج والانسحاب إلى باب الشقة، حاول بقدر ما يستطيع من الهدوء, الفرار والعودة من حيث أتى!

* * *

حاول أن يذهب إلى حبيبته الإسكندرية، حافظة نقوده فارغة كما هي عادتها دائمًا، عدة قروش تعبر به من معسكره بالجبل الأحمر إلى العباسية ثم إلى حي السيدة زينب، بالكاد

تكفيه، لا حيلة له غير أن يرحل من معسكر مقطوع عنه المياه أكثر من أسبوع، لا توجد مياه غير حسوات قليلة يروي بها عطشه.

سكن صديق حارته "عز" بشارع السد بالسيدة زينب، هو منقذ "الملوم" من عَفن جسده وملابس الجندية المتسخة. لم تنقطع صداقته بـ"عز" حتى بعد فراق كل منهما, "عز" بدراسته بجامعة الأزهر، وهو بتأدية الخدمة العسكرية. شاء القدر أن يلتقيا مرة ثانية بالقاهرة.

لم يدرك "الملوم" حالة غابت عن خاطره، عدم وجود "عز" بالمنزل، فاليوم الخميس يرحل "عز" وزملاؤه بالشقة كلٌ إلى محافظته للتزود بالمال والطعام، ثم العودة إلى القاهرة يوم السبت. لا فرصة له بأحد الفنادق الشعبية بحي السيدة زينب، عليه مواصلة خطواته إلى منزل "عز"، لم يقف كثيرًا أمام الباب، السعادة تنعش أمله في الاستحمام والتنظيف وغسل ملابس الجندية. أصوات تأتِ من الداخل! لم تكن أصوات مذياع، هي أصوات رجل يغني ويمرح بصوت أقدامه! لم يتأخر الفتح بعد بضع دقات على الباب، لم يكن صديقه "عز"! بل أحد أقاربه مثله بالعسكرية، متطوع ويحمل شرائط الرتبة

على كتفيه، اطمأن "الملوم"، قريب "عز" يعرفه معرفة جيدة، كما كان هناك تلاقي بينهما بالحارة في الإسكندرية.

استمع "الملوم" لنصائحه، لم يتبرم، فقد سمعها من قبل من شقيقه "علي"، لكن عليه الإنصات مرة أخرى تأدبًا مع هذا الرفيق، كرم الريف كم هو واضح في معاملته، الملابس المدنية تُقدم له بعد الاستحمام، والعشاء معًا، ثم الذهاب وقضاء سهرة المساء بالمقهى بجانب المشيرة العفيفة السفيرة، السيدة زينب. حاول الاعتذار عن تلك الجلسة وتناول المشروبات مع رفيق عسكريته، لم يفلح، مراسم الريف تطغى بسخاء عليه، لم تنقطع إلا حين استئذانه لعمل بعض مصالحه الشخصية. التفت "الملوم" إليه وهو يعطِ أوامره لنادل المقهى بإجابة طلباته حتى عودته إليه، تابع "الملوم" ذهاب صاحبه، طلب كوب من الكاكاو السادة يُصاحب ارتشافه الاستماع لكوكب الشرق السيدة أم كلثوم، أغانيها المحببة إليه، كم اشتاق إلى تلك الجلسة، وإلى ذلك الاستمتاع، وإلى سعادته بخلو طاولته من رفيق.

* * *

جلس بين زملاؤه في الساحة الرئيسية بمركز التدريب بالجبل الأحمر، اليوم هو يوم الحظ كما يطلق عليه في تلك

اللحظات، التوزيع لأفراد العسكر بعد انتهاء فترة تدريب السلاح.

ألغى "الملوم"، أحلامه وطموحاته في التوزيع بالإسكندرية حبيبته، أبوه "لطفي" لم يفلح في وعد من قادته بقاعدة راس التين لتوزيعه حتى في أقرب مكان قُرب الإسكندرية، خاله "صابر" كان رده فوري عند ذهاب شقيقته "ثريا" إلى عمله ومحاولة توصيتها عليه لتوزيعه بالإسكندرية، رد جاف وقاس وإجابة يشع منها عدم التعاون ولو بالمحاولة، الآن لا مفر من انتظار مكان إكمال مده تجنيده.

التفت "الملوم" إلى سماع اسمه، لم يتأخر في رفع يده، يريد أن ينهي عذاب الانتظار، حاول أن يتماسك، الجيش الثالث بالسويس، منطقة الجفرة، أشار إليه المندوب بإتباعه، حمل متاعه العسكري من مَلبس وأغطية ومستلزمات الطعام وأدواته الشخصية لقص الأظافر والحلق، كان مستعدًا للرحيل، هكذا نصحه رفيقه بالسيدة زينب وشقيقه "علي"، لم يطمئن للمندوب عندما عَلم بفراغ حافظة نقوده وتأدية تكاليف المواصلات حتى ولو إلى محطة قطارات السويس، عليه الصبر مع تلك الرتبة المستلمة له، وحرارة الشمس التي لم يتحملها المندوب والسير معه إلى أقرب محطة نقل عام، لم يتأخر بمد يده لمعرفة هل

يحمل في أصابعه ذهب أو فضة؟ كانت تلك المحاولة الأخيرة من المندوب قبل الصعود بالسيارة إلى محطة رمسيس. شعر "الملوم" بنظرات الركاب، بمدى تعاطفهم معه، وذلك الحمل الكبير على كتفه من مهمات الجندية.. لم يمر الوقت سريعًا, كان يشعر بعقارب الساعة تسير في رتابة وكسل وتردد في قطع الثواني والدقائق، لم يرحمه المندوب من السير بخطوات سريعة في اتجاه محطة قطارات السويس، عليه اللحاق به بدون التأوه أو الشكوى من مهماته أو الإبطاء.

انتبه "الملوم" لحديث مَن يرافقه إلى معسكره، لن يُرافقه، عليه الوصول دون رفيق غير ذلك الخطاب بتسليم نفسه إلى وحدته بالجفرة، لم يفهم غير تلك الخطوات المبهمة غريبة المعالم! التفت إليه يريد أن يحدثه بكيفية الوصول، لم يهتم بسؤاله، تركه وانصرف خارجًا من المحطة يتابعه "الملوم" بنظرات الغل والانتقام ولو بعد حين.

لم تمر دقائق، امتلأ القطار بالعسكر أمثاله، كانت نظرات الوداع من نافذة القطار نهاية لمشاهد المدينة وأناسها في آخر لحظات مغادرة القطار للقاهرة.

* * *

لم يفلح في صد هياج تلك اللعنة التي هبطت عليه من حيث لا يدرِ!

أين يذهب؟ وإلى مَن يتجه؟! لا سبيل إلى الشكوى لأقرب الناس إليه، امرأته "شريفة"، وأفعالها المعيبة لسنها وأولادها! شقيقها صابر هو الآخر يسبح في بحر الملذات من أوكار السُكر والمجون والخلاعة، بل والزنا!

الزنا الذي حَل بمُن يُحبها ويعشقها! تلك التي رباها وأسعدها وضحى من أجلها بأكثر مما يستطيع! كلفته الكثير من ذل الأيام وشقاء الحياة والبُعد عن كل ملذات السعادة والترفه والصعود إلى درجة من درجات البُعد عن مشاهد الفقر ولو للحظات، ما العمل مع ابنته "ثريا" وما شاهده من زنا؟ ومع مَن؟! الخادم! لا يدرِ إلى أين يذهب؟!

أبواب الحل كلها مغلقة، أزاح فكرة قتلها أو إنزال أشد العقاب عليها من الضرب والسب، تصبح المصيبة مصيبتان، الزنا وإلصاق العار بأبنائها! لم يقصر في تربيتها، حتى "شريفة" كانت تحرص على حماية ابنتها من براثن الوقوع في الرزيلة، لكن هي نفسها كانت بوابة دخول ابنتها "ثريا" في طريق الزنا! بفعلتها المشئومة من رحلة لبنان وما جرت عليها من عار ألصق بها! هو ما زال يغض الطرف عن فعلتها،

رجحت كفة حبه لها، لكن لم يستطع شطبها من تواريخ حياتها المليئة بالإثارة والشهوة.

انتبه إلى زوج "ثريا"، هو الآخر فتح الأبواب لـ"ثريا" على مصراعيها، وصلت به الدياسة أن يترك امرأته مع رجل في مكان مُغلق به كل الأمان في عمل ما تريد دون رقيب ولا محاسب! حتى وإن كان الخادم المطيع المطأطأ الرأس في المسح والكنس وتنظيف دورات المياه!

شعر بالارتياح، زوجها هو المسئول الأول والأخير في ضياع شرفه.

لم يشعر بانقضاء كل ذلك الوقت والتفكير في مصائبه التي ما زالت خطواتها تلازمه وتسير معه حيثما كان! قدماه تشتكِ له من كثرة السير في طرقات وحواري الإسكندرية، كان يظن أن تلك الأماكن تُنسيه ما حل به من متاعب، السيالة، سوق الميدان، سوق راتب، العطارين، محطة مصر، زنقة الستات، شارع فرنسا، حارة اليهود، مكان عمله القديم، جميعها لم تُنحي ما يدور برأسه المتعبة، وهمومه المتراكمة.

التفت إلى ما يُذهب العقل والدين ويأتِ بالخراب: خمارة "شيخو" بالمنشية، كم هي جميلة أنيقة هادئة بأنوارها الخافتة وسكون روادها، هي ملتقى للمزاج والسُكر في آن، نعم أسعار

كاساتها غالي الثمن، جلسة باهظة التكاليف، لا يستطيع الاقتراب أو الدخول، لم يعتاد التسول ولو حتى في داخل تلك الخمارة وهؤلاء الزبائن، أكثرهم من فناني مصر، يزحمونها في أوقات المصيف، ساعات التهيؤ ورفع درجات المزاج قبل رفع الستار بما يقدمونه فوق خشبة مسارح الإسكندرية، لم يدرِ بموقفه من هذه الخمور وخمارتها أمام ماخور السمكري بمدخل العمارة المتهالكة في سوق الميدان في بحري، أكواز الصفيح الممتلئة بمشروب منقوع البراطيش كما يسميه رواده, أسعار في متناول الجميع، كوز كامل، نصف كوز، ربع كوز، خمارة السمكري سُمعته جيدة عن الخمرة الزائفة! التي نهايتها العمى لمتناولها! هو يفتخر بين أهل الحارة ومريديه بجودة خموره! ندر نفسه في بيع خمرة لا تؤدي إلى العمى! يكفِ فقد بصره بخمرة بلبل بائع المخللات من الليمون والخيار والبصل المعتق ومن ضمنها الخمرة المغشوشة! لا يقترب منه أهل راس التين وبحري والجمرك وحارة اليهود إلا في وقت وشهر القداسة رمضان، طوابير المخللات على أشدها في ساعات النهار، يتمايل هو وابنته البيضاء، ملفوفة الجسد حاضرة الدلع والهز والغمز، ولا مانع من اللمس حتى في نهار ليالي الشهر الكريم، التفت إلى مخرج خمارة شيخو، يا له من حظ! صاحبه وصديقه وزميل عنبره بمستشفى الأمراض العصبية صاحب

النظارة السوداء جامد الملامح بطيء الكلمات! همس "لطفي" في حزن وضبابية أيامه:

- حتى انت يا صاحبي؟!

أسرع إليه، يتمنى اللحاق به قبل أن يصعد إلى سيارته، نظر إليه في حالة من الغضب والتأفف من منظره، دس في يده بضع جنيهات! أسرع بالرحيل، لم يترنح "لطفي" من جفاء اللقاء وسقوط النقود في يده، فهو يعرف تصرفات صاحب النظارة السوداء جامد الملامح بطيء الكلمات، غدًا سينتظره دون موعد على باب بوابة السُكر، خمارة شيخو، قبل أن تلعب الخمر برأسه.

* * *

كان عليه الانتظار على حافة الطريق الإسفلت، لابد من الانتظار والترقب، فالغالية في طريقها إليه، شريحة اللحم القادمة مع سيارة تموين المعسكر اليومية، التم شمله مع زملاؤه بالمعسكر، كلهم "أبو اسكندر"، كلمة مشهورة تطلق على كل جنود حبيبته الإسكندرية، لا يغلب عليهم أمر، يصبرون على أوامر القادة، متحفزين دائمًا لعمل ما يحلوا لهم في منطقة الجفرة، ومنها تلك المحاولة، كلما صعد أحدهم

لسيارة إحضار تموين المعسكر من اللحم والأرز والبقوليات والجبن والخبز، يتولى أحد أصحابه من مجموعة "أبو اسكندر" الانتظار على الطريق لالتقاط قطعة اللحم والعودة بها إلى ثكنته تحت الأرض.

انتبه "لملوم"، السيارة قادمة، قذفت على الإسفلت قطعة اللحم! لم يسرع "لملوم" إليها، انتظر حتى تبتعد السيارة، ثم هجم عليها قبل أن تلتقطها الكلاب الضالة أو أحد المارين بالطريق، السعادة تغمره، صاحبه بالسيارة ماهر في تقطيع اللحم بهذه الكمية الكبيرة، أكثر من اثنين من الكيلوات، كما أنها حمراء قليلة الدهن، الخبرة والمكان لهما عامل كبير في تقطيع صاحبه اللحم فوق السيارة، هو من جبل ناعسة بكرموز، ماهر في التقطيع بالمدية قرن الغزال في العراك وأيضًا في قَطع اللحم أو تقطيع الحشيش!

التفت، لا أحد يراه، عليه الإسراع وإشعال موقد الكيروسين، وتهيئة الطعام له ولأصحابه وإنضاج اللحم الأحمر, اكتسب الخبرة في لحوم العسكرية، تحتاج لأكثر من ثلاث ساعات أو أكثر، حتى تقدر الأسنان على مضغها وبلعها! اطمئن، الخبز يكفِ مع كمية اللحم له ولزملائه الأربعة، كما

أن اليوم الخميس وغدًا أجازة من التدريبات، لا عمل إلا لأصحاب الخدمة الليلية والنهارية من الحراسة.

ما زال من الوقت الكثير في إنضاج اللحم وعودة زملاؤه. أعاد ترتيب المائدة، حاول أن يسترح، أغلق باب الملجأ المدفون تحت الرمال، أغلق النافذة الصغيرة، لا يريد أن تصل رائحة اللحم إلى المارة، لم تزل هناك خطوة واحدة؛ الذهاب إلى عنبر الخدمة الطبية؛ لاستكمال ليلتهم الملتهبة! حاول الالتفاف من وراء ثكنات قائد الكتيبة، فهي أقرب مكان للوصول إلى غايته، استلم من زميله "أبو اسكندر" عبوة الكحول الأبيض، لم ينسى المرور على مقصف سريته، تناول قوارير الصودا المثلجة، الآن كل شيء مُعد لليلتهم المشتعلة باللحم والمزاج العالي من الكحول المخلوط بالصودا المثلجة، ليلة سُكر ولحم ولعب القمار، كشف عن اللحم، ما زال في سبيل النضج، الساعة تقترب من الخامسة مساءً، وقت انتهاء المهام وجمع صحبة ليلة الجمعة.

* * *

لم ينجذب إلى أمواجه، ينفر من حجارة شواطئه، لا توجد رائحة لهوائه المعطر باليود، خال من مظلات الشاطئ، لا

توجد أجساده الناعمة الغضة المبتلة والملتصقة الفاضحة لمفاتن الجميع من الرجال والنساء! وما أكثرهن في شاطئ حبيبته الإسكندرية!

هنا لا توجد أي صفة من صفات شاطئ الأنفوشي، لا يوجد حوله إلا زملاء معسكره، شاطئ جنيفة بالسويس، حيث المقر الجديد لمعسكره، الجميع يستحم، ليس للتمتع، لكن لإزالة الأتربة وغسل ما عفن من جوارب وملابس الليل والنهار.

وقف "الملوم" مُنتشيًا أمام ما جمعه من قواقع البحر، مميزة كبيرة، قواقع تسخر وتهزأ بقواقع بحر الأنفوشي! عليه الآن إعداد هذه الوجبة الشهية لـ"أبو اسكندر"، هُم وحدهم يعرفون قدر تلك الوجبة، لم يفكر في إحضار الكحول الأبيض والصودا المثلجة ليكتمل السُكر والعربدة كما كان في الجفرة.

الآن مشاريع وتدريبات فِرقته متواصلة، ما أن ينتهي تدريب إلا ويأتِ تدريب آخر وفي مكان آخر ثم العودة، الجميع أصبح يقظ في كل شيء، القادة أصحاب الأكتاف المحملة بالنجوم والنسور أول من يقف في صفوف الصلاة وفي وقتها! بل وصل الحال إلى قدوم دعاة، لا تمر جمعة إلا ويحضر مَن يعظ ويذكر ويُجيب، مشاهد لم يَتعود عليها "الملوم" وزملاؤه العسكر، القبعات والرُتب لا وجود لها، تساوت الرؤوس،

أوامر تنفذ بحب وبجدية، فرق كبير بين الماضي والحاضر في كل شيء، لم يتراخى عن تنفيذ الرحيل مع كتيبته إلى مكان آخر.

الآن عليه ترك القواقع وخلطة الزيت والليمون يُنحيها جانبًا؛ عسى أن يأتِ مَن له نصيب في تناولها, صعد عربة اللاسلكي، هو الحكم دار وقائد تلك المركبة بما تحمل من أجهزة، هي من أهم أسباب ترقيته إلى عريف، كتفه مُحملة بالأشرطة التي يتباهى بها عند نزوله إلى حبيبته الإسكندرية.

الآن عليهم التقدم باتجاه مثلث السويس، الصحراء أفقدته كثير من الأحاسيس، لا حُب ولا شيء من أشياؤه الخاصة تصاحبه في ذلك الركب من كل معدات القتال، لا وجود للحبيبة الغائبة "بيحة" ذات الجسد النحيل والشعر الأصفر، لا همسات من الراحلة الخرساء تأتيه تؤانسه في تلك الليالي، يستمع إليها وتقترب منه، تشعل نار حبه وهيامه بها، فينوس الخرساء. تجرد من ممتلكاته الخاصة، لا وقت للحب إلا إلى اليقظة مع الأوامر والتدريبات، لم يلتفت إلى اقتراب شهر الصوم، هو على بُعد أيام قليلة.

التفت "الملوم" إلى زملاء طاقمه اللاسلكي نيام في أركان السيارة، أما هو فما زال في يقظة الطريق وهبوط الليل. انتبه

إلى توقف رتل السيارات، أُعلن الخبر المفجع، الرتل دخل في حقل ألغام، كانت الأوامر صارمة:

ـ لا أحد ينزل من السيارات، لا أحد يطأ بقدمه سطح الأرض، على الجميع الانتظار للخطوة القادمة.

اهتز لمشهد قائد الكتيبة، يرتعش، لا عتاب في تلك اللحظة، لم يسمع كلمة عتاب لسائقي الركب: كلمة واحدة وأمر واحد: لا تلتف السيارات، عليها أن تعود بظهرها.

الجميع يحبس أنفاسه، تهتز الأفواه بتلاوة الدعوات، مع شحوب للوجوه! لم يشعر "الملوم" بخطورة الموقف، ذهب إلى مكان آخر، الاقتراب من الموت والموتى، رائحة الموت تحوم حول الجميع، هبت عليه رائحته التي يعشقها وينتظر همسها، "ليلى" الخرساء تدنو إليه، تبتسم له، ما زالت بردائها الأبيض الشفاف، يشع نور جسدها الأبيض المرمري، كم يشتاق إليه، يتمنى أن يُداعبه كما في الماضي القريب على درجات السلم أو على رمال شاطئ الأنفوشي وبين الكبائن أو مقاعد السينما، لا حيلة له إلا أن يُمتع عينيه بمشهدها الطاغي في جمال كل شيء، رحل من الصحراء، تلاشى ركب السيارات! لا عسكر ولا أوامر، لا شيء! شيء واحد يصاحبهـ فينوس حبه ولهيب جسدها ونظراتها المشتعلة بنار الحب.

انتبه إلى صوت التكبيرات بالله أكبر، الحمد لله. لم يسعد بخبر الخروج من حقل الألغام، اهتز لانفجار لغم حبه، يهتز قلبه يترنح من صدمة الفِراق، فراق الحب الذي ما زال مُفارق أحلامه الغائبة.

* * *

نظرت إلى الشاطئ، لم يلفظ ليله الأسود، هدوء يسكن أمواجه، لا أحد يفترشه, مشهد لم تألفه "شريفة" من قبل، كان في الماضي القريب يأنس برواده وهي وأولادها "ثريا" و"لملوم" و"علي"، رواده يشاركونها في غياب أحبابها بالقوات المسلحة، لا وجود لهم برماله البيضاء.

لم تعترض على الرحيل مرة أخرى إلى الشاطئ، الأنفوشي تمتلك قلب حبيبها "لطفي"، أصر - هو الآن الآمر الناهي - على العودة إلى شاطئ الأنفوشي، لم تحزن بغيابها عن حي راغب بأغانيه وراقصاته.

"عنايات" هي أول درجات فرارها من راغب، كانت في نهاية خطواتها لاحتراف الرقص وهز الوسط والنزول إلى ساحة الأفراح والليالي الملاح. شعر "لطفي" بمؤامرة الراقصة "عنايات" في استغلال امرأته، والتربح من وراءها، كان الحل

هو الفرار والعودة إلى الأنفوشي، المنزل الجديد والشرفة الواسعة المطلة على الشاطئ من أهم أسباب الرضا بالرحيل والعودة، نعم الحجرات صغيرة، كم تشبه كبائن الشاطئ، لم تشعر بضيق المكان، غياب أولادها بالجندية، أغلق أبواب التذمر من حجراتها الصغيرة. لم تتوافق أجازات أبناءها في الحضور في وقت واحد، يأتِ "علي" ويرحل، عدة أيام ويحضر "الملوم" ثم يرحل.

انسحبت من الشرفة أمام برودة الهواء وهبوط الليل وسكون الشاطئ، دلفت إلى حجرة النوم، "لطفي" يغط في نومه العميق وشخيره المتنامي مع مرور عمره، لم ترغب في مشاهدة التلفاز، يكفِ ما تجتره من صندوق ذكرياتها.

الخالة "نرجس" تأتِ في زيارات قليلة خلال شهور الصيف أو الشتاء، نعم تأتِ بمُرافق يصحبها إلى البيت. كم عنفتها "شريفة" من قسوة قلبها أمام أبناءها "علي" و"الملوم"، تدعو لأبناء شقيقها "صابر" فقط، أما أبناءها الواقفين على خط النار، لا دعاء ولا ذكر لهم بكلمة تجبر بها غيابهم عنها، تُذكّر الخالة بهم عسى أن تدعو لهم، لا فائدة! تنفر منها "شريفة"، لا ترحب بها الترحاب اللائق بسِنها وفقدان بصرها، الآن لا تأتِ الخالة، منذ أكثر من ستة أشهر لم تحضر إليها.

أخوها "صابر" رفعت الدنيا قدره، ينقل عمله بالمخابرات أولاده إلى عز ورفاهية، هم أيضًا لا يأتون لزيارة عمتهم أو السؤال عن أبناءها، "صابر" شقيقها يصعد على مفاتن شقيقة امرأته الراقصة ذات الصيت الواسع في ردهات المخابرات، تعتلي به على رقصات واحدة ونص وهز الوسط وعرق اللذة والشهوة، الطعام الشهي لهؤلاء المتجبرين المتكبرين على كل ما هو شريف، يتأرجح "صابر" بين رياح الشهوة والمنصب العالي، حتى وإن كان على أكتاف الراقصة "لولا".

فرق شاسع بينها وبين الراقصة "عنايات"، راقصة الطبقة الكادحة من الصناع وبائعي الشوارع والطرقات، لم تلتفت "عنايات" لجسدها في أوج أناقته وروعة رقصاتها في الوصول إلى أولئك القوم، يا لها من طيبة "عنايات"، ترضى بالهز والرقص فقط دون الغور في الثراء ومتاهاته المُهلِكة. "عنايات" كانت حذرة في الوقوع مثلها مع رجل الأمن وخطواته النجسة، والعار الذي لحق بها وما زال مُتعلق بأيامها ولياليها، لم تقدر من شطبه ومَحوه من ذاكرتها المعذبة بين ألم الزنا والتعامل مع هؤلاء القوم الفارين من رحمة السماء.

التفتت إلى ساعة الحائط، حان الوقت لإعداد وجبة السحور لمَن صبر على شقاوتها ولعبها، حبيبها "الطفي".

* * *

الغروب على بُعد دقائق وينطلق مدفع الإفطار، لم تأتِ عربة الطعام بعد كما تعودوا، تأتِ متأخرة بالساعات! حانت الآن خطوات البحث عن أي شيء، احتفاء بغروب الشمس ونهاية يوم من شهر الصيام.

التفت "لملوم" إلى زملاؤه يُتسابقون إلى أكوام بقايا طعام سرية الجيش الجزائري الملاصقة لمعسكرهم، جاءوا للمعاونة في حرب التحرير، سيناء، رجال بمعنى الكلمة، لا يَخشون الهجوم اليومي من الطائرات الإسرائيلية، هنا فارق كبير بينهم وبين رجال عسكر الخليج بالجانب الآخر من جبهة القتال الذين تهتز أطرافهم، يدعون على مليكهم! كلمات مضحكة تخرج من أفواههم، هذه حرب بحق وحقيقي، دائمًا يختبئون داخل الملاجئ تحت الأرض.

قبض "لملوم" على علبة السردين الصفيح من داخل أكوام ما بقى من طعام رجال الجزائر. الآن عليه البحث عن شيئان، كسرة من الخبز، وكيف يفتح تلك العلبة؟ خاب أمله! لم يجد شيء من كسرات الخبز، لم يغلب في فتح العلبة، قطعة الحصى المدببة هي خير فاتح لها، لم يصبر على إزاحة بقية

الغطاء، التهم قِطع السردين، لا ملح ولا خبز ولا طعام جاء! تأخر في هذا اليوم الكئيب.

لم تأتِ عربات التعيين أو المياه، لم يُبادر أحد العسكر بالسب والعتاب، كانت سلواهم فيما مضى من الأيام الماضية، طعام يأتِ في موعده مع غروب الشمس، وزوال الطائرات المغيرة لا حيلة لها أمام منصات الصواريخ المصرية وما تفعله من جودة الإصابة، يصرخ الجنود طائرة تسقط في الشمال، وأخرى تسقط وسط الكتائب، التكبيرات لم تنقطع طوال الأيام الماضية مع فرحة الجنود بالنصر والذي في طريقه للاكتمال.

الآن خاب ظنهم! الحزن وألام الهزيمة تحوم فوقهم، منصات الصواريخ تتلاشى من على الأرض، محاولات بناء أخرى باءت بالفشل، تُضرب من الطيران المغير, يفقد الكثير من بنائين أهل الصعيد وسط المنصات! أخبار تراجع القوات المصرية من سيناء تؤكده أطياف الجنود العائدين، مسحة الانكسار والهزيمة تسيطر على العائدين، الملابس ممزقة، لا توجد أسلحة معهم، أكثر المعدات فُقدت منهم مع العودة الخاسرة.

التفت "الملوم"، شقيقه "علي" أمامه بشحمه ودماءه! الأتربة تملأ وجهه، ملابسه ممزقة مثل زملاؤه، حذاء واحد بقدمه اليمنى فقط!

لم تمر الساعات حتى انتشر خبر اللقاء هو وشقيقه "علي" بين السرايا، يلتقي الأخوان على جبهة القتال، هذا من عسكر السويس وهذا من الإسماعيلية، لم يهنأ "الملوم" بالنوم بتلك الليلة، شقيقه "علي" ينام بجانبه يستريح من عناء السير في صحراء سيناء، لا حيلة له، غدًا في الصباح يرحل شقيقه وزملاؤه إلى القاهرة للتزود بالسلاح والعتاد والملبس ثم العودة مرة أخرى إلى جبهة القتال، حاول أن يُقنع قائد سريته أن يمكث أخاه معه عدة أيام، الرفض هو القرار الأول والأخير! "الملوم" على قناعة برد الرفض، سعد بما تم جمعه من نقود من زملاؤه لأجل شقيقه "علي"، حاول بقدر ما يستطيع جمع بعض المأكولات من مطبخ السرية، من زميله "أبو اسكندر" المسئول عن إعداد طعام ذلك اليوم الحزين.

انتبه إلى نداء الميكروفون:

- على الجنود العائدين من سيناء التوجه إلى مقر القيادة استعدادًا للرحيل للقاهرة.

لم يكن يتوقع أن يتم الرحيل في تلك الساعة من الليل. لم يهنأ "علي" بساعات قليلة من الراحة، طاعة الأوامر واجبة، لا حيلة له إلا أن يوقظ أخاه من نومه الهانئ استعدادًا للفراق، الفِراق الذي يصرخ في صحراء المعركة وما تأتِ من أحداث، حاول بقدر ما يستطيع التماسك أمام انضمام شقيقه "علي" إلى زملاء عربة الرحيل إلى القاهرة.

لا راحة ولا نوم في الساعات الباقية من الليل، حاول أن يجد تفسير لما يجرِ في ساحة القتال، الأيام الماضية من بداية الضربة الجوية الأولى وانحناء خط بارليف السد الترابي المنيع، أمام عبقرية الفِكر العسكري المصري، كانت الإهانة الكبرى لإستراتجية فِكر العدو، يذوب السد المنيع، يخر راكعًا أمام مياه بحر مِصر العظيم، مِنصات الصواريخ تنطلق بشط القنال، تسقط طائرات الغاصب لأرض سيناء وسط تكبيرات (الله اكبر)، هو وأصحابه لا يشعرون بالحرب ومخاطرها! ثقة وتفوق وإرادة تُزلزل جحافل العدو الذي يترنح في دوائر الهزيمة.

"الملوم" يستحم، زملاؤه يلعبون الكرة، شيء عجيب! كان كل شيء يسير في خطوات اكتمال النصر، بضعة أيام ما أحلاها وما أعظم ساعاتها المفعمة بفرحة التقدم وقهر العدو.

انقلبت الأحوال وتغيرت التقديرات وبوادر التقهقر والانسحاب للخلف هي سيد الموقف! لم يستطع "الملوم" الوقوف أكثر من ذلك، هبط على الأرض ليُكمل مشاهد حرب العاشر من رمضان، ارتعش جسده وامتلكه الغضب، مشهد لا ينساه يتمنى أن يثبت في ذاكرة الوطن، وادي النيل العظيم. تواتر جسر المدد الأمريكي لينقذ حليفته من مخالب وأنياب الجيش المصري، هدمت مِنصات الصواريخ، الفشل في بناء منصات جديدة، تُهدم على رؤوس أهل الصعيد الخبراء في العمل الملتهب من بناء المِنصات، اختفت صيحات النصر والتكبيرات! الجميع الآن يحمل مسئولية الهزيمة إلى العالم الساكت عن كلمة الحق! تلك الشعوب التي تغنت كثيرًا بمصر وأثارها وتراثها المجيد، من أجل عيون أمريكا وحبيبتها، فاتيكان الغرب الجديدة إسرائيل بفلسطين! نصر مُحدد ومُؤقت، لا تذهب القوات المصرية إلى أبعد من سيناء، سيناء فقط، لا خطوة واحدة تتعداها!

كم اندهش "الملوم" أمام أحاديث قادته! مَن المسئول عن الثغرة المفتعلة باختراق قوات العدو داخل أطراف سيناء مرة أخرى؟ اختلطت الأمكنة بين جند مصر وقوات العدو! لم يسعد "الملوم" بخبر الاختراق، كانت سعادته بفشل رئيس الأركان في إقناع السادات بإحراق الثغرة بما فيها من القوات المصرية

وقوات العدو! سعد برفض قائد العبور لتلك الفكرة، لم ينسَ جبروت ذلك القائد بتعليماته الصارمة للقوات المصرية قبل بداية المعركة بشهور قريبة:

- الجزاء ستة أشهر سجن لمن لا يلتزم بربط رباط حذاؤه سبعات ثمانيات.

تذكر صاحبه الرقيب وهم في طريقهم لقضاء الأجازة الشهرية بين الأهل والأصدقاء وبعض الراحة من مشاريع التدريب المتوالية تباعًا، كم ألح وطلب الرحمة من جندي الشرطة العسكرية لمخالفته أوامر السبعات والثمانيات برباط الحذاء! لا رحمة ولا شفقة ولا أعذار، ستة أشهر سجن بالسجن الحربي، كانت الفرصة الأخيرة؛ عرض خاتمه الذهبي ذو البريق الأصفر، تلمع عين الجندي أمام بريق الذهب، يلتقط الخاتم في نهم الأصفر, يتركه يذهب حرًا ليُكمل مسيرة خطواته إلى ميدان رمسيس! تسقط الأوامر وتُطلق الحرية لكن بثمن، الرشوة ومُغرياته من الذهب الأصفر! مشهد لم ينساه "الملوم"، حالة بائسة للنهاية لمَن لا يحمل المغريات للهروب من أوامر الانضباط الهزلية في ربط الحذاء، قائد العبور له كل الحب والتقدير للحفاظ على أرواح أبناؤه الجنود من الإذعان لتلك الأفكار الهتلرية والتي عفا عليها الزمن.

شعر "الملوم" بهبوط صقيع الليل وعلو فرحته بما تم مع رئيس الأركان صاحب تلك الأوامر من السبعات الثمانيات في ربطة الحذاء، التحف بردائه الصوفي الأصفر، هبط تحت عجلات سيارة الإشارة ليكمل الساعات الباقية من الليل بين أفراد طاقمه.

* * *

لم يتردد "عبد الجبار" في الذهاب إلى صاحبه، صفير الرياح يسد الآذان، أمواج البحر العالية تقذف برذاذها لكل سائر على شاطئ ورمال بحر الأنفوشي، إصراره على مقابلة صاحبه، تدفعه بكل قوة لتحمل هذه الرياح وتلك الرمال، لم يشعر بعظمة نظارته إلا في هذا الموقف، لم يُعجب بها، بإخفاء عينه المغلقة منتهية الصلاحية منذ زمن فائت، عليه المرور مرات ومرات حتى يظهر صاحبه "لطفي" من شرفة منزله، لا حيلة له في الصعود إليه، يتحاشَ نظرات مَن كان السبب في فضيحتها بالزنا, نعم الأعوام مرت ومضت، لكن يعرف أن امرأة "لطفي" صاحبه لن تنسَ تلك الأحداث، ما عليه إلا أن يصبر ويأتيه الحظ، ليطل "لطفي" من الشرفة، لم يفكر بالعروج إلى مقهى "إنح" أو "عرفة"، مناخ الأنفوشي لا

يُشجع أحد بالجلوس ولو حتى الانتظار, ظلمة الساحل وهبوط الليل وصقيع الهواء لا يشجعون أحد على الجلوس. لم يدرِ باقترابه من بوابات معسكر القوات البحرية، عليه الرجوع إلى الخلف والاقتراب من بيت صاحبه. برودة الهواء تخترق جسده المُشبع بدخان السجائر وكاسات الخمر, ما زال مُصرًا على المقابلة، "لطفي" الوحيد الذي يستمع له ويفهم ما يدور برأسه، يريد أن يُخرج تلك الهموم الجاثمة على صدره وفكره.

بدأت أقدامه تهتز لتلك الساعات التي مرت، أكثر من ثلاث ساعات ولم يصل إلى أي بادرة لظهور صاحبه من الشرفة! لم يسلم من إرهاصات الندم من عدم زواجه حتى الآن، لا أنيس ولا ولد، هو تائه غريب وسط زحام الدنيا. "لطفي" كان أسعد منه حالًا، عرف أن يتخاطب مع الحياة ويأخذ منها ما يُحب من جنس وزوجة فاتنة الجمال وأولاد. تخاطبه مع الدنيا لم ينقطع، بل ما زال مستمرًا لم ينتهِ.

هبط بجسده المنهك على سور الشاطئ، نَحى لقاء "لطفي"، الآن عليه مواجهة حياته بما تحمل من هموم، لم ينتبه إلى تلك السيقان الماثلة أمام عينيه، التفت إلى رائحة العطر الأنثوي، جحظت عيناه وانتفخ أنفه، عاملة السويتش بمستشفى الأمراض العقلية بجسدها وجمالها العائم في رياح الشهوة، لم تتفوه بكلمة،

أعطته الوقت لتكملة المشهد، في يدها غلام، كم يشبهها في جسدها الأبيض وشعرها الناعم وعيونها الخضراء، هبطت بجانبه، التصقت بجسده، لم يتأخر في ضم الغلام إلى صدره، حاول بقدر ما يستطيع ألا يتعدى تلك الحدود بالقفز عليها حتى ولو بقبلة، نعم الشاطئ خال من المارة، صقيع الهواء وخلو المارة وغلق النوافذ والشرفات من أهم سمات أهل شاطئ الأنفوشي في فصل الشتاء، كل الخطوات مُشجعة على فعل ما يريد، بل أكثر من قُبلة وحضن، تراخى بالمضي في عمل ما يشتهيه، وإرواء ظمأه من تلك الفاتنة.

التفت إلى الغلام، النعاس يحتويه، ما عليه الآن هو أن يُشير إليها بالذهاب إلى سيارته، لم تتأخر في متابعة خطواته والصعود داخل السيارة، نظراتها الفاتنة تدفعه مع بسمتها الساحرة إلى أن يُدير محرك السيارة وينطلق إلى الطريق.

* * *

تنفس الصعداء، آخر لحظاته في الرحيل من دنيا العسكر، تراجع في لَمّ غنائمه من معارك العاشر من رمضان، لم يحتفظ إلا بالشيكل اليهودي، نَحى أنبوب العسل الأبيض والصندوق الخشبي المُطعّم بأصداف البحر، لا حيلة له إلا أن يترك تلك

الأشياء خوفًا من الشرطة العسكرية في طريق مغادرة المعسكر، كانت سعادته بشهادة ميلاده الجديد, صك إنهاء الخدمة العسكرية.

لم يقدم بوداع قائد سريته وزملاؤه من ضباط الكتيبة، كان هذا هو الاتفاق مع الزملاء الخارجين أمثاله من المعسكر: لا وداع ولا شكر. يكفِ ما أصابهم من هؤلاء القادة، لم ينسى اعتراضه لهؤلاء القادة، بل وقفته بسلاحه لمن يريد أن يتقدم منهم لعُهدته، ماكينة كهرباء محطته اللاسلكية، لن تُستغل في اللهو وتشغيل جهاز التلفاز للسادة الضباط ومشاهدة مباريات كرة القدم، هي لم تُجعل لتلك الأشياء، بل للأهم والأعلى سمو للمعركة التي كانت على أشدها خلال الشهور الماضية، موقف لن ينساه، يتذكره حتى مماته بشهادة تأدية الخدمة العسكرية، عريف، كان الأولى بالخروج على درجة رقيب مثل دفعته، حادثة الحفاظ على ماكينة الكهرباء مع القادة تهبط به إلى درجة عريف.

انتبه إلى نداء سيارة النقل إلى محطة قطار السويس، كان يتمنى العودة إلى الإسكندرية في السيارات الخاصة، قطار السويس لا يتمناه، كفى ما حمل منه من ذكريات, لا يريد حتى مشاهدته، لا سبيل إلى العربات الخاصة، النقود تكفِ بالكاد

المواصلات الداخلية، لا سبيل للعودة إلا عن طريق الاستمارة الحمراء العسكرية بسكك حديد مصر, صحبه زملاؤه في دفعة الخروج تُشعره في القطار بإحساس لم يشعر به من قبل، فِراق ليس له من عودة، سيختفى الجميع في محطات النزول، طنطا, كفر الشيخ، المنصورة، دمنهور..

التفت إلى طاقم شرطة القطار، تفتيش العسكر للمسافرين، لم يقوى على متابعة صاحبه، حقيبته ممتلئة بطلقات البنادق الآلية! لم تتراخ الشرطة في العفو والصفح.. خروجه وقضاء مدة خدمته لا تعفيه من تلك الجريمة!

اقترب القطار من محطة رمسيس، أزاح مشاهد الحزن من القبض وفِراق الصُحبة، عليه الإسراع ومعرفة متى يقوم قطار حبيبته الإسكندرية، وتلبية إلحاح تناوله لأي طعام وإرواء عطشه لحين قيام قطاره، ساعتان ونصف. التفت إلى موقف أحمد حلمي، سيارات أجرة الأقاليم على جانبي الطريق، لا وسيلة في السفر بها، نقوده تكفِ فقط لكوب من الشاي مع بعض قِطع الخبز التي حملها معه من معسكره وقطعة الجبن الأبيض، لا مثلجات.

انتبه إلى ساعته تقترب من ميعاد قيام القطار, لم ينسى النظر للمرة الأخيرة لتمثال رمسيس المهيمن على الميدان، ما

زال يرش ماؤه على الجميع، لم يسعد، القطار مزدحم على آخره، خبرته في اختيار مكان لم تسعفه في مطلبه، مطلب مستحيل لمقعد خال، افترش الأرض، كان يريد الانفجار في هؤلاء الركاب، مَن يفترش الأرض؟! أهو مَن شارك في أمان أهل مصر؟ هو مَن ضحى بأيامه ولياليه وشقاء الصحراء وملازمة الموت؟ الآن يفترش الأرض وغدًا تذهب شهادته بما تحمل من مشاركة في تحرير سيناء أدراج الرياح!

ذهب الإحساس بهؤلاء القوم، ألا ينظرون إلى علامات حرارة الشمس وسواد بشرته وصدره وساعديه، جسد يحمل كل علامات الشقاء، لمَن؟! نعم لمِصر وأهل مِصر.

اكتمل بؤسه وأحزانه، مُحصّل القطار يَتحرى تاريخ استمارة السفر الحمراء، يتأفف بمرور قلمه بصحتها وخلوها من التزوير، لم يتردد في إخراج شهادته العسكرية ومشاركته في حرب العاشر من رمضان، لم يلتفت إليها المحصل! كان شاغله هو إثبات تزوير تلك الاستمارة! لم يفلح في إثبات ما يريد. هو الوحيد "الملوم" يعرف لماذا هذا الغضب وتلك المحاولة؛ لن يتناول نقود وتلك هي حسرة المُحصل في ضياع نسبته المُقررَة في تذكرة الركوب، تمنى إلقائه من نافذة القطار، كما ألقى زميله بنفسه من الشباك هربًا من بطش المُحصل

وأمن القطار! لقي حتفه! لم يتأثر المُحصِّل بسماع توسلاته بعدم القدرة على الدفع، وكانت النهاية بالموت بدلًا من زيارة بلدته وأهله!

انتعش أنفه برائحة يعشقها ويذوب فيها، رائحة البحر، القطار يدخل أول محطات حبيبته الإسكندرية، محطة سيدي جابر، دقائق ويدخل إلى محطة لا يريد أن يراها مرة أخرى، محطة قطارات الإسكندرية، بوابة الكآبة والرحيل إلى معسكره بالسويس، انتوى وأصر على ألا تدوس قدمه هذه المحطة، أسرع بالخروج.

رائحة السمن البلدي تهب عليه، محلات العصافيري الحلواني، لا مفر من الهروب، هريسة جدته الدائمة إليه، رحلت ولم يرحل العصافيري! اتجه إلى شارع النبي دانيال، هو أقرب طريق إلى حبيب عينيه شاطئ البحر، لم ينسَ التوقف أمام منصة الزعيم سعد زغلول، ما زال شامخ رافع رأسه في السماء.

لم يعبر إلى كورنيش الشاطئ، عليه السير بالجانب الأخر، إلى مَن يهواها ويتمنى لقاؤها، فينوس حبه، "ليلى" الخرساء، رحلت من الدنيا، لم ترحل من قلبه المُعذَّب بفِراقها. لم يلتفت إلى النوافذ المُغلقة، صعد درجات السلم الرخامي القديم،

نظرت إليه، أضاءت بسمتها الدنيا كلها، لم يقوى على الفكاك من حديثها السرمدي، كان يتمنى لقاء نظراتها الملتهبة، لا يريد المزيد، المزيد من حديثها والمُنتهي بالفِراق وإن كان سرمديًا، لم يستطع الثبات على درجات السلم، هبط تحت أقدامها، يُنصت، يتلذذ بنبرات صوتها العذب يصول ويجول في متاهات قلبه المُعذب، نظراتها توحي إليه بأشياء لم يعرف مغزاها ولا يفك طلسمها، لم يدم اللقاء، رحلت، رحلت، كما رحلت أنفاسه ودقات قلبه، عذاب كل لقاء، لا سبيل إلا التعود على الفِراق، ومواجهة تلك اللحظات، الآن عليه القيام بقبلات الرحيل لدرجات سلمها التائه بين حبه و برزخها ودقات قلبه المترددة بين الخفقان أو التوقف. هبط درجات السلم.

الآن جاء لقاء أحبابه "شريفة" و"لطفي"

* * *

لا يشبع من النظر إليها، هي تتربع في وجدانه، رغم ما أصابها من أحداث وما مرت به من سنين، ما زالت شامخة عالية بعُلو هيبتها وقوتها وصمتها, لا تمل ممَن يلتفون حولها, تفحص الوجوه والأجناس، تريد أن تصل إلى غايتها من اللقاء والعناق والحب الذي فقدته بماضي زمانها، لا تشعر بهذا الحب

الصامت، المراقِب لها من تاريخ عمره الذي في زوال، لا تلتفت إليه كما يلتفت إليه رائده ومعلمه ومرشده الشامخ على منصته بميدان محطة الرمل الزعيم سعد زغلول، فرق شاسع بين هذا وتلك، "لطفي" لا يمل ولا يكل من النظر إليها عسى أن تحن عليه بنظرة واحدة أو تلتفت إليه، رغم كل هذا الجفاء، ما زال "لطفي" يتمنى ويصبر وينتظر، من أجل هذا كانت جلسته بمقهى فاروق، أمام الشاطئ المُداعب لها، يلطمها بأمواجه! البحر هو الآخر المُعذب، لا تهتز من أمواجه وأفاعيله الصبيانية، يلفح أسفلها وفوقها، لا مفر، هو الآخر عليه الصبر كما يصبر هو، جلسته الجديدة بهذا المقهى، كان يعرف أن قرب الجوار يأتِ بالوصال، أمتار قليلة بينه وبين تلك الحبيبة، قلعة قايتباي الشامخة.

يفر من حبيبته "شريفة"، هي الأخرى أصابها الملل من جلسته المنزلية، وزوال الحب الذي كان، تفر كما يفر هو الآن! لا يعرف أين تقضي أوقاتها؟ يتركها ويرحل إلى تلك الجلسة وذلك الحوار.

أبناؤه "علي" و"لملوم" في أول درجات البحث عن المتعة واللهو! كان في راحة بعد إنهاء خدمتهم العسكرية، الاثنان شاركوا في حرب العاشر من رمضان وخرجوا أصحاء أقوياء

لتحمّل مشاق الحياة وتوابعها، لا خوف عليهم، الخطوة العسكرية أعطتهم الكثير من القدرة على مُنازلة الأحداث والأفعال والأمكنة.

لم يشعر بانتهاء كوب الشاي، نفد! حاول التقاط ولو قطرات من الكوب، لا سبيل بطلب كوب آخر، حساباته ما زالت هي حسابات الماضي، نقود تكاد تكفيه لبضعة أيام من قبض راتبه الجديد، لم يشعر بلحظة واحدة في مأساة حياته بوفرة مال أو فائض يُنقذه من عطش احتساء كوب شاي، لم يشرب أي مشروبات أخرى في تلك الأمكنة إلا مع واحد فقط، صاحبه بمستشفى الأمراض العقلية، جامد الملامح بطيء الكلمات، صاحب النظارة السوداء والعين الواحدة. لا يعرف كم من الوقت مضى لم يلتقي به.

التفت إلى قرص الشمس في طريق الزوال، يختفِ وراء القاسية، بعيدة الحنان، القلعة. حنانها يذهب إلى من تفر خلفها وإليها، لتُعلن عن دخول الليل.

كان يعرف فِكر أصحاب تلك المقاهي، لا ينزعجون من الجالس الصامت مثله، كل الانزعاج ممَن يلعب بأدوات اللهو: الطاولة والشطرنج والدومينو. تلك الأشياء مُراقبَة من النادل بل ومن صاحب المقهى. التفت إلى النادل، يُسرع في التقاط

الشطرنج، يُتمم على الجيش الجرار من الملك والوزير والفيلة والعساكر، علامات الفرح تملأ ابتسامته.

عيناه مُتابِعة لهؤلاء الزبائن المغادرين للمقهى، كان يتمنى كوب من المياه المثلجة، لا يتجرأ في طلبه، طلبه يحتاج إلى مشروب آخر وهذا من المحال!

عليه الآن الرحيل من مقهى فاروق، لن يعبر الطريق إلى كورنيش البحر، غربت الشمس وازدحم شاطئ الميناء الشرقي, الزوار لا فرق بينهم وبين شاطئ الأنفوشي، الناس الغلابة هم زوار الشاطئ وأرصفة البحر كل يوم, يفرون من البيوت المُفتقِدة لكل شيء، قلة المال هي الحاكم بأمره في تلك المزارات، لا أحد مستعد لتلبية مصروفات التنقل ولو إلى الشاطئ القريب، شاطئ الشاطبي، هناك رواد من صنف آخر، صنف يصرف ويُنفِق بين المظلات الليلية والأشربة المُكلِفة بأصنافها المختلفة، هو الوحيد القادر على اختراق تلك الأماكن، بل والجلوس دون الإنفاق وإرهاق حافظة نقوده الخاوية دائمًا.

التفت إلى الزعيم، ما زال يتوسط حديقته بميدان محطة الرمل، تمنى أن يلتفت إليه كما كان في الماضي، الهتافات السرمدية يُنصت إليها، يتمتع بها:

- سعد يحيا سعد..

لم يستطع صد جماح صوته وعُلو يده، وبأعلى صوت:

- سعد يحيا سعد..

التفت إلى قلعة قايتباي، هل هي الأخرى تنظر إليه؟ أم إلى مَن تُحاوره بالليل والنهار. لم يتردد في تعلية صوته إليها:

- سعد يحيا سعد.

صعد درجات الزعيم، ما زالت المرأة حاملة غُصني الزيتون قابعة أسفل قدميه، لم يعهد أن تبتسم له، ابتسامة وإشارة بيدها، يشعر بها، يراها في كل وجدانه. التفت خلفه، شباب الميدان، يهتفون معه: سعد يحيا سعد..

هبط من درجات الزعيم، لم ينسَ أن يبتسم لها هو الآخر.

الآن يُكمل نداؤه، ليس مع الشباب فقط. أولاده "علي" و"الملوم" يهرولون إليه، لم يهتم بهما، صاحبه وصديق عنبره يُلوح له، يصعد إليه، لم يستطع أن يُخفي غضبه! تُرافقه عاملة السنترال بمستشفى الأمراض العصبية! فَهم "لطفي" مشهد صاحبه جامد الملامح بطيء الكلمات، صاحب العين الواحدة.. التئم شمله مع تلك الفاتنة، هي طاقة الحظ في عمله بإدارات الأمن. التفت إلى أبناؤه "الملوم" و"علي"، يراقبان تلك المرأة

وذلك الرجل، أبطئ في هبوط درجات سلم الزعيم، هناك مَن يَسبقه. "الملوم" يُرحِب بمَن حقق معه في مَقتل "السيد النجرو" شقي بحري. لم يفرح بذلك اللقاء، يخشَ على ولده من نظرات الفاتنة! يعرف كم من جمال يحتوي ابنه الأبيض الغض المُبتسم، عيونه تسحر كل إناث الدنيا! كم عانى من مغامراته مع بنات الجيران، وخوفه عليه من الوقوع في فخ الخطيئة. الآن الخطيئة كلها أمام عينيه مُباحة مُستباحة لكل مَن هو جميل، نعم هي فاتنة، تسحر كل رجال العالم، يركع الجميع أمام عيونها الخضراء وجسدها الأبيض الممشوق بكل بدائع السماء! وها هو الواقع في حِصن جمالها، صاحبه وصديق عنبره.

عليه الآن التصرف بكل حذر في فك ابنه "الملوم" من شفرات وأعاجيب تلك الفاتنة، لا يريد قطع لذة شهوتها بالنظر إلى ولده بتلك النظرات التي يجب أن تُزاح، لكن بالحكمة والعقل، كفى ما مر به "الملوم" من مُعاناة الجندية وحرب العاشر من رمضان، يكفِ هذا، يجب حمايته من تلك العيون وشهوتها الفائرة!

بدأت خطواته في الاقتراب، أشار إلى "الملوم"، همس في أذنه:

ـ أخاك ينتظرك على الطريق.

لم ينظر إلى ولده في طريق الانسحاب من نِزال الحب، كان ينظر إلى هذه الفاتنة المُتابِعة لولداه "علي" و"الملوم"!

سعد "لطفي" بأخبار صاحبه، تزوج من تلك الفاتنة، لم يسعد بخبر الغلام الصغير ابن رجل الأمن، الراحل من الحياة، ما زالت أثاره موجودة، وفي أين! في عُقر داره، وليد مَن فقأ عينه، لن تُغني شفاعة هذا الرجل في وضعه بمنصب الرجل المهم في الأمن، نعم حظي بامرأة كان يتمناها من زمن فائت، الآن هي بين يديه، تسكن في حضنه، يمتص رحيقها، يتمتع بها كيفما شاء. هناك مشكلة صعبة النسيان، ذلك الغلام وتلك العين المُغلقة بيد رجل الأمن الراحل التارك لأثاره تنهش في ذاكرته وتاريخه..

أفصح له صاحبه جامد الملامح بطيء الكلمات ذو العين الواحدة بكل تلك الهموم. لم يجد "لطفي" إجابات تُريح ذلك المسكين إلا أن يُنبهه بأن امرأته تنتظره داخل السيارة!

* * *

هبط على رصيف الشاطئ، لم يشعر بالصقيع وصفير الرياح وظلمة الليل، ما زالت الأنفوشي صندوق ذكرياته، تلفه

بالحنان، خطواته ما زالت حاضرة على الرمال، دفئ رصيف جلسته لم يبرد بعد، لم يَمل من الانتظار، يعرف أنها ستأتي، متى لا يقدر أو يتوقع أن تأتيه في التو واللحظة، عليه أن يفرك مِصباح قلبه، وعليها الاستجابة. "ليلى" الخرساء، آخر لقاء معها لا يتذكره متى كان؟ هي تأتيه في الليل، لم يبرح الشاطئ أو يترك جلسته، لا يخشَ نظرات أمه "شريفة" التي تراقبه من خلف النافذة، أبوه "لطفي" يغط في النوم، شقيقه "علي" بعمله في وردية الليل.. هدوء الشاطئ وندرة المارة وخلو مقهى "انح" و"عرفة"، مفاتيح تفتح له أبواب محبوبته على مصراعيها، وهى لم تأتِ بعد!

أتعب مصباح قلبه من الفرك، لا حيله له غير الانتظار، التفت إلى النافذة، ما زالت أمه تراقبه، لم يفكر بالذهاب إلى بيت محبوبته بزقاق بندقة، فكر في رحيل آخر، الذهاب إلى سور المدافن، عسى أن يوقظها من نومتها السرمدية، لم يفكر من إخراج غليونه وإشعاله، عسى أن يزيح مرارة الانتظار.

أمه ما زالت تراقبه، هو ما زال "الملوم" الصغير ينام في حُضنها، عرف أن يتخلص من رعايتها له في الاستحمام الأسبوعي وتدليك ظهره وسواعده، لكنه لم يتخلص حتى الآن من المراقبة والعناية، يفر منها، كفى ما قرأ عن عُقدة أوديب

وعذاب مَن يقع فيها، يريد أن يخلع عباءة الطفولة، الآن هو رجل يُحب ويعشق وينتظر, عليها أن تقر بفوات السنين وبكثافة شاربه.

ساعته تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، لا يهم، فاليوم الخميس وغدًا الجمعة أجازته الأسبوعية من عمله بمديرية أمن البحيرة. هَم واحد، يشغله بأيام الأسبوع، يقظة الفجر والإسراع إلى محطة القطارات والذهاب إلى عمله بدمنهور. استراح من شقاء الجندية ليقع فريسة عمله البعيد! لم ينسَ الاعتراض هو وأصحابه على العمل في محافظة أخرى وذهابهم لتلك المقابلة الفاصلة والشكوى والالتماس بإيجاد عمل لهم في مدينتهم الإسكندرية.. هُم مَن حارب وقاسى كل الآلام في حرب العاشر من رمضان، عسى أن تُزكيهم في قبول النقل إلى مدينتهم، يسخر نائب الوزير مُنتفخًا في مكتبه ورده السافر والساخر في آن، لن ينسى ما أفصح به:

- بطلوا تلك الحكاية، إنها تمثيلية وقد نفذت بما يريد الكبار!

تقليل وتحقير لأيام البطولة والوفاء لحب مصر والنصر! لا حيلة له إلا أن يصبر ومد كفه إلى والده "لطفي" ليُكمل له باقي أيام شهره!

التفت إلى النافذة، اختفت أمه من ورائها، لم يبرح مكانه عسى أن تأتِ إليه مَن يُحب، فينوس حبه المُعذب بين حياة سرمدية وحياة يريد أن يرحل عنها هو الآخر، كفى ما رأى وعاش من خداع، لكن لا حيلة له غير أن يتواصل بين أرا جوزات السادة وأزاهير من يُعانِ من أمثاله.

أنفاسها تلهب دقات قلبه، تسكن أمواج شواطئه، التفت إليها، ما زالت في ردائها الأبيض الشفاف، مفاتنها تدعوه بكل جبروت الحب بالطاعة والقبول، ندائها السرمدي:

- ارحل إليَّ.

توقع أن تأتيه لتواسيه وتؤنسه من متاعبه و حياته! مطلب وحيد:

- ارحل إليَّ.

انعقد لسانه من إجابة ما تريد، يريد أن يتمتع بها كما تَعود منها، آيات الحب رحلت عنها، نظرات الاشتياق تغيرت آمرة بالطاعة! أنين قلبه يتوسل إليها، عيناه تَنفرط بدموع الرحمة من إجابة ما تريد، دقات أجراس الدنيا تصم آذانه وتشل خطواته، لا سبيل إلا أن يُودع رحيلها بغير عودة، لم تلتفت إليه، رفعت ذيل فستانها، ما زال يرجوها بعدم الرحيل، فلا

سبيل أن يُنهي حياته بيده واللحاق بعالمها السرمدي. طالت ركعته الأخيرة في التوسل إليها بعدم الرحيل.

* * *

نظر إلى القصر ومعسكرات القوات البحرية، لم يجد أي حيلة لدخول قصر الملك والتنزه بين حجراته كما كان يفعل بالماضي القريب، تلميع أثاث القصر ومُتعته في الجلوس بغرفة الملك فاروق. نعم، الثورة أزاحت الكثير من أثار الملك وأسرته، لكن ما زالت هناك بعض أثاره صمدت وقاومت تلك الأيدي العابثة بتاريخ مصر. رائحة الملك لم تبرح القصر, صدى رنين الحفلات والمقابلات مع عُظماء الساسة تزحم الأمكنة، مصطفى النحاس وعلي ماهر والملكات والأميرات، حوائط القصر تحتفظ بعطرهما الفائح..

منذ أيام سُحبت أدوات عمله من الجملكة وأدوات التلميع، أُخلي طرفه من كل الأشياء التي تُمهد له دخول القصر ومعاودة أحلامه، لم يصمد في صد دموع الشوق لآخر لقاء مع رائحة الملك ورائحة الضباط الأحرار, ومشاهد ناصر وأصحابه.. نعم حضر سنوات قليلة مع خليفة الزعيم، السادات الذي لم يتأثر بخطواته وأحداثه المتلاحقة، كان دائمًا في قصر

عابدين بالقاهرة، طوى ورقة إخلاء الطرف، نظر إلى ورشته ومكان عمله المنحوت في طيات سنين عمره.

الآن عليه التوجه إلى بوابة قاعدة رأس التين والخروج بلا عودة من هذا المكان، لم يفرح بمستحقاته المالية وملأ حافظة نقوده للمرة الأولى بالنقود الورقية! كم ستسعد امرأته "شريفة" بنقود الوداع لتاريخ عمله.

كان يتمنى العروج إلى فلذة كبده ابنته "ثريا" وأولادها.. لكن مُحال له القيام بتلك الزيارة، كفى ما شاهد من زناها وضياع شرفه وشرفها.. أليس من الممكن أن يرى مَن يمتطيها في غياب زوجها مرة أخرى؟! لا لن يذهب، ولن يمر من أمام بيتها، سيخترق الطريق الخلفي المؤدي إلى ورشته بحارة اليهود، شارع السور، هكذا وَعد أصحاب مهنته. لن يتراجع في قراره بالذهاب والاحتفال معهم بنهاية خدمته بالدوائر الحكومية.

الآن هو الأسطى "لطفي" الأسترجي، بل معلم المعلمين وشيخ هذه المهنة في حبيبته الإسكندرية، محا لقب الأفندي كما كان يُلقب بين جيران مسكنه، عاد إلى ميلاده القديم عامل من زمرة البروليتاريان التي يُحبها ويعشقها.

انتبه إلى تلك المرأة أمام الورشة، "أم علية" عشيقة المعلم صاحب الورش، لم تُغنِ سنوات التقدم في العمر من رحيل الحب الحرام بينهما، ما زالا يعشقان زوايا الورشة المظلمة، ومزاولة الحب المُحرم، تصر العشيقة على ردائها القديم الحديث، الملاءة اللف واليشمك الذهبي بنقابه الشبكي فوق أنفها، والآخر مُصرًا أيضًا على معاودة الحب، انحنى ظهره، وفترت سواعده، لكنه ما زال على نَهجه ومنواله من الحب المُحرم.

لم يجد "لطفي" سبيل إلا العودة من حيث جاء، لا سبيل إلى مقابلة أصحابه الفارين من مشاهدة الحب حتى وإن كان في الظلام!

* * *

لا تمل من النظر إليه، تعشقه بكل ما فيه من أنين وعذاب وشجن، لم تصد تمتعها بهياجه وصبرها على هدوءه، ترحل معه في جميع أيامه، صيفًا أو شتاءً، أرشيف يحفظ ويكتم ولا يفشي، يتحمل الجميع ويفسح لهم من المزيد، حبه لها لا يراه إلا هي وحدها، هكذا هو حاله مع كل مُحبيه.

بحر الأنفوشي، لا تكل "شريفة" من النظر له والحديث إليه.. تودعه الآن، يأذن لها، لكن على مضض تحس به وتتألم، لا بد من الفِراق.

الحنين يأخذها إلى مكان آخر، راغب مقر الرحيل الثاني من الأنفوشي. ذكرياتها مع الراقصة "عنايات"، تجذبها بكل قسوة المتعة والحنين والاشتياق، لم ترحل بدلة الراقصة في رقصتها، ليس بجسد "عنايات"، بل بجسد "أم حلويات" جارتها الراحلة في أطراف سيدي بشر، هي هناك و"عنايات" هنا!

هبطت من العربة بالقُرب من بيت الراقصة, عليها الآن أن تستعد للقاء، التفتت إلى شقتها القديمة، ما زالت مُغلقة، لم تُسكن بعد، لم تصمد أمام أصوات الغناء، تنبعث من نافذة الجارة "عنايات"، أردافها تهتز، أسرعت بالصعود على درجات السلم الممتلئ، وقفت مثلهم تستمع، لم تنبس بكلمة أو تتقدم خطوة، عليها الإنصات لكوكب من كواكب الفن، عِزت عوض الله يشدوا: نوارة حارتنا.

لم تقدر على الوقوف، جلست على درجات السلم، رحلت إلى عالم آخر، عالم الحب الذي في طريق الزوال، زوج لا يمكث إلا القليل معها، يقضِ وقته كله خارج البيت! أولادها

"الملوم" و"علي" يبحثان عن الحب، فورة الشباب تدفعهم في نفس طريقها مع مَن أحبته، مذاق الحب والعذاب والشقاء والزنا! هي الآن في نهاية محطات الحياة.. حاولت أن تعود من حيث جاءت، لم تفلح، جارتها عنايات تُشير إليها بالصعود، أعجبت بميعاد الزيارة، عيد ميلاد ابن "عنايات"، ملبن آخر العنقود، زملاء الفن السكندري اجتمعوا لإحياء الحفل، لم تهتم بالست بدرية السيد، هي كما هي، لم تتغير في شيء، أخذت الشهرة وما زالت بنت البلد ذات الرداء الشعبي السكندري!

سعدت بالشباب وعيونه المتلهفة لقطف الجمال، هي الآن في الدائرة الملتهبة للقطف.. ينظر إليها بإعجاب! لم تُمانع من النظر إليه هي الأخرى! إبراهيم عبد الشفيع، لم تتأخر "عنايات" من جذبها إليه، لم يعجبها احمرار وجهه وارتعاش أطرافه! انتبهت للعيون الثاقبة، عِزت عوض الله، لم تشعر إلا وهي بين دفئ حبه يقفز إلى قلبها، لم تُمانع من أيدي الراقصة "عنايات"، تعبث بخِصرها، وإجابة دقات الطبل وغناء نورس الإسكندرية وتصفيق الحاضرين!

- يا زايد في الحلاوة يا منور حينا..

نظرت إلى جسدها، نعم ما زال زائد في الحلاوة، أين "لطفي" ليرى هذا الجمال وتلك العيون الجاحظة لجمال جسدها؟

انسحبت في صمت خطوتها الراحلة من هزات الرقص، هي تعرف حجرات الجارة "عنايات"، كانت تتمنى جارتها "أم حلويات" أن تكون معها في تلك اللحظات الشاردة من عذابها المتكرر اللاه منتهي، حياة الراقصة "عنايات" رائعة بما تحوي من كل شيء، الغناء والرقص ونوارس الطرب ورائحة راغب التي حرمها "لطفي" من التمتع بها!

ما زالت شقة راغب لم تسكن بعد، لم ترضى "عنايات" بفكرتها للعودة إلى راغب وتركها لـ"لطفي" وأولادها "الملوم" و"علي"! لم تصبر على تكملة احتساء كوب الشاي، أسرعت بالخروج والابتعاد عن تلك المرأة التي تحس في إجابتها بالغيرة من جمالها المتماسك من الصدر والأرداف!

* * *

يسير بخطوات ثابتة عسكرية، قوية مندفعة إلى الأمام، رأس مرفوعة، جسد ممشوق، لم يهتز بورقة استدعائه إلى قسم الجمرك بيد أمه المرتعشة ونظرات أبوه "لطفي"، خانت قواهم

وزاغت عيونهم وخارت عزائمهم، فوات السنين ومضي العمر، يفضح سرائرهم، إلا هو، يَثبت ولا يهتز ولا يترنح أمام ورقة استدعاء تذهب به إلى أيام الجندية. يتشابه الاثنان: العسكرية والداخلية!

اقترب من القسم، لم يهتم بالمقابلة، لم يذهب بخياله بمَن سيُقابل، لا يهم، كم التقى بقادة ورُتب عسكرية أيام تجنيده، أصبحت تلك المسائل من المشاهد البراقة أن تخيفه أو تفزعه، شيء واحد يتفنن في إيجاد إجابة له، لماذا الاستدعاء؟! لم يستطع حل ذلك اللغز، عليه الصبر حتى في صعوده إلى تلك الرتبة من الشرطة، لم ينتظر كثيرًا، أذن له بالدخول، كانت الكلمات تنم على كثير من الاحترام، وعليه الرد بكل جدية دون مراوغة.

س: لماذا قدمت استقالتك من وزارة الداخلية ومديرية أمن دمنهور؟

فهم "الملوم" الموقف، لم يكن الوحيد الذي قدم الاستقالة من المديرية، كان معه كل زملاء دفعته الخارجة من العسكرية وفشل محاولتهم للنقل داخل محافظتهم الإسكندرية ومدى الاحتقار لمشاركتهم في حرب العاشر من رمضان. الآن فهم الموقف، الشرطة تبحث في تلك الاستقالة الجماعية ومن مكان

واحد، مديرية أمن البحيرة، الوزير يبحث عن أسباب الاستقالة..

ج: الآن أعمل بشركة قطاع عام، وسائل مواصلات متوفرة، مساكن أيضًا متوفرة، كل سبل الرعاية والعناية أجدها دون مشقة، حوافز شهرية وسنوية ومكافآت لمن يتميز، عملي بدمنهور يجعلني قبل نهاية كل شهر أمد يدي إلى الوالد لتكملة فقط أجرة المواصلات.

لم يتبرم المحقق من سرد رحلة الالتماس لمكتب وزير الداخلية بالقاهرة ورده الغير مسئول عن حرب العاشر من رمضان وتهكمه على من شارك..

- أليست تلك كل الأشياء كافية لترك الوزارة من أول خطوة أمل؟ والتي جاءت إلينا بطبيعة الحال نتاج ما تعلمناه من خبرة وإجادة العمل.

شعر "الملوم" بسعادة الانتصار بالحق وقوة إقناعه للمحقق الذي لم يرفع وجهه عن أوراقه. زادت فرحته وزادت ثقته بإجاباته، المحقق يُوصى بعدم قبول الاستقالة، أوصى بعمل إجراءات نقل إلى مقر عمله الجديد. لم يتأخر بتقديم كلمات الشكر إلى هذا المُنصِف الواقعي لتقلبات الأحوال.

خرج بخطواته الثابتة العسكرية، ليس بنفس قوتها، لكن بقوة أكبر بكثير مما كان، الآن عليه الإسراع إلى ورشة حارة اليهود وإخبار أبوه "لطفي" بما حدث.

* * *

لم يأخذه الحنين إلى الحبيبة الراحلة، لم تأتِ إليه منذ أن رفض طلبها الصعب للحاق بها، لن يُقدم على الانسحاب من الحياة بأي طريقة كانت، ما زالت آماله في تكملة خطواته بتلك الحياة ساخنة لم تبرد أو تهدأ أو تمل، هي الآن في مستقرها الأخير، كلما كان يفرك قلبه تأتيه على مهل، لا يُعجل بالمجيء أو الذهاب إلى سور المدافن، ينتظر اللقاء، نعم كان يتمتع بجمالها وثوبها الشفاف وكلماتها الملتهبة، لا يتمنى أكثر من ذلك، كيف يتمنى وهي لؤلؤة محشورة بين المقابر؟ فينوس حبه "ليلى" الخرساء، يا لها من أيام، لن تعود إليه أبدًا! هو الحائر التائه بين صفحات قلبه المُعذب!

توقف أمام سينما الأنفوشي، لم يستجب للنداء في صالة العرض، مُحال تواجدها، هي تأتيه في وحدته، في ظلمة الليل وسكون الأنفاس، ذكرى الحب والمتعة واللقاء، لن يجدها إلا في طريق واحد، زقاق بندقة، ودرجات السلم ولهيب المُتعة

المستورة في ظلمة الليل. لم يستطع الرجوع عن تلك المحاولة أو أن يبطئ من خطواته إليها، لم يفلح من الهروب من عين سيدة الزقاق، "أم حربي" صاحبة المزاج الرائدة في سُمعة الحشيش الفاخر، حاول عدم الاستجابة لندائها إليه، اعترضته في منتصف الطريق، لم يتبرم بإخبارها بأحوال أمه "شريفة"، خارت قواه أمام كلماتها:

ـ "لملوم"، مازلت تحب تلك الخرساء؟! لا أحد بالمنزل، شقيقها بالسجن، بيتها لا يصعد إليه أحد يا حبة عيني، حبك مفقود بين التُرب، هناك بالمدافن! اذهب إلى أمك؛ عسى أن تجد لك زوجة تلمك من حبك للموتى!

لم يجد كلمات للرد على تهكمها وسخريتها من حبه الأبدي غير أن يرجع إلى الوراء، إلى شاطئ ذكرياته.

التفت إلى مَن تُراقبه ليل نهار من النافذة، "شريفة" أمه، لم يجدها! عليه الجلوس وطلب وقت من الراحة لدقات قلبه المرتعشة، عليه البحث عن سُبل أخرى تُغنيه عن عذاب حبه وفِراق أصحابه، الجميع شق طريقه في الحياة وهو ما زال ساكن راض كل الرضا بحاله وحبه ووحدته! عجب من أحوال الماضي، حافظة خالية من النقود، وعمله الشاق بالبحيرة! تلاشت الآن كل تلك الأحوال، حافظة ممتلئة بالنقود، خال البال

من مشاكل الذهاب والعودة من العمل، كل شيء متوفر، إلا شيء واحد، قلبه الخالي من الحبيب، أخرج غليونه، أشعله عسى أن يزيح تلك الهموم.

لم يجد الراحة التي يتمناها على شاطئ الأنفوشي، عليه الرحيل إلى مكان آخر عسى أن يُكمل له ما يتمناه، اقترب من حلقة الأسماك، صامته سوداء، لا يوجد غير رائحة الأسماك، لا تمثل له قيمة، الشراغيش والمرجان والحبار والكابوريا ولحمة الترسة وسمكة البطاطا، رحلوا كما رحلت حبيبته الخرساء.

لم يشعر بخطواته وهي تتجه إلى حب آخر ما زالت دقاته تنبض بداخله، "بيحة" حبيبة سكنه القديم بجسدها النحيف وشعرها الأصفر وعيونها المتلونة مع نسمات المتعة ، زرقاء، خضراء، عسلية، هي الفاتنة الصغيرة، فكيف حال جمالها الآن؟

صعد على درجات سلم المرسي أبو العباس، دفئ يدها ما زال يشعر به بين كفيه، شقاوة بسمتها ما زالت تملأ عينيه، التفت إلى قلعة قايتباي، ما زالت شامخة، لم تختفِ بعد، كيف اختفت "بيحة"؟! لا توجد إجابة إلا الانتظار مع الصبر ومذاق حلاوة ذكراها.

تحاشَ النظر إلى تلك الغانية، تحوم حوله من بداية جلسته، ظلمة الليل وسكون أنوار المساجد، تختفِ وراءها، حاول أن يبطئ في خطواته، وكما توقع، تصطدم به! تسكن في صدره، اهتز مع اهتزاز وزلزلة قلبه، "بيحة" بشحمها وجسدها الفرنسي النحيف وشعرها الأصفر المختبئ تحت الإيشارب الممزق! نداء الحب يصعد بهما على درجات المسجد، لم يهتم بما أحاط بها من مهالك الهروب وفقدان ما كانت تصونه، رحل كما رحل حبيبها الاسكافي، تردد في الإفصاح عن فعلته في النعي الزائف الذي أهلك حبيبها، لم يكن وحده الفاعل، كان صديقه هو سبب المصائب التي حلت بها وفقد الخاطب.

ذهب إلى فكر آخر، كيف نجدتها بما حل بها الآن؟ هي بين يديه وفي أحضانه، ما زال من الوقت مُتسع، تلك فرصته في احتواء حبه القديم، التفت إلى العين الراصدة، تحوم من حوله، لم تتأخر في الإسراع بالهبوط معه على درجات المسجد، سعد "لملوم" بعربة الأجرة القادمة، أشار إليها، لم يصب من لكمة المُعترِض لهما، لكمه هو الآخر لكمه قوية أسقطت المُهاجم على الأرض!

أسرع "لملوم" بالقفز بحبيبته داخل العربة التي أسرعت بالرحيل، فهم مَن هو الرجل، هو القواد المُنسِق الليالي مع

الزبائن، لم يدرِ إلى أين يتجه؟! عليه التفكير وبسرعة في الخطوة القادمة، وأهمها مكان لمبيت محبوبته.. شقيقته "ثريا" تعرفها ولن تقبلها. الخالة "نرجس"، نعم هي كفيفة وتحتاج لمن يراعاها ولا تعرف أي شيء من أحوال "بيحة"، لا صوت ولا صورة ولا معلومة، تجهلها تمامًا. سعد "الملوم" بقرار الذهاب إلى الخالة "نرجس"، ستسعد بعمله في إيجاد مَن ترعاها بالليل والنهار.

لم يصبر، التصق بجسد حبيبته، حدثه السائق من خلال المرآة الفاضحة لحبه:

ـ مكان ليس به نور يا أستاذ؟

رد من بين نُعاس الحب وحلاوته:

ـ سيدي بشر، شارع خالد بن الوليد، وحياة أبوك.

* * *

لم تلتفت إلى مياه شاطئ سيدي بشر، فرق شاسع بينه وبين شاطئ الأنفوشي ورواده، هناك عيون حانية تجذب وتضم القلوب، لا فرق بين كبير وصغير وغني وفقير، أبيض وأسود وأحمر، الجميع يشع بالحب والود والتواصل. هنا لا أحد

يتحمل أحد! جبهات مرفوعة مُتأففة من كل مَن حولها، مُتعة الرفاهية تعلو بهم في أعالي السماء.

كانت في حسرة من مشهد أصابعها، آثار غسيل ملابس الخالة "نرجس"، ومداومة استعمال أدوات الطبخ، شوهت أظافرها الخالية من طلاء الأظافر! أسبوعان فقط يفعلان فيها ذلك التشويه! فما حال الأيام القادمة؟ عليها الصبر مع حُبها الذي أتى إليها، كم حامت في ميدان المساجد بحثًا عن الحبيب المفقود، "لملوم" الآن في متناول قلبها وجسدها المُنتهك من أصابع الزبائن دون رغبة ولا حب! عليها الصبر مع الحب الناقص من مشاهد المتعة واللذة التي تنتظرها من حبيبها "لملوم".

برودة الهواء تخترق جسدها النحيف المُصر على الانتظار، ميعاده لم يحن بعد، هو يعرف ميعاد فسحتها كل يوم، كم أفضى إليها بعذاب إنهاء ساعات العمل للتلاقي وإحياء ذكريات الحب! "بيحة" تخرج من بين ثغره كأجمل لحن، مع أعذب صوت. أزاحت عنها فكرة إلى أين قد ينتهي حبها لـ"لملوم"؟ هل سيوفي بالوعد بالزواج أم ماذا؟ (ماذا) تلك لا تريدها أن تأتِ إليها، كفى بالحب الناقص من الآهات وتأوهات الفراش. عليها أن تصبر معه، لكن هل سيصبر هو الآخر أم

سيطلب المزيد؟ لا بأس، ستعطيه ما يريد، ستفتح له أبواب حبها على مصراعيها، لن تعطِ لحظة فِراق لحبيبها، كفى ما فُقد من تلك اللحظات التي لا تُعوض.

احمرار وجهها يفضحها، "الملوم" قادم يُسرع في خطواته يحمل متاع كل لقاء، لم يبخل، دائمًا يأتِ بالمزيد.. لم تهنأ باللقاء، هناك ما يخفيه! هكذا حال حِس المرأة ، نبرات صوته ونظراته تُنبأ بأخبار غير سارة، انكمشت في صدره، لم تعبأ بالمارة أو بنظرات مَن حولهم..

القواد صاحب مُتعتها المحرمة عرف طريق عمله، بل وصل الأمر أن هدده بالقتل إن لم يُعيد رأس ماله وحافظة نقوده! "بيحة" تفلت منه إلى يد لم تقدم أي عطاء يرضيه بالابتعاد عنها والصد عن المراقبة والتهديد، لم ترضى أن يُقدم "الملوم" له ما يستطيع من المال، هي تعرف أن قوادها لن يرضى إلا بالكثير من المال، هكذا كان حال صويحباتها من النساء الهاربات من الليالي الحمراء وشقاء كل ليلة في جذب الزبائن! يجب البحث عن حل آخر، لكن كيف؟ القواد يعرف مكان عمل حبيبها والذي من الصعب بل من المُحال تركه، البحث عن حل ينهي المشكلة بلا رجعة.

لم تلتفت إلى ما أحضر "الملوم" من لفائف الطعام، لا سبيل إلى تذوقه أو حتى النظر إليه! كل الدنيا سوداء في عينيها التي انهمرت بسيل الدموع ومرارة الحياة، هي في لذة الحب وقناعته، خادمة ترضى كل الرضا بذلك الشقاء، تصبر مع الحبيب الواعد لها بالزواج الذي سيأتي ولو بعد حين، لا تريد العودة لحياة الزنا والليل والمطاردة التي نهايتها الشرطة وسجل الآداب وعذاب الآخرة، نهاية مشئومة لا تريدها، أبعد الوصول إلى أحضان الحبيب تتخلى عن فرصتها في الحياة المطمئنة والعيش في هدوء الأيام؟!

ـ لا، لن أتخلى عنك.

لم تشعر بارتفاع صوتها، إلا من نظرة المارة والجالسين من حولهما، جمع "الملوم" لفائف الطعام، أمسك بيدها، كانت مطيعة لما يفعل من العبور بين المساكن تاركًا الشاطئ، لم ينجح في تهدئتها ولو بكلمة واحدة كانت تنتظرها من ذلك الحبيب، الزواج، هو نهاية تلك المشاكل والصد وغلق جميع الأبواب أمام ذلك العربيد، قواد نساء الليل. لم يفهم ما لمحت له بخاطرة الزواج، أهو يتغابى أم يتجاهل تلك الفكرة؟!

لم تُكمل السير في اتجاه بيت الخالة "نرجس"، كانت تنتظر إلى عينيه عسى أن ترى كلمة الحب الرحيم تخرج من بين

شفتيه، هي على قناعة بسيرتها بين أهل حارتها، وخاصة أهل حبيبها "الملوم"، يعرفون قصة الهروب والاختفاء. "شريفة" أمه، خبيرة الحياة وسيرة الحب ومتعة اللذة، كل تلك الأحوال لا تُغلق أبواب الرحمة والصفح والنسيان.

قبض "الملوم" على يدها، دِفئ يده يصل إلى قلبها، لم تتمالك نفسها من الفرحة والنبأ السعيد..

- لنذهب إلى الخالة نرجس، ونخبرها بالزواج.

* * *

(الرياح لم تأتِ بما تشتهي السفن)

سرح "الملوم" في تلك الكلمات، نعم، كيف يرحل شقيقه "علي"، بوغاز الإسكندرية مُغلق، السفر إلى القاهرة ينذر بالمصائب من حوادث الطرق، فكيف الوصول إلى أرض المطار بالقاهرة؟

صفير الرياح تصم الآذان، رخا المطر تأتِ ثم ترحل! لم يرضى بالحل الآمن، السفر عبر القطارات، ما زالت مشاهد الرحيل إلى العسكرية تدور في رأسه، حاول بقدر ما يستطيع أن يصد شقيقه عن السفر عبر ما يكره، محطة مصر, بوابة

كئيبة وقطارات تذكره برحيله المتكرر وعذاب بدلة العسكر الصفراء.. رضخ في آخر الأمر، كما رضخ أمام خطوات شقيقه في إنهاء إجراءات الهجرة إلى استراليا، قرار به كل شيء من القُدرة على تحمل الفراق، فِراق الأحبة: أبوه "لطفي" وأمه "شريفة". أما هو فمُفارق منذ سنوات لدفئ الأشقاء! كل منهما يعرف طريقه إلى الحياة.

"علي" له كل الحق في وداع وطنه، لا حبيبة ولا صُحبة، فشل مرات في الوصول إلى عروس مناسبة، وكم خسر من أموال للوصول إلى تلك الغاية! الآن قراره الأخير هو الرحيل إلى بلاد الحرية وكل ما تحلو إليه نفسه؟ هو يحب تلك الحياة بما فيها من كل شيء مُباح، قفزة عبر القارات، ليستقر في أرض خِصبة وأصحاب جُدد ونساء يعشقهم. كان مُطمئن بتواجد عمل له، حان الوقت ليستفيد بمَن عرف من السائحين الأجانب، لغته الانجليزية خير مُعين له في التواصل معهم، وعظمة الأنفوشي بماضيها العريق وما تحوي من الآثار، من أهم أسباب علاقته بالأجانب؛ وتسهيل كل شيء من سبل استكمال أوراق هجرته.

لم ينتبه "الملوم" لتوقف المطر، انتبه إلى شقيقه "علي"، قد أزف وقت الرحيل، غادر جلسة الوداع، لا يريد أن يرى

مشاهد عذاب أمه وذهول أبوه "لطفي"، أسرع بالخروج والانتظار خارج البيت، ما أشبه هذا الفِراق والوداع بفِراق مَن يتوارى جسده بالمدافن! هُما سواء الآن، رحيل إلى مجهول لا يُرى له من عودة.

نظر إلى النافذة، أبواه في حالة من الهلع والخوف والرجاء، يترقبان زوال المشهد الأخير لشقيقه "علي"، الخطوات تسرع للحاق بترام محطة مصر, لم يلتفت إلى دموع الرحيل من شقيقه، نظره معلق بنافذة منزله، اطمئن لا أحد بالنافذة، لم يهتم كثيرًا برحيل "علي"، هناك الاهتمام الأول والأخير بحبيبته "بيحة" في بيت الخالة "نرجس"، لم يستطع البوح بزواجه لشقيقه، ما الفائدة؟! هو راحل عن كل شيء، الأنفوشي وأهل الحارة والجيران، والتي منها حبيبته وزوجته ، لم يقدر على تقديم قليل من النقود، فهي بالكاد تكفِ حياته الجديدة، ابتسامته تفضحه من المبيت خارج البيت عند الخالة لرعايتها في وحدتها، كم سعدت أمه "شريفة" بهذا العمل، والده كان يشعره بأن هناك شيئًا يُخفيه!

التفت إلى شقيقه، ما زالت الدموع تملأ عينيه، قبض على يده، محطة القطارات تظهر لهم، لم يعطِ الفرصة لـ"علي" بصده عن شراء ما يُعيد ذكريات الماضي، هريسة العصافيري

وجدته "أم صابر"، كان مطيعًا لرغبة "علي" بعدم الدخول معه والصعود إلى القطار، لم يتوقع أن الوداع بهذا الجفاء! الاثنان لا سبيل لهم من عِناق، كلمة واحدة هي السلام ومتابعة خطواته خارج المحطة!

لم يشعر "الملوم" بمرور كل ذلك الوقت، عليه الآن الإسراع إلى سيدي بشر ولقاء حبيبته في بيت الخالة، لم ينس المرور بسوق عمر باشا وشراء ما يلزم حبيبته "بيحة" والخالة "نرجس"، وإعلان خبر رحيل شقيقه إلى استراليا، التفت إلى مستشفى أحمد ماهر، كم سمع عن شهرتها في خدمة النساء في الولادة ومُتابعة الحمل، عمل القابلات أصبح من أمور عدم التحضر، الطب والعلم هما الآن سيدا الموقف، لم يتمنى تلك الأمور الشاقة عليه وعلى حبيبته، يريد أن يُطيل فترة الحب بقدر ما يستطيع من مغازلة ومداعبة ولعب، سنوات الشقاء لا يريدها، كفى ما عانى من شقاء الحاجة وقِصر ذات اليد وألام نظرة الاحتياج، لن يرضخ لطقوس الخنوع للحياة ودرجاتها الزائفة، ما زال من الوقت مُتسع، "بيحة" ما زالت في توهج و عنفوان جمالها، لا يريد أن يطفئ شمسه الدافئة، كم يتمتع بندائها اللعوب:

- "الملوم" قمري الذي لا ينقص ولا يغيب.

نعم لا يريد أن يتناقص أو يغيب من سماء الحب وزوال سحر جماله المُلتهب على شواطئ الحب وأمواجه الهائجة، التفت إلى محلات سلطان الفسيخ، لم تعجبه رائحة النتن والأسماك المملحة, أعجبه ما يحب أن يتعاطاه كمثل باقي الرجال، الكافيار بلونه الفاتح فاتح شهية الرجال، أصابع مُنتصبة واقفة وقوف المُتأهب للغوص بالفراش ، أسرع بالرحيل من أمام أثير الحياة، حافظة نقود لا تكفِ، يؤجل إلى حين.

عبر إلى الجهة الأخرى، رائحة الفلافل تجذب المارة بمطاعم البغدادي، الخالة "نرجس" توصيه دائمًا بالعودة بها، سعد بكرم البائع، كمية عجين تلك الوجبة أكثر مما دفع من نقود.

الآن كل ما يلزم أتى به، ينقص شيء واحد، لا يقدر على نسيانه، الجبن التركي، كم تحبها حبيبته! هي المُكمل لمتعة العشاء، لم يقدر على الذهاب إلى بحري، محلات عمار وقدري وعم زكي من أفضل محلات الجبن التركي، قريبه من بيت أمه, كم يخشى أن يأتيه قدره فيقابله أبوه "لطفي" ويرى ما يحمل من طعام، إلى أين يذهب؟! لا سبيل إلا العروج إلى محرم بك، هناك البضائع الفاخرة ومن ضمنها الجبن التركي.

لم يستطع التراجع، عمته "جميلة" وبناتها أمامه! لم يسلم من سخريتها من أمه "شريفة" حتى في الطريق وأمام المارة! اهتزت أطرافه أمام نظراتها لجسده وكلماتها اللاذعة، حاول أن ينفي زواجه وأنه ما زال أعذب، فر من أمامها وضحكاتها تصم أذانه، لا يريد التفتيش الدقيق في معرفة ما يحمل من طعام! توقف أمام عربات الأجرة، لا يريد أن يصعد للعودة إلى الخالة "نرجس" وحبيبته قبل أن يفحص جسده، عمته كانت تنظر إلى بطنه، نعم برزت إلى الأمام، حزام بنطاله بالكاد يكفي لربط وسطه! ارتعش مع خفقان قلبه! كم من المرات نظرت إليه أمه "شريفة"، هي نظرات عمته "جميلة"، بطنه تفضحه، تكشف تمارين الفراش بين الحب واللعب، صعد إلى السيارة وهو يعقد نيته بعدم تناول طعام العشاء!

* * *

القطار وأزيز العجلات ورحيل الأحبة، قطار كئيب يُذكره بما يكره، من ليالي السفر إلى معسكره، تساوى السفر هنا بمصر هناك بالقارة الجديدة، استراليا! لا سبيل إلى التراجع، هو الفشل والضياع، نعم حرص بالحصول على أجازة من عمله الحكومي بالإسكندرية، لكن التراجع عن السفر، يُكلفه

عدم عودته للعمل إلا بعد انقضاء أجازة العام التي طلبها، أمر العودة لعمله محفوف بالصعوبات، لا مفر من مواصلة خطوات الرحيل.

لم يهتم بنظرات الراكب أمامه، يفحصه من أخمص قدميه إلى شعر رأسه, لا يطمئن لتلك النظرات والمتابعة بلحيته البيضاء وجلبابه الأبيض، حاول أن يزيح هَم كيفية الرجوع إلى عمله وإلغاء أجازة العام، أفكاره دائمًا في قمة التهور! كم عاتبه "الملوم" على تلك الخطوة، هو يصر ويستمر حتى وصل به الحال إلى هذا القطار وتلك الرحلة. لم تعجبه ابتسامة الرجل الشيخ! بوابة لفتح الحديث، كان ما توقع.. عرف الشيخ حكايته، لم يطمئن إلى هذا الصمت وعبوس الوجه، منذ لحظات كانت الابتسامة مفتاح الحديث، الآن الصمت هو نهاية اللقاء! لم يتوقع هذا الصمت وذلك العبوس.

انتبه إلى القطار ينهي آخر محطاته مقتربًا من محطة رمسيس، راجع الحقيبة بما تحمل من نسمات شاطئ الأنفوشي وذكرياته الآخذة طريقها إلى الزوال، لم يمتنع عن مساعدة الشيخ بالهبوط إلى الرصيف، حاول إفلات يده من قبضة الشيخ، لا فائدة من الفِكاك، قبضة الشيخ تصر مع نظراته في عدم إفلات يده والسير معه إلى خارج المحطة، لا يدرِ ما

العمل في مثل تلك المواقف؟! عليه أن يصبر مع خطوات الشيخ المقتربة من موقف عربات أحمد حلمي. أخيرًا فك أسر يده، هب عليه شغف الإسراع إلى العربات والعودة مرة أخرى إلى أحبابه بالإسكندرية، هناك كل الحب والطمأنينة والنوم الهادئ، هنا عليه الجلوس في إحدى المقاهي حتى بزوغ الفجر واللحاق بالطائرة. التفت، ما زال الشيخ يراقبه! بل ويسير خلفه! نعم لم تكن هناك كلمة وداع، كان الفكاك يحمل الوداع والشكر، والخلاص من تلك اليد القوية، حاول أن يصل إلى نهاية لتلك المراقبة ومتابعه الخطوات، عليه هو الآن أن يفتح بوابة الحديث، لم يجد إجابة عن مكان للمبيت حتى الصباح، خرجت كلمات الشيخ مثل موجات شاطئ البحر:

ـ البيات عندي يا "علي"، بيتنا على الرحب والسعة لاستضافتك، لا تستغرب من معرفة اسمك، اسمك مكتوب على الحقيبة، لا تخف مني، كنت أراقبك منذ الالتقاء بك في القطار، أنت في صراع بداخلك، نظراتك توحي بشيء، اهتزاز رموش عينيك تفضحك، اهتزاز يدك تنذر بأشياء كثيرة.

لم ينبس "علي" بكلمة، صار معه في صمت، كان يشعر بسعادة لم يعهدها من قبل، هذا الوجه وتلك اللحية كم تقابل معها في أحلامه! الآن لا مانع من تكملة مشوار الأحلام، لن

يخسر شيئًا من تلك المقابلة وذلك الرجل، صفات الإيمان والتقوى تشع في كلماته وعينيه، لا شيء من القلق غير تلك القبضة القوية التي أسرته ثم أطلقته مرة أخرى!

انتبه إلى أهل الشيخ، يستقبلونه بهالة من الوقار والأدب، لم يشعر معها بغربة المكان، لم يتوقع أن اللقاء بهذا السخاء والكرم والحفاوة، لم يتردد في الإفصاح عن مهمة الرحيل والهجرة إلى استراليا، لم يخفي شيء عن ذلك الشيخ، حكي حياته بتفاصيلها وما بها من مشاق، كان يريد من هذا الحكي أن يصل به إلى بر الأمان من الاستمرار في خطوات الرحيل، أم الرجوع إلى مستقره وحياته بالإسكندرية؟

هو الآن ينظر إليه يفحص ملامح وجه ذلك الشيخ التقى، ينتظر الإجابة الشافية لما يعاني من عذاب أخذ القرار, خاب أمله! الشيخ ينهض، يتركه ببضع كلمات:

ـ عليك أن تؤجل السفر ليوم آخر، لا تنعى هَم المبيت، أنت في ضيافتي، غدًا نستكمل الحديث..

تابع خطوات مغادرة الشيخ، كان عليه هو الآخر أن يستريح من عناء السفر وعناء الوصول لبر الأمان في المغادرة أم الرجوع من حيث ما جاء؟

* * *

لم يتأثر جسده ببرودة الهواء، لم يلتفت إلى السماء، تُنذر بسقوط المطر، يألم فقط من تسلل المياه داخل حذاؤه، تردد كثيرًا في شراء حذاء جديد، كم نوى الشراء، يتراجع في لحظاته الأخيرة! يجب صرف النقود في أشياء أخرى، انكشف الحذاء، يُعلن عن نهاية مدة صلاحيته والتي انتهت من أعوام فائتة، لا أحد من أبناؤه يقف بجانبه، "علي" رحل، ليس في إقليم من أقاليم مصر، لكن إلى قارة أخرى، لم يصله أي شيء عنه حتى الآن، مضت شهور، كان يتوقع أن يصل حتى أقلها خبر وصوله إلى استراليا. "الملوم" ولده لم يرحل، هو الآخر لا يظهر ولا يأتِ إليهم إلا قليلًا! عذره رعاية الخالة "نرجس"، كم تحمل شقاء الأيام حتى أصبحوا رجالًا يُعتمد عليهم، هم رجال خيالات مآته ، أكذوبة خدعته عبر سنين عمره! "شريفة" امرأته هي الأخرى لا تهتم به وبما يرتدي، شتان بين سنين حبه وشبابه وبين سنين زوال كل شيء! ملاحظات قص شعره وتأنق هندامه، راح وذهب مع ذهاب السنين والأيام! "شريفة" لا تهتم بأناقته وشعره، جسده لا يتحمل هواء الشاطئ، لا سبيل إلا لتلك الخطوات داخل الأزقة والأمكنة الضيقة.

السيالة ما زالت تحتفظ بمنازلها القديمة وشوارعها الضيقة، رائحة الماضي لم ترحل عنها، القوارب هي نفس القوارب، أهلها لم يتغيروا، لا يرى أثر السنين عليهم! لماذا يشيخ هو وتذهب صحته وعنفوان قوته؟! امرأته "شريفة" ما زالت متألقة، بجمالها الذي لا يشيخ، هي كذلك الدنيا حظوظ لا تعطِ الجميع، تنتقي وتختار وتُهمل مَن تُهمل!

التفت إلى الحانوت القديم، كم كان يُمتع عينيه برائحة الشيخ بيرم، كم تخيله وهو يفتش بين الأوراق عن شيء يقرءوه، بيرم كانت ثقافته من أوراق المبيع من السكر والشاي، الآن الحانوت يسكنه الاسكافي بالماكينة الكهربائية ومقاعده المجلدة، رائحة أدوات تلميع الأحذية تزكم الأنف، كما هو حاله مع أدوات صنعته من الكحول والجملكة والصبغات هي الأخرى تزكم العين والأنف في آن.

في أوصاله تدب رائحة الكراهية لما يُحب، شاطئ الأنفوشي ورماله البيضاء، أصبحت أكذوبة من ضمن أكاذيب الماضي الخادعة بكل ما تحمل من جمال! الآن يسير بخطواته إلى أماكن التيه عسى أن تخدعه وتُظهر إليه شاطئ يستريح عليه.

التفت إلى السماء تُمطر بدون رحمة، حذائه الممزق وأقدامه الماضية إلى الزوال، هكذا علامات الانقضاء قادمة قادمة، احتمى بمظلة الحانوت المغلق، لم يدرِ أيبتسم أم يكمل مسيرة أحزانه؟! علبة من الكرتون لم يصبها الماء، ترقد بجانبه، هي تبتسم له كي لا يخجل من حملها، تُنقذه من المياه المتسللة إلى أقدامه. التفت إلى المارة، لا أحد يسير بالشارع الضيق، إلا القليل ليَختبأ مثله بسرعة في الخطوات للوصول إلى غايته. رحلت الابتسامة، لم يقدر على الانحناء والتقاطها. زميل يؤانسه في الاحتماء من المطر، انتفش أنفه، رائحة الفلافل الساخنة تفوح من زمالة تحت المطر، الخبز الساخن ما زال مُحتفظ بدخان بخاره، الأمور كلها مشجعة للالتهام والتمتع بتلك الوجبة، اكتملت حفاوته بتلك الوجبة، المطر ما زال على أشده والوجبة جاهزة، فكيف الوصول إليها. التقط علبة الكرتون، قسمها نصفين، خلع حذاؤه وضع ما يسد نفاذ المياه إليها، كان ما توقع، الصاحب المنتظر يمد إليه رغيف الخبز مع بعض حبات الفلافل، لم يقدم إلا قليل من كلمات الشكر لمَن أعطاها إياه، كان يتمنى بعض قطع المخلل أو الفلفل الأخضر، لم يدرِ برحيل زميل المطر، رحل عنه، كما رحلت الأمطار، هو أيضًا عليه الرحيل، لكن إلى أين إلى أين؟

وقف في منتصف الشارع الضيق المظلم، خلع حذاؤه، ألبسه في كفيه كسواري كسرى، النوافذ مغلقة لا يظهر منها إلا بصيص من النور الخافت، وعليه أن يأمر بالفتح وسماع ما كان يتلوه في الماضي، ما زالت عقيدة فكره تجبره إلى الخوض في ماضيه بما خدعه من جمال، كانت صرخته سرمدية تأمره بأعلى صوته:

اصحى يا نائم وحد الدايم

اصحى يا غفلان فوق من غفلتك

اصحى يلي ضاع شبابك في عز بهجتك

اصحى يا عجوز شاركني في محنتي

اصحي يلي بجمالك بتسوقي حملتك

فرح بفتح النوافذ، لم يعجبه المرأة بجمالها وشالها الأبيض، أشار إلى الرجل خلفها، هو بغيته، نحيف علامات الشقاء واضحة جلية عليه:

ـ أنت يا غفلان عن مصيرك أنظر إلى العبد الغفلان مثلك،

غفلتي رحلت بعد فوات الأوان،

امرأتك مثل امرأتي، تنخر في عظامك بالليل وتنخر في كيسة نقودك بالنهار، كلهن سواء ساحرات جميلات مائلات مميلات، في كل شيء!

التفت إلى النوافذ، كلها تفتح، لم يشاهد المرأة، الرجل يقف وحيدًا لم تكتمل سعادته بفِرارها، قوارير الزجاج تسقط على رأسه، مياه المراحيض تسكب على جسده، لم يقدر على الصمود أكثر من ذلك، مُنقذه الوحيد شاطئ البحر، لا نوافذ ولا أناس تصده عن الإفصاح عن لياليه السوداء!

* * *

تراخ وتردد في العودة إلى مستقره الجديد بالقاهرة، ضميره يؤنبه بل يعذبه ليل نهار. لم يعرف كيف وصل به الحال إلى تلك الزوجة وهذه العائلة وذلك الدار؟! هو الآن يحيا حياة كان يتمناها، بعد نجاح عودته للعمل بعد قطع أجازة العام.

التفت إلى شاطئ النيل كم هو جميل، يُذكره بشاطئ الأنفوشي، لم يقدر على العودة إلى الإسكندرية بعد ما قدم له من خدمات من شيخ القاهرة، كانت آخرها تقديم ابنته له كعروس تُسعد أيامه ولياليه عِوضًا عن أبوه "لطفي" وأمه "شريفة"، وها هو النيل يُقدم له خدماته بأمواجه الهادئة يخطو

إليه بعد خروجه من عمله الجديد، جهد كبير من الشيخ في نقله من الإسكندرية.

الآن يخلو بنفسه ليعرف ما هي الخطوة القادمة، خطوة تلح عليه للعودة إلى الإسكندرية وإعلان نبأ عدم السفر والزواج والاستقرار بالقاهرة، مضت الشهور ورحلت دون أن يدرِ كم عددها، لذة الزواج وفرحة العمل أفقدته أحاسيس الحنو على الأهل، أحاسيسه تُغرقه في الخِداع, لا فرق بين استراليا والقاهرة في البعاد عمَن يُحب، تساوى الاثنان مع استقراره الجديد.

التفت إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون، كم كان يشتاق للتنزه والتأمل، صرح لا يُشاهده إلا في برامج التلفاز وصور الجرائد، جلس أمامه، لم يغفل عن النظر لمياه النيل من وقتٍ لآخر، التفت إلى من ينادي:

- علي يا عم علي

أطرافه ترتعش، غير قادر على الوقوف ومواجهة النداء، "أبو فؤاده" بشحمه ولحمه وقبعته المميزة بريشة القراصنة! يعتلي عربة الحنطور المزينة بأكاليل الورد، كان هناك بالإسكندرية المُستقبِل لرواده من السائحين الأجانب، في ساحة المرسي أبو العباس وقلعة قايتباي وحديقة الزعيم سعد زغلول،

الآن بالقاهرة وعلى شاطئ النيل.. سعد باهتمام "أبو فؤاده" بما جرى له من أحداث، لم يتغير مزاجه العفوي، هناك يتناغم معه في أحاديث اللغة الانجليزية، هنا يتفاعل مع أحداث الزواج وذلك الشيخ وتلك العروس! حزن بخبر موت ولده الوحيد بعد أن أصابه الجنان، كم كان يزعج الجيران بتصفيقه المستمر وصياحه ليل نهار!

انتبه إلى ملاحظات "أبو فؤاده" في عدم مبالاة الشيخ والد العروس وإهماله صِلة الرحم بوالديه، من الأَولى بأقل القليل إخبارهما بالزواج وإحضارهما لإتمام مباركات الزواج السعيد، لم يقدر على المواجهة فيما أفصح به من ناقصات، وأهمها ذلك الشيخ وتلك اللحية وهذا الالتزام أمام هذا الجفاء لأهله بالإسكندرية!

تابع "أبو فائدة" وهو يهرول لصيد زبائنه من السائحين، كانت فرصته ليهرول هو الأخر بفكره، "أبو فؤاده" أفصح وكشف له سوءة والد زوجته! نعم شيخ ملتزم، لماذا تغاضى عن دعوة والديه "لطفي" و"شريفة" ومباركة ذلك العرس؟! حاول أن يجد تفسيرًا لما جرى من أحداث، لم يفلح، حاول اللحاق "بأبو فؤاده" عسى ألا يخبر "لطفي" و"شريفة" بنبأ زواجه، لم يقدر أن يطمئن لنصيحته بعدم الإفشاء، هو نافذة

إعلامية لكل ما يمتلك مَن أخبار! هذا حاله دائمًا يفضح القريب والبعيد، كم فضح رجال حارته ومغامراتهم النسائية في عربته الحنطور، كم أفسد من ذات بين العائلات نِتاج ثرثرته بين أهالي الأنفوشي! عليه اللحاق به قبل فوات الأوان وفضح أخباره!

* * *

شمس النهار تنحني طواعية لهبوط الليل، شوارع الإسكندرية تفزع من قلة روادها وخلوها من المارة، سيارات الأمن تجوب الطرقات وتقتحم الأمكنة؛ عسى أن تجد مَن تبحث عنهم في الليل والنهار! الزعيم المؤمن صاحب الغليون وعصا فرعون يغضب على مَن أعطاهم كل الحرية في أن يصولوا ويجولوا للإطاحة بتيار اليسار، الجماعات الإسلامية تنسى يد الفضل في حريتها وانتشارها بالمساجد والزوايا، طالت ألسنتها وتعدت الخطوط الحمراء والصفراء والزرقاء، مست أجنحة الهيمنة الكبرى في شخص الزعيم المؤمن، القائد الأعلى للقوات المسلحة.

لم يقطع خطواته أو يتوقف لأخذ بعض الراحة، التفت إلى شارع فؤاد، خال تمامًا من المارة، مثله مثل شارع مُجمع الكليات، هما سواء في سكون الموتى وثبات الأحجار.

بالأمس القريب كان في صراع بين شبابه وما وصل به الحال من الشيخوخة وقلة الحيلة وذهاب المال والأحبة، هناك في حي السيالة المواجهة بينه وبين أناس على شاكلته، تواضع في الرد بقوارير الزجاج ومياه المراحيض. الآن الجميع في مواجهة للغازات وأساليب قمع لم يَتعود عليها، حديثة متطورة، موضة متطورة مع تتطور الأحداث!

عرج إلى شارع النبي دانيال، هو أيضًا خال إلا من بعض المارة، هم مثله لم يهتزوا من مسيرة الأحداث، كبار السن من أمثاله والعجزة...

لا خوف من السير، ولا سبيل لهم من الاعتقال، عالة هو وهم سواء، لا خوف إلا على الأبناء، أين أبناؤه "لملوم" و"علي"، الخوف كل الخوف على ولده "لملوم" من تلك الأحداث والصِدام مع سلطة الزعيم المؤمن. "علي" لا خوف عليه، هو بعيد المنال عن تلك الأحداث، رحيله إلى استراليا، المَنفَذ الآمن له من تقلبات الأحوال بمصر المحروسة.

التفت إلى محطة مصر, إنارة خافتة، حتى وجوه المارة شاحبة، لم يهتم بمَن يبتسم له، بل ويتجه إليه، تُرافقه امرأة في عز توهجها وشبابها، مثل يوم عرسها.

لم يستطع "لطفي" الصمود أكثر من ذالك، خارت قواه، أقدامه لا تقدر على حمله، التقطه ولده "علي" قبل أن يسقط على الأرض!

* * *

لم يلتفت إلى شاطئ الأنفوشي، لم يرحل إلى حبه السرمدي بزقاق بندقة ودرجات سلم فينوس الخرساء، لن ولم أماكن لا يجد بها ما يذهب عنه زل المصائب وتواتر الأحزان، فرحته بحبه الذي طال انتظاره حتى أتى إليه بما كان يحلم بالسعادة والهناء، تدفئ له فراشه، تُنعشه بالحب الذي لا يشبع منه ولا يَمل، "بيحة" الحبيبة الواعدة بالحب كيفما شاء وأي وقت شاء.

لم يستطع كتمان ما جاء من أحوال، أصبحت المشكلة في اتساع! الخالة "نرجس" في طريقها إلى الرحيل، مشاهد الزوال من الحياة تظهر بأحوالها وأفعالها، كم تُعانى حبيبته "بيحة" من تلك المشاهد ليل نهار! قلق وحيرة من القادم، القادم أسوء، الرحيل من شقتها، أصحاب العقار في ترقب بالليل

والنهار ينتظرون ساعة موتها والانقضاض على الشقة وطرد مَن بها! لم يفكر يومًا في تلك العواقب والنتائج.

المشهد يقترب من الطرد والخروج إلى الشارع، أمه "شريفة" لن ترضى عن فعلته في الزواج، فكيف ترضى عن كذبته في السكن في بيت الخالة؟! لا سبيل إلى الصفح أو الرضا عما فعل، "الملوم" حبيبها يخدعها، يغشها، فرحتها بزواجه ذهبت أدراج الرياح! والده "لطفي" لا حيلة له في أي شيء من الحل، تارك نفسه لظروف القدر تلعب به كيفما شاء، لم يستطع الإفصاح عن زواجه من "بيحة" إليه، تكفي والده الأخبار الفاجعة بوصول شقيقه "علي" إليه بالأنفوشي, بل زاد الخبر بمرافقته عروس من القاهرة، تفر معه، من بطش الأمن لهم بالقاهرة وملاحقة صاحب اللحية والجلباب الأبيض أبوها الهارب من الإمساك به، نشاطه الديني يدينه أمام القائد المؤمن السادات! وكان الحل الوحيد هو الرحيل إلى الأنفوشي.

لم يستطع مواجهة اقتراح "لطفي" للذهاب بشقيقه "علي" وزوجته إلى بيت الخالة "نرجس"، المكان مشغول فهو مسكنه وملاذه مع عودة حبه الخفي عن الجميع، لم يلتفت إلى من تحبه ليل نهار, "بيحة" بجانبه تسكن في قلبه تسند رأسها على صدره المعذب بخطوات قادمة قادمة، لا سبيل من الفرار منها،

رحيل الخالة إلى المقابر, والطرد إلى الشارع والخلاء، أو كشف سره بهبوط عروس شقيقه "علي" إلى بيت الخالة، الخوف من القادم، يتمنى ألا تشعر به حبيبته كما يشعر، يتمنى أن تغفل عن تلك المشاهد، أتى بها إلى حديقة النزهة من أجل ذلك، كم حكى لها عن شجرة طرازان، هما الآن تحت ظلها، في أحضان جذوعها المتشابكة، لم ترضى بالدخول إلى حديقة الحيوان، أذعن لتعبيرها الصعب والحزين في آن:

ـ ألا يكفيك تلك الحيوانات التي تتعامل معها؟ الطبيعة والخضرة والهواء الطلق هل يوجد أحسن منها؟ العصافير تغرد ولا نعرف بماذا تبوح، أهو الخصام أو الحب أو الشقاق أو كيفما تكون؟ نحن سعداء بتغريدها ولا نفهمه، يكفينا ما بنا من أحوال.

أشارت إليه، بائع غزل البنات يمر، كم أتى به إليها، تلتهمه في شغف، يبقى على ثغرها الكثير من الحلوى الحمراء، أسرع بالشراء عسى أن تنهي تناولها، ابتسمت، تعرف الخطوة القادمة، تنظيف ثغرها بشفتيه! لم يتأنى في النظر حوله، التهم بقايا الحلوى مع التلذذ بثغرها الوردي، لم تقوى بصد تمددها على النجيلة الخضراء، كان عليه صد أشعة الشمس عن جسدها الأبيض الغض بجسده المتلهف لدقات الحب ورنات

الأنين. مالت الأشجار وتشابكت الزهور وذهبت الشمس في حياء مع سكون الهواء وإنصات العصافير لتغريد الحبيبان:

- "لملوم" قمري الذي لا ينقص ولا يغيب.

لم يستطع إجابتها! العصا الغليظة تسقط عليهما! لا تفرق بينه وبين حبيبته "بيحة"، حاول بكل الوسائل: هذه زوجتي، نحن نتنزه، هذا يوم فسحتنا..

لم ترضخ اليد القوية لتلك الحجج، أمسك بيد حبيبته لتصعد معه في سيارة الشرطة.

* * *

دارت الأيام، واختلط الحاضر بالماضي، رائحة أريكة أمه تعود إليه من جديد، رحلت الأم ورحل مسكنها وفَرشتها الرطبة العَفنة، تعود إليه في عرينه ومقر بيته وبين أولاده، "لملوم" و"علي" وحبيبته "شريفة"، إزاحة جبرية بالشرفة ومن النوم الانفرادي، لم يشعر بالحزن أو النوم هكذا، بينه وبين شاطئ الأنفوشي جدار من الحجارة، برودة هبوط الليل لا يشعر به إلا قرب بزوغ الفجر، صوت أمواج البحر، تعد له الدقائق والساعات، وَضع الأريكة في نهاية الشرفة مثل آخرها تتساوى في عذاب نوم كل يوم، لم يهتز لما أصابه من تلك

العزلة، الحجرات من الداخل امتلأت بأحبة، أولاده "الملوم" مع "بيحة" و"علي" مع عروس القاهرة...

لم يدهش من انكشاف أمر أولاده بالزواج، صديق عمره جامد الملامح بطيء الكلمات ذو العين الواحدة يُنقذ "الملوم" من براثن التحريات، هكذا حظ "الملوم"، مسعد بالتلاقي مع صاحبه المهم، الأولى في مقتل فتوة بحري "السيد النجرو"، وتلك الثانية يُنقذه هو وحبيبته "بيحة" من بطش المباحث والعبث بجسدها. لم يستطع حماية عروس ولده "علي" من بطش "شريفة"، تُسخرها في عمل كل شيء من جميع زوايا الحجرات، لا تقترب من "بيحة" في أي شيء، حاول تفسير تلك المعاملة، لم يركن إلى احتمال عن الآخر، "بيحة" تعرف الكثير عنها، الثانية لا تعرف غير "شريفة" العفيفة الطاهرة، كما أن "بيحة" حبيبة حبها الأبدي "الملوم"، هكذا لم يقدر على حسم الموقف أمام ما تُقدم "بيحة" من فروض الطاعة إليها ومدى المودة التي تُظهرها لها، لا يرى غير تنافس العرائس في إرضاء الكبيرة "شريفة"، كم حظيت امرأته ببهاء الدنيا، ليست مثله, تتنقل بين الحجرات في ثقةٍ ودلال، أما هو عليه الآن إحضار ما يجلب الرائحة الكريهة، تلازمه في ساعات الليل، الدلو الفارغ استعدادا للامتلاء خلال فترات الليل، لا يقدر أن يتعدى ولو بخطوات داخل الحجرات، حظر تجوال،

ومشاهدة تقلبات الحب بين أولاده على الأسّرة، "شريفة" هي سيدة الموقف، لم تهتم بزواج "علي" وانكشاف أمره، عاجلًا أو آجلًا سيرحل مرة أخرى إلى القاهرة، عروسه لا تقدر على فِراق الأحبة من أسرتها وأبوها الشيخ الكبير, كم تمنى أن تقترب ساعات رحيل "علي" وزوجته، الشتاء قادم بما يحمل من شقاء المبيت في العراء بالشرفة، ما زال الوقت مُتاح للتنزه على شاطئ الأنفوشي، لا يستطيع المغادرة، فهي تكلفه الكثير من صرف النقود، طلبات الزوجات التي لا تنتهي، المعتادة في كل الليالي، البوظة المثلجة من محلات مكرم، أبناؤه ما زالوا يطمعون في كرمه وسخاؤه بالليل والنهار! هو وحده المُحمل بهموم الصرف والمُجيب والمُطيع لما يحتاجه البيت. كانت "شريفة" وحدها، الآن أصبحوا خمسة! لم يستطع تذكر ابنته "ثريا"، هو في راحة لعدم دق باب الشقة والزيارة، زوجها ما زال في سبات النوم عما تفعل في غيابه من تأوهات الحب مع الخادم المطيع، لم يستطع الإفصاح لامرأته عن ابنتها "ثريا" وأعمالها الفاضحة، هُن سواء في أرض الشهوة ولذتها المحرمة، كم تمنى الإفصاح، لا يقدر ولا يستطيع التفوه بكلمة، جبان أمام مَن أحب وعشق، "شريفة"، آه من هذه الدنيا القذرة في كل شيء!

نظر من خلال باب الشرفة المغلقة، عرائس أولاده يجهزن لمتعة كل ليل، لم يعجبه جسد زوجة ولده "علي"، جسد ممتلئ باللحم والشحم والأرداف، كتلة متحركة تفقد الأنوثة بأكملها! برزت أمامه "بيحة"، يا له من جسد أنيق في كل شيء، من الصدر والأرداف والسيقان! كم هي جميلة مكتملة الأنوثة بشعرها الأصفر الناعم، هي نعم من بنات بحري، بنت الأنفوشي المتوهجة بجسدها الأبيض الغض.

التفت إلى السماء، نجوم الليل هي وحدها تُشاهده وتنظر إليه، لم يستطع صد ارتعاش جسده، ما الأمر إن كان أمامه شرفات ونوافذ، تفضحه في نومته الليلية؟! كيف سيكون الأمر، هل ترضى امرأته وأبناؤه بهذه المأساة والفضيحة؟ نعم، أبناؤه لا يهتموا بذلك الحال، امرأته هي وحدها لن ترضى بتلك المعرة، ليس حبًا له أبدًا، هي دائمًا في مسيرة الحسب والنسب ورفع الرأس، شفرتها يحملها هو وحده، الجميع يفشل في فك تلك الشفرة ومعرفة ماذا يدور برأسها، وهي كذلك تفضحه، تخترق أم عينيه، تهزم مفاتيح رأسه أمام نظراتها، يا لها من بومة خبيثة ماكرة ساحرة غضة لينة مرمرية الصدر وما حوى من متعة، كم يشتاق إليها والى حبها الدافئ الخبير لكل تقلبات الفراش من البداية والاستمرار حتى النهاية، ارتعشت أوصاله،

اهتزت سيقانه، حضن وسادته، أغلق عيناه ليرحل مع نسمات الحب وإن كان في الحلم.

* * *

أصابها الملل من كل شيء، لم تهتم بفعلتها وفرارها وفقد أعز ما تملك، فلذة كبدها، أبناءها، لا سبيل إلى الصبر أكثر من ذلك، ألا تكفِ تلك السنين من عذاب أهم وأحلى ما تعشقه الحب، جريمة الزنا والحب الحرام، كم عانت من الخوف من انكشاف أمره، تفعله على عجالة، لذة متقطعة، كثير من الحواس تضييع في ترقب خطوات القادم، القادم زوجها، لم ترتوي يومًا من الأيام بجمال المضاجعة! هو لا يعرف أن يحرث أرضها الخصبة، يضع بذرته على السطح، لا يسقِ إلا القليل من أرض الحب، أرض تتلهف لمَن يحرث جيدًا، الحب لا يعرف العنصرية، هو يُحب مَن يُتقنه، خادم زوجها محراثه ارتوت منه كثيرًا، لا تشبع، بل تريد المزيد من نغماته التي تتمنى أن تُسمعها كل مَن حولها من الجيران، تكتمها خوفًا من الفضيحة وكشف فعلتها التي تعشقها.

كان قرارها الفرار والذهاب إلى بغيتها من الالتقاء بالحبيب، لم تصبر على جمع أشياءها الخاصة، أرادت أن

تعرف زوجها بشيء واحد، هو الخلاص من فراشه وأغطيته الزائفة، قناعتها بقرار الخلاص، أهم وأحلى من مَصاغها وكل ما تتمناه امرأة من متاع الدنيا، لم تأخذ إلا القليل من أزياءها المُفضلة للحبيب العاشق، كيسة نقودها القليلة تكفيها لعدة أيام.

التفتت إلى أحياء كرموز ومنازلها القديمة وأكوام القمامة على جانبي الطرق كما وصفها لها الذي في طريقها إليه.

اقتربت من نهاية الشارع ونهاية المنازل الخراسانية، هي في طريقها إلى عشش الصفيح والأخشاب، المنطقة الخطرة كما وصفها لها العاشق جبل ناعسة، لم تستطع صد فرحتها، حبيبها العاشق يخرج من إحدى العشش، لم يكن وحده!

حاولت الرجوع والعودة من حيث أتت، العاشق تحتضنه امرأته وأولاده الصغار!

لم تفلت من يده القوية، زاد الأمر سوءًا، امرأته تساعده في جرها إلى داخل العشة، التقط الصبية حذاؤها، كما لم تسلم من يد امرأته تخلع عنها ثوبها!

لم تحزن بالتقاط الحبيب لقرطها، لم تُمانع بخطوات مُضاجعتها، حتى وإن كان أمام امرأته وأولادها!

الآن تشبع وترتوِ وتشهق مع صفير صوتها، تتمنى أن يصل إلى جميع الجيران!

* * *

كان بالأمس القريب يعترض على رحيل شقيقه "علي" إلى استراليا، هو الآن يعبر وبرغبته إلى تلك المحاولة، السفر إلى الأردن، عسى أن يصل إلى بعض الرفاهية والحياة الرغدة وبريق الذهب في يد حبيبته "بيحة"، نجح في اللعب بأحلامها البعيدة، تمد يدها لتلتقط الحُلي الذهبية، تتحسس قرطي الحلق، يتدلى من أذنيها، تغمض عيناها، لا تريد أن تستيقظ إلا بوصول حبيبها "لملوم" بما يحمل من هدايا ونقود، "شريفة" و"لطفي" باركا تلك المحاولة، انقلب الحال من شقيقه "علي" يريد أن يثنيه من تلك المحاولة، لم يفلح في صده عن السفر, كم لمح له بامتيازه في عمله بالقطاع العام وشركته وموقعه بذلك المركز الحساس بها وتميزه عن الآخرين من الزملاء. لم يستمع لنصيحته، كما لم يستمع "علي" إليه في صده عن السفر في الأيام الماضية.

لم يلتفت إلى ركاب الباخرة ومشاهدتهم مياه بحر الأنفوشي، هو الآن أمام الأنفوشي بمنازلها، لم يفلح أن يميز، هل الحبيبة تنظر إليه من الشرفة؟ نعم المنازل صغيرة، لا تُرى إلا كمثل لعب الصغار!

انتبه إلى المسافرين، أكثرهم يتقيأ من دوار البحر، يترنحون للجلوس ولو على أرض الباخرة، هو ينتشي إعجابًا بنفسه، لا تقيأ ولا دوران ولا خوف من تلك الأمواج العالية علو الجبال.

تمخر الباخرة في ثبات وفي دلال مع لطم الأمواج لأسوارها العالية، مثل حاله في تلك المحاولة من السفر يعرف جيدًا كيف ينقل خطواته في الحياة، يسعد ويطمئن للزميل الذي مهد له السفر والعمل بالأردن، أخبره أن عمله ينتظره لا خوف من أي شيء، أي شيء من الخوف صد أيضًا من أبوه "لطفي" أصحابه في الأردن زملاء مهنته، يرجع إليهم إذا كان في احتياج للمساعدة.

هبط الظلام، النجوم تضيء السماء، بحث عن طيور النورس كانت تُرافقهم من بدأ الرحلة، أين هم الآن؟ كيف اختفوا بتلك السرعة؟! كانوا مع غروب الشمس فوق الباخرة، يدورون ويمرحون بين السماء والماء!

انتبه، وجد ضالته، طيور النورس فوق سواري الباخرة، حالة استرخاء وراحة من مشقة الطيران وإتباع الباخرة، هو أيضًا عليه الآن الاسترخاء مثل أصحابه المسافرين الذين يفترشون المقاعد والطرقات.

لم ينعم بالراحة، عين تراقبه! تقترب منه! عرف مساعد القبطان حكايته وسعيه إلى تحسين حالته بالسفر إلى الخارج، كان يشعر بالزهو، تنقله بين المسافرين بدون خوف ولا دوار ولا تقيأ لفت نظر هذا الصاحب المهم بالباخرة! كان يتمنى أن تشاهد حبيبته كل شيء متاح ومتوفر من مشروبات وجميع العصائر الفاخرة تقدم إليه، لم يخفي عن مساعد القبطان شيء من حياته عن تلك الرائعة أمام الحفاوة والطيبة والبذخ.

لم يتطرق إلى الأحوال السياسية في مصر، مما زاد الاطمئنان عند القبطان الصغير، شيء واحد شعر به: الإعجاب بشخصه، حركته على سطح السفينة و بين الركاب.. كان الإعجاب في ازدياد، غرامياته تُبهر صاحبه، حالة حب فينوس الخرساء وموتها والتواصل معها كيفما شاء، انتبه لعلامات الحزن على وجه صاحبه وفراق "ليلى" الخرساء لحياته السرمدية! لم يستطع صد ارتعاشه وخفقان قلبه، فينوس حبه تأتِ إليه على مهل، تقترب منه، تبتسم له، ما زالت بردائها الشفاف، جسدها يضيء المكان، يشع على وجهه. لم يلتفت إلى صاحبه، تلاشى كل شيء من حوله، لا يرى إلا إياها، أسرع في إجابته لها، تبعها بالخارج، لم تتوقف بل زادت من هز أردافها، جسدها كله يرقص، خصلات شعرها تمرح مع الهواء، عطرها ينعش أنفاسه، لم يتوقف في إتباعها، لا نجوم

ولا سماء ولا أمواج، كل شيء اختفى، خطواتها ودلالها وجسدها يجذبه بكل قوة نحو سياج حافة الباخرة، التفت إلى صوتها الحاني يأمره:

- الآن ..

لم يتأخر في إجابتها، لا يستطيع الإفلات من بسمتها وسحر جسدها المضيء في كنف الظلام:

- الآن .

* * *

لم تخش من المكان، المكان يذكرها بالحبيب الغائب، كم احتضن يدها بين كفيه، ما أحلى حب الصِبا، حب يعشقه القلب ولا يعرفه الجسد، هو الآن مُتعطش لآهات الحب، "الملوم" كم جلسوا سويًا على درجات المرسي أبو العباس، جلسة تحمل القناعة بجوار الحبيب تُنصت إليه، يُحدثها عن قلعة قايتباي، ومنارة الإسكندرية القديمة الغائبة كغياب الحبيب، لم تهتم بقواد السنوات الماضية، تثق في خطواتها، لَمْ الشمل والزواج.

تصبر على فوات الأيام والشهور ثم يَرجع قمرها الغائب، نجحت في الإفلات من رقابة البيت ورحيل شقيق "الملوم" مع

عروسه إلى القاهرة، هي في مأمن من اكتشاف أمر الخروج، "شريفة" و"لطفي" رحلا إلى عزاء "أم حلويات" بوفاة زوجها بسيدي بشر، بالأمس القريب كانت مع "شريفة" في زيارة إلى راغب وأسرة الراقصة "عنايات"، تحسست جسدها ومدى إعجاب الراقصة به، لم تهتم "شريفة" بذلك الإعجاب مما زاد من خطوات "عنايات" والاقتراب من جسدها، مما أثار من شهوتها وهياجها الجامح، لا فرق بين يدها وبين حبيبها "الملوم"!

عليها الآن إكمال مهمة جلستها وسر وحدتها في ساحة المرسي أبو العباس، أخرجت قصاصة الورق، لم تلاحظ "شريفة" يد "عنايات" وتلك القُصاصة، عنوان واضح وضوح الشمس في عز النهار, مكتب ريج يسير الفنانين، محطة الرمل أعلى مطاعم جاد.

لم تصبر في مراجعة زينتها، تثق في جمالها وجسدها الأبيض وشعرها الأصفر, تمتلك كل شهادات التأهل لبوابة الفن كما أخبرتها الراقصة، لم تصبر على ركوب المصعد، عليها أن تقفز بين درجات السلم لتصل إلى بغيتها، الوقت يمر وقد اقترب عودة أصحاب العزاء، لم تسلم من ارتعاش أقدامها مع خفقان القلب، هي في مواجهة أمام باب الفن والشهرة

والمجد، لم تفكر في عواقب تلك الخطوات إلا الآن، هل ترجع إلى الخلف وتفر؟

خابت فرصتها بالفرار، وقعت في شباك نظرات ري جسير الفن, ما عليها غير الدخول في ثبات وثقة كما علمها حبيبها الغائب، لم تهتم بالمقابلة، كانت تهتم بتلك النظرات المتلهفة لخطوات الرغبة، جائع يشتهي ولا يشبع! لم تسلم من نظرات صاحبه هو أيضًا، يتعقب مفاتنها من إصبع قدميها إلى شعرها!

لم تسعد باللقاء، تريد الرحيل، كلمات وذكريات الأفلام تسردها إليهم بنباهة المتلهف المحب لخطواته، أرادت أن تُعرفهم عليها أنها من بحري والأنفوشي في جلستها وكلماتها ورفع حاجب وإنزال الآخر، كانت تريد أن تُحافظ على شيء واحد تُخبئه وتصونه.. جسدها، أمانة عقد الحب مع حبيبها "الملوم"، هو يملكه ويُمتعه كيفما شاء.

لم تقدر من صد جِماح ارتعاشها، الزوج بالخارج، مقاعدهم تهتز من فرحة الخبر، يلتهمان أنفاس التبغ كما يتجرعان الماء في نهم وعطش!

كانت تشعر بالأمان، أبواب المكتب مفتوحة للداخل والخارج، أطياف الشباب مثلها في حب الفن وشاشته الكبيرة

والصغيرة، أمام أكف تقبض وتعد وتسلم بطاقات التسجيل، سعدت بالحوار وإعلان عن تصوير بشواطئ الإسكندرية في الأيام القادمة، لم ترغب في معرفة أسماء النجوم، تصبر على سماع الحوار والتقاط أسماء النجوم القادمين.

انتبهت إلى الصاحب الجالس، مساعد مخرج عمل الغد القريب، لم تعرف ما هي خطواته القادمة؟ تهم بالانصراف أم ماذا تفعل؟ وكيف تخرج من جلسة الفن ونظرات الرجلان إليها؟ عليها الصبر، لم تدرِ بفعلتها المجنونة إلا في هذه اللحظة! ما السبيل بإنهاء تلك المقابلة التي لم تأتِ إليها بجديد؟ انتبهت إلى إشارة الصاحب، عليها إتباعه، تهبط معه على درجات السلم، امتنعت من الهبوط بالمصعد مما أثار غيظ المرافق! أخيرًا هي في ساحة الشارع بين الناس والمحلات والسائرين، فعل كما فعلت الراقصة "عنايات"، دس في يدها بطاقة أعماله مع بعض النقود الورقية، ابتسمت له وأسرعت بالرحيل؛ عسى اللحاق بالبيت قبل قدوم "شريفة" و"لطفي".

* * *

الأردن أو جاردن كما يسميها أهلها، جبالها وتلالها ومنحدراتها وحقولها المتواضعة بالثمار، يجلس بينها كعادته

وحيدًا في الظلام بين العشب والأحجار، يبتعد بقدر ما يستطيع من أصحابه، لا فرق بين السوري والفلسطيني والأردني والمصري والسوداني، هو يراهم سواء في كل شيء، لا يجمعه بهم غير العمل في الصباح بعنابر النجارة والألمونيوم وتصنيع الأثاث، كم خدعه صاحبه بالأحلام الوردية في العمل بهذه الشركة، لا فرق بينها وبين ما تجرعه بمصر وعمل شركته، فرق واحد: هو جودة العمل وإتقانه، راتب قليل لا يدخر منه إلا القليل!

كم حزن بالمفاجأة وقت الوصول، الشركة ليست في حاجة إلى أيدي عاملة الآن! لم يفزع، كان عليه الذهاب إلى الأبواب الأخرى، توصية والده "لطفي" الذهاب إلى زملاء صنعته بعمان العاصمة، تُزاح كل الهموم وتُفتح أبواب الأمل في استقبال الأسطوات أصحاب مهنة النجارة له، ترحيب وحفاوة واهتمام، وإيجاد العمل البديل حتى تسنح الفرصة للعمل بغايته ومُراده بشركة صاحبه، زاد الاهتمام، المعلم الكبير صاحب الورش يبرع في عمل الإقامة وتصريح العمل تبعًا لورشته، كانت ميزة لم يعرف مقدارها وقيمتها إلا في تلك اللحظات، جميع زملاؤه تُسحب منهم جوازات سفرهم، هم رهن للشركة لا يقدرون على التحرك أو المغادرة إلا بإذنهم، إلا هو، جواز سفره في جيبه، تصريح العمل حُر يذهب ويرجع كيفما شاء.

التفت إلى عنابر زملاؤه المصريين، هم يسعدون بانتهاء العمل للراحة والسمر القليل ثم النوم ليوم عمل جديد، أناقته ومظهره الراقي صعد به من الورش والأحمال إلى درجة أعلى في العمل واختياره من بين عشرات العاملين والعمال، إشارة من المعلم الكبير صاحب الشركة، يُنقل بالعمل بإدارة مقصف الشركة، ميزته بوجبتين في اليوم والليلة إفطار وغداء، منحة ربانية تزيد من ادخاره الشهري من الدينارات الأردنية، وتتوالى المِنح، سهرات المعلمين مع صاحب الشركة في نهاية أسبوع العمل، الخميس اجتماع فيه كل ما لذ وطاب من أطعمة وخمور, كم كان يسعد بتلك الليالي، يترنح الجميع من السُكر. أما هو يترنح من السعادة، بقية الطعام تُلم ويصعد بها إلى أحبابه وأصحابه بعنابر النوم، ينادي بكل قوته:

- يا مصريين يا غلابه اسمعوا وعوا كلوا واشبعوا اشبعوا

ينظر إليهم، يُشاهد هؤلاء الجوعى يلتهمون ويفترسون بواقي اللحم والكبد والفاكهة، هو في قناعة بما تناول مع المعلمين السكارى في ليالي الخميس.

انكشف له الغطاء عن تلك الحالة التي وصل إليها العمل في الخارج، لم يوافق على اقتراح مساعد قبطان الباخرة بالمساعدة بالعمل في العراق، يكفِ ما قدم من إنقاذه على سطح

الباخرة وهو في طريق الانتحار إرضاءً لمحبوبته الغائبة "ليلى" الخرساء، سحرته بحبها السرمدي العائد إليه بعد طول الغياب.

الآن يفكر في الرحيل والعودة إلى حبيبته الإسكندرية، ما حصل بالأمس كان الخاتمة للعمل بالأردن، لم يكن يدرِ بمدى احتقار أصحاب الشركة للعِمالة المصرية، السوري والسوداني هما في القمة في المعاملة، وليس الحضيض مثله ومثل أصحابه! كم قدم من نصائح لهم عن الحقوق الضائعة من امتيازات العمل والعلاج والأجازات، كانت الصدمات تتوالى على أصحاب الشركة من المصرين ذاتهم! لا أحد من أصحابه كشف سره أو أفشى لأحد الزملاء الأشقاء من البلدان الأخرى، لكن لا حيلة له، هو وحده من قرار المغادرة بغير رجعة.

لم يتوقع من الفلسطينيين رؤساء العمل أن تصل نظرتهم إلى تلك السفالة وعدم رد جميل مصر إليهم، هي قدمت وما زالت تقدم من رعاية في مختلف المجالات والمحافل الدولية، أبعد كل تلك العطايا من السخاء يصل بهم الحال أن يتجاهلوا أهل الفضل من مصر؟! رأى بأم عينيه وشعر ولامس هؤلاء الأفاقين!

لم يكن يتوقع أن تأتيه تلك الإجابة الجافة غير الموفقة، كانت فرصته في فرض خبراته أمام السادة موظفين الإدارة من عمل الإحصاءات وطبعها على الآلة الكاتبة بكل مهارة، تدافعوا حوله وإعجابهم بهذا القهوجي، عامل المقصف في براعته الإدارية، حاول بكل الطرق أن يقبله المعلم مدير الإدارة في إحدى الوظائف التي شغرت بالأمس القريب، يأتيه الرد الجاف الذي لا يرحم!

ـ نأسف، المصريين ليس لهم مكان على مكاتب الإدارة.

وكان قراره بالعودة إلى مصر في سبيل تجديد أجازته! عجب باعتراض معلم ورش الألمونيوم الأردني وكشف نيته:

ـ لن تعود، يكفيك ما أصابك من إهانة.

مهندس بارع في الإحساس بمن حوله، خشي بتأكيد ما قال، كانت ابتسامته الرد الكافي لهذا الإنسان النبيل.

اقترب منتصف الليل، عليه العودة إلى عنبر النوم والاستعداد للرحيل في الصباح الباكر, حبيبته "بيحة" ولا أحد يعلم بميعاد عودته، ستكون مفاجأة لهم جميعًا، أما هو فيكفيه أنه ادخر القليل من الدنانير الأردنية؛ عسى أن تسعده ولو لشهور من عناء رحلته الفاشلة.

* * *

ينفر من كل شيء، كل شيء أصبح لا معنى له ولا رائحة ولا صوت, صوت واحد يجلجل ويصدح في سماء مصر, الزعيم المؤمن ينفد صبره، تثب في عقر داره امرأته، سيدة مصر الأولى، لم تسلم من السنة المعارضين، لم يدر الشيخ العالم أنه يسقط فيما حرم الله، قذف الاتهامات بدون حياء ولا حرج لامرأة الرئيس، اشتعل غضبه وثار في وجه من أتاح لهم كل شيء من الحرية، تشعل الجماعة الإسلامية ثورة الشيخ؛ ليستقر في الاعتقال والإهانة على الملأ بل على مسمع من العالم كله، مقولة يسجلها التاريخ للزعيم المؤمن والشيخ العالم: (الآن هو في محبسه مثل الكلب)، لم يدر على من أثارته الكلمة في مقتل، شيخ الإذاعة والتلفاز, سجلت له في صفحات تاريخ الشرفاء، الأزهر لم يأتِ بكلاب الأزهر لم يأتِ بكلاب لحظة حاسمة يفر بعدها من بطش الزعيم المؤمن إلى خارج مصر.

لم يلتفت "لطفي" إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، التفت إلى مَن كان يستمع إليه الزعيم سعد زغلول، ثابت على منصته يُشاهد ما يدور من أحداث لأهل مصر، يلتفت أحيانًا إلى عشيقته الأبدية، قلعته الحصينة الزاهدة مثله، قلعة قايتباي، أحيانًا أخرى يلتفت إلى مُريديه، "لطفي" هو مريده الأول،

يشعر "لطفي" بحفاوة الزعيم به وابتسامته له، لا يَمل من الحديث له والإنصات وإليه، لم يبخل عليه في جوابه الشافي القاصم لما يجري من أحداث، التفت إلى نظرات الزعيم، وغضبه الفائر وعبوس ملامحه، انحنى يلتقط حذاؤه المثقوب، صعد إلى درجات المرأة حاملة غصني الزيتون، هَم برفع الحذاء ولكمها، هي تسخر من حذاؤه، صوتها لم يكن هو وحده، مريدين الزعيم يُشاركون في الضحك، لم يترنح ويهتز، هبط من الدرجات، أشار إلى مَن حوله، نعم هُم مثله يأتون إلى الزعيم، فلا مانع من أن يستمعوا له كما يستمع الزعيم:

ـ أنا العبد الفقير "لطفي"، سلمت أمري إلى السماء، ولم أسلم من نكبات الأيام والليالي، هي سوداء، لم تكن سمراء، فالسمراء أحبها أعشق لياليها والطواف حولها.

التفت إلى شاطئ البحر، لم يهتم بقلعة قايتباي (المشلحة) لمَن هنا وهناك، هي خادعة، خدعت الجميع وأولهم رائده الزعيم، أشار إليه:

ـ سترى مني العجب، سوف أفكك قيودي وأنهي عهودي وأسوي حساباتي، هي عمرتي التي تخلصني من ذنوبي وهمومي وأراجع خطواتي، من بداية مولدي سأفك الأربطة، (أشار إلى قلبه) أولهم الحب الذي أوصلني إلى حالتي، امرأتي

"شريفة" الزانية، سألفظها، سأنهيها من عمري الذي فات، القادم أحلى وأجمل وألذ.

التفت إلى السائل: وبقية الأربطة؟

نظر إليه في تحدٍ:

ـ مهامي التي فقدت عمري فيها, أولادي العار الذي جرى في دمي وسنين عمري الزائفة الخادعة صغارًا أو شبابًا أو رجالًا، خيالات وظلال ترحل مع كل طلوع شمس، نور عيني "ثريا" طعنة في شرفي.

التفت إلى صاحب السؤال:

ـ أتريد المزيد من الأربطة؟

سألتحِف بالهواء، سأطعم بالتراب، سأرتوي بماء الطرقات، سأكون أنا والكلب سواء، سيعلو صوتي بالهوهوة، سأنبح لأفضح المزبلة، سأعض حتى أُشبع أسناني ويرتوي لساني، لن تخر عزائمي، فالقادم سيكون أحلى وأعظم من الأيام الماضية.

نكش شعره، جحظت عيناه، برزت أسنانه، كثر نباحه، وزاد من الهوهوة!

فر مريدين الزعيم سعد زغلول وتفرقوا من حول المنصة، انكمشت حاملة غصني الزيتون وضمت ساقيها، نظر الزعيم في هدوء، مسح قطرات الدموع النحاسية.

* * *

لم تحزن على ما فات، هي قانعة بالحب وإن كان بين ألواح الأخشاب، يحزنها فقط هذا الاستغلال، تعدى كل شيء من عزها ومجدها مع زوجها وأولادها، هي عشيقة لمن عرج بها إلى طريق اللذة، ما زالت في خطوات الحرام من زنا، تحول الألم من خيانتها زوجها إلى ألم يُنغص عليها حياتها، حتى الآن لم يفكر العاشق أن يعقد عليها، هو يلهو ويُمتعها، هو لم يتغير سواء بين الأخشاب أو على فراش بعلها، لا يبالِ بأي شيء من نفحات الضمير!

زادت آلامها، الخوف من الحمل، ماذا يكون العمل؟! لا تجد حتى قروش قليلة للذهاب وشراء أقراص منع الحمل. هو دائمًا في مراقبة لها، وإن غاب تأتِ حارسة الليل والنهار امرأته وأولاده.

لم تبالِ بدخان أخشاب شواء كيزان الذرة، جلبابها زين بالأخرم ، حتى جسدها لم يسلم من نيران الأخشاب، لم يمر

عليها أحد الأثرياء لشراء الذرة، زبائن يترنحون من أقراص المخدرات ورائحة الخمر في الأفواه، جبل ناعسة آخر مطاف خطوات اللذة والاستمتاع!

مرت الأيام عليها دون أن ترى بصيص من أمل لقاء غرباء، يمر ليلها في ترقب وحنين أن ينبلج الصباح، العشيق لا يكتفِ من المضاجعة معها وامرأته وعمله بشركة زوجها، يتاجر في الحشيش داخل تلك العشة المسماة بالسكن، العشيق ميزته الوحيدة مداعبته وفحولته في مضاجعتها التي كانت تشتهيها وتتمناها في الليل والنهار, لكن الأمر ازداد سُوء بالخوف من كل شيء، الحمل والزنا الحرام، واكتمل بالمخدرات!

لم تسلم من هاجس يأتيها ويلح عليها للخلاص من ذلك العذاب، الانتحار وإن كان مُحرمًا، حياتها كلها حرام في حرام، لم تهتم بالمراقبة من أهل الجبل، شواء الذرة وشظايا النيران واحتراق جلبابها هم الأهم من الحماية والاهتمام، ما زال الكثير من كيزان الذرة لم يُباع مع دخول الليل وبرودة الهواء.

تُنصت وتتلصص من بين أخشاب العشة، العشيق في شجار مع امرأته، أولادها في سبات النوم، الشجار تعودوا عليه وهي أيضًا كذلك لم تهتم، اهتمامها دائمًا يذهب إلى طريق

واحد، المتعة مع امرأته الغيرة تأكلها هي ونار أخشاب الشواء سواء، تتآكل وتنتهي، لم تغير وجهتها تنظر من بين الأخشاب ما زالت في ترقب ماذا بعد مع تلك المرأة وهذا العشيق، أخشاب العشة تهتز بكل أركانها، لم تلبي نداء صانع المتعة ، لا تريد المخاطرة في هذا المشهد والعراك، هذه فرصتها للرحيل والفرار من عذاب كل يوم وليلة، كفى حب وعناق وتأوهات، لا تريدها، تسأم منها، خطوات الفراش أصابها بالعفن ورائحة تفر منها حتى وهي بين أحضانه، ما زالت تصم أذنيها عن نداء العشيق، لا تريد الدخول في تلك الحالة وذلك الهياج، ولا سبيل للهروب، نداؤه يقترب منها، لم تستطع الإفلات من يده، تُسحب إلى عشة الحب والعذاب، لحظة من السعادة تغمرها، امرأته تصده عن مزاولة الحب معها، وهى أيضًا تفر! كانت تتمنى من المرأة أن تبعدها عنه بقدر الإمكان، تريدها أن تصده عن الجماع الذي كانت تعشقه، الآن تتمنى المزيد من الصد والمقاومة،

حصل ما تتمناه، امرأته تغرس السكين في قلبه!

يترنح ويسقط على الأرض.

حانت الفرصة عليها بالفرار، لم تهتم بجلبابها، حافية تُسرع في طريق الخلاص، لا تريد أن تنظر إلى الخلف، لم

تلتفت إلى سكارى جبل ناعسة ولا أي شيء، شيء واحد تتمناه أن تلحق بالترام والصعود بها.

* * *

هواء الليل ينخر في العظام، منتصف الليل لا يثنيه عن خطواته بين الشوارع والحارات، بشائر هطول المطر على أشدها، السماء تبرق، الرعد يدوِ في السماء، لم يرغب في العودة كما يفعل أمثاله، هي ليلة يتمناها أصحاب ليلة الخميس في حضن امرأته أو بين الأغطية يتدثر يتمتع بالدفء، يحتسِ شرابه المحبب إليه في الليل والنهار، كوب الشاي.

"بيحة" حبيبته تراجعت في خطوات الفراش إلى أقصى درجة من درجاته، كانت تلتصق به تشعره بمدى دفئ الرغبة، لا توجد حتى تلك اللحظات، لم يهدأ معها، هو دائمًا يشعلها متى أراد، الآن يفشل من أول خطوة، تبخل عليه بنغمات ثغرها: "لملوم" قمري الذي لا ينقص. لم يشعرها برياح الملل أو زوال الحب، هي التي بدأت وعليها انتظار مسار تلك الأحوال ما ذنبه في الافصاح عن النعي الزائف ورحيل خطيبها ، صاحبه هو الفاعل الاول والاخير في هذا النعي وما اصاب الخطيب عند قراءته على الحائط ، لم يتحمل خبر موته

ليسقط ويرحل من الحياه ، صاحبه وليس هو ، بيحة لم تنسى الماضي وحبيبها الذى كان ، اصابع الاتهام تتجه نحوه هو وليس صاحبه ، فشل في ازاحة الاتهام وما هو الا مزحة من الصاحب عسى ان تلتفت اليه هو وليس خطيبها ، الآن يسرع في خطواته تائه يبحث عن متعة فراشه الذى ولى وراح

لم يلتفت إلى مقهى (ريه)أمام باب واحد بالجمرك، يعرف أكثر روادها، هم لصوص الميناء، كم ابتاع منهم التفاح الأمريكاني ومعلبات الحلوى. لم يلتفت إلى شارع إسماعيل صبري، هو كما هو، لا تسكنه أرواح الأمكنة، يسكنه الدخلاء، حضروا من ريف مصر، لا يهتمون إلا بشيء واحد، غلق الأبواب ومحاربة كل مَن يريد أن يعرف عنهم شيء من حياتهم الخاصة! كم أهل الأنفوشي عظماء! يحفهم الكبرياء، لا يستحيون من نشر ما يجول بداخل الغرف.

اقترب من محلات الموبيليا وورش النجارة، توقف أمام ورش والده "لطفي"، لم يقدر أن يبرح المكان، "لطفي" يبتسم له، يناوله وجبة الغداء من يده، يمنحه مكافأة ما حمل له من القروش القليلة، يتابعه حتى يختفِ من أمامه, لم يتأخر في التقدم نحوه.

انتبه، المحل مغلق، واختفاء "لطفي"! ما عليه إلا المسير ليرى نهاية هذه الليلة وما يأتي من جنون خطواته الليلية. زنقة الستات، يخترقها على عجالة، شوارعها الضيقة ومساكنها كم تشبه مساكن ألف ليلة وليلة وشيخ بندر التجار وحريم السلطان، هي صفحة من صفحات ذكريات الماضي، كم اندس بين حريم السلطان يتمتع بتلك المرأة وحلاوة ملامسة جسدها والأخرى والعيون المتلهفة لمتعة الحرام خطوات الحب، لم يتغير الحال هو ما زال يعشق المضاجعة ونسماته ونظراته وآهاته، الزنقة تفوح من بين نوافذها وشرفاتها رائحة الرغبة، تزكم القلوب وتجذب كل مَن يريد، هو الآن يريد قضاء وتره حتى وإن كان في الحرام، لا سبيل إلى حبيبته ، السبيل إليه الآن هو الصعود لتلك الأمكنة، هي لا تنام ولا تغلق، تفتح في كل الأيام وفي كل الساعات، هي طبيب مَن يريد أن يشفى من اشتهاء والتمتع بالجنس، لن يتراجع عن جسده الفائر وانتصاب جسده تأخذه بكل قسوة وقوة وغباء إلى الصعود إلى هاوية الجنس.

لم يهنأ بالاختيار، انقطاع الأنوار كانت نظير شؤم في بيته أو في تلك الأماكن المغلقة، سيرضى بحظه من غانيات العرض، سمراء حمراء بيضاء، كلهن في الظلام امرأة واحدة، تُشبع حبه الجائع لسهرات الخميس، لم يهتم بالفراش ورائحة

اللذة تفوح منه وعفن تلك المرأة التي بين أحضانه، فرق شاسع بين "بيحة" حبيبته وهذه المرأة، تلاعبه كيفما شاء، خبيرة في القفز بالشهوة إلى أعالي السماء. حاول الوصول إلى المزيد من الممارسة، لم ترغب في المزيد، هو الآخر رضي عسى أن ينال بعض الراحة ورغبته بعودة تيار الكهرباء، يتمنى أن يرى تلك المرأة وجسدها القاهر لكل أماني الرجال، تُعطى بسخاء لخطوات الجنس وفي صمت، "بيحة" تُكمل خطواتها بالآهات ليس مثل تلك المرأة، تمتلك الجنس الصامت، هي تقتل كل خطواته دون أن يشعر بها حتى من جثم على صدرها، لا يسمع حتى أنفاسها رغم حرارتها الهائجة، لم يتردد في إكمال ستر جسده والتأهب إلى الرحيل.

التفت إلى النافذة المغلقة، عليه استقبال الهواء النقي، كفى لهذه الرائحة وهذا الفراش العفن وهذا الجسد الذي يتمنى أن يرتاده مرات ومرات.

انتبه إلى عودة تيار الكهرباء، لم يكتم من صرخاته يشارك في صراخ العارية كما ولدتها أمها، لم يستطع اللحاق والإمساك بها، تفلت من يده، تقفز من النافذة، لم يهتم بطرق الأبواب، عليه أن يرى ماذا حل بها، لم يسمع بارتطام على الأرض، لم تقدر سيقانه على المزيد من التحمل معلقة بين

السماء والأرض تشوى على أسلاك الكهرباء، كانت فرصته الأخيرة، انقطاع الأنوار وعودة الظلام ليفر من الباب الخلفي للهروب من عيون رجال الأمن.

* * *

لم يتمنى أن تكون أواخر أيامه في عمله بإدارات الأمن أن تصل إلى تلك الحالة من مأساة صاحبه "لطفي" الأسترجي، كان يريد أن يختم تجديد عمله بالأمن بحالة أخرى غير حالة صاحبه، لكن هذا هو المقدر والمكتوب، صاحبه موسوعة من المآسي المتواترة دون انقطاع وأخرها مصيبته الكبرى، فضيحة الفضائح، توج بها ولا يدرِ هل سيأتي المزيد منها؟! ما زالت الصحف تتحدث وتكتب عنها، حتى المنابر في خطبة الجمعة تتحدث عنها! مصر كلها في هياج بين مَن يعطف ومَن يرميها في نار جهنم، عجيب يا شعب مصر، جميعكم في في بحر الملذات والمعصية، حاول بكل ما يستطيع أن ينهي هذه الحادثة ولا يمس صاحبه "لطفي" بأي أذى، يكفِ ما حُمل من أوجاع من امرأته "شريفة" ومن حياته التعيسة، لم يكن الفقر وحده رفيقه، العار يصر أن يكون رفيقه هو الآخر, لم يكن في قناعة بأن هناك شبهات جنائية وفي أول القائمة، "لطفي" ذاته،

يليه "الملوم"، لم يجد المعمل الجنائي أي علامات تفيد من المقاومة أو الاغتصاب، وشم الحرق فقط على جسدها، علامات الرغبة والجنس تبرز للجميع، تشطب أي بادرة قتل من "الطفي" واستحالة أن يكون رفيقها "الملوم"، أوصاف مَن كان معها نعم قريبة التشابه لـ"الملوم"، لكن هذا مستحيل، أزاح استكمال التحريات عن "الملوم"، هو يعرفه حق المعرفة، خطوات شبابه وزواجه والفاتنة امرأته الجميلة تغنيه في حتى أن يفكر بالزنا وبمَن؟ شقيقته؟!

"ثريا" عار عليهم جميعًا، سبيل غسل العار يتواجد بينهم، لكن ما من شيء على جسدها أكثر من قطرات الجنس في عُقر دارها، جسدها لا توجد عليه أي من القطرات، هي تستقبلها في ترحاب في مكانها الذي تهواه، شقيقها "علي" يسكن بالقاهرة، هو الآخر تحوم حوله الشبهات ولكن تقرير الطبيب الشرعي يقصم كل تلك الأهازيج والتخيلات، كانت في حالة من الإمتاع الكامل من الاشتهاء والتلذذ، فصل التقرير الشرعي في الأمر ولا يوجد أدنى دليل على الانتقام أو القتل، حتى ظهرها لم توجد فيه أي شبهات للزج أو القذف من النافذة.

انتبه إلى ارتعاش أصابعه ورداءة ما يكتب في الأوراق نهاية الأمر وغلق ملف "ثريا" إلى الأبد، يريد أن ينهي تلك

المأساة رغمًا عنه، قناعته لم تكتفِ وتنتهي إلى هذا الحد من التساؤلات، أشعل لفافة التبغ لعله يجد ما يُحيره ويُنغص عليه تطفله، مَن الفاعل ومارس الجنس معها وهذا الإشباع المصبوغ على جسدها؟

عجز عن الإجابة، أزاح فكرة غلق التحقيق, هناك مَن تقدر على حل تلك الشفرة، أغلق الملف دون أن يوقع بالانتهاء.

* * *

التفت إلى شاطئ الأنفوشي، لا حيلة له إلا الجلوس بين رماله والشكوى إليه، أين يجد حل لما حل به من عمله الأسود من زنا بالشقيقة "ثريا"؟

أسئلة مجنونة تغزوا عقله، ما العمل إن لم ترحل من الحياة؟ كيف يكون الحال أمام حالة الزنا؟ أفكاره تودي به إلى المهالك، العودة للجنس معها مرة أخرى، ما الحال إن لم تأتِ الكهرباء؟ ورحيله دون أن يعرف صاحبة المتعة التي لم يشعر بها إلا معها؟

وهذا الجسد المتفاني في ممارسة الجنس، بل كيف وصل بها الحال أن تصل إلى تلك الدرجة من الرفاهية والخبرة في معاملة الجنس وإشباع الغريزة؟ متعة جعلته في رضا للرجوع

إليها مرات ومرات! "بيحة" لم تصل إلى رفاهية الجنس بعد، منقوصة اكتشفها مع شقيقته!

كانت دائمًا في غياب عن التواجد والتواصل معهم، تلك كانت تعليمات "لطفي" إليهم، حتى أمه "شريفة" لم تذكر "ثريا" بأية أخبار!

التفت إلى مياه البحر السوداء، حزينة غاضبة تكتم أسرار مَن يفشي إليها، "الملوم" الحائر بين متعه الحرام وشقيقته الزانية، هي الأخرى رحلت كما رحلت.

التفت، حبه الراحل يأتي إليه، فينوس الخرساء، لم يفرك قلبه لتأتِ إليه، آتيه دون فرك أو خاطرة اشتياق! جمال جسدها يُضيء الأمواج، تُداعبها، تمرح بين ساقيها، تُغازلها دون حياء. لم يقوى على الاقتراب، أمواج البحر تصده، لا حيلة له إلا أن يُمتع عينيه بها، لم يرى رداءها الشفاف عارية من كل شيء يسترها! لم تبتسم له، نظراتها لم يتعود عليها، رحل الاشتياق عنها، لم يشعر إلا بالخوف، ترتعش أطرافه.

هبط على الرمال، يتمنى أن ترحل، لا يريد أن يراها، هو يعرف لماذا هي الآن بين يديه وفي تلك الحالة من الإغراء، هو المذنب الزاني المتعدي على أقرب الناس إليه، شقيقته "ثريا". هل أبلغت شكواها إلى فينوس الخرساء؟ التقيا كما كان الحال

في الأنفوشي وشاطئ البحر، جاءت تقتص من فعلته مع "ثريا"، أم الغيرة والحب وإن كان سرمديا؟

لا حيلة له بالدفاع عن نفسه، ولا يقدر حتى على الفرار من حبه لها، هو أسير الحب واللقاء معها، لن يفر ولن يدافع، عليه الصبر, لماذا جاءت إليه؟ عليه الاستماع كما كان في الليالي الماضية، لم تنبس بكلمة واحدة، أشارت إلى الأمواج الهائجة! جاء ما لم يتوقع، شقيقته "ثريا" تأتِ إليه، تقفز بين الأمواج، تُداعبها كما كان حالها في صباها، هي عارية كما الحال مع حبيبته الخرساء، لم يستحِ من النظر إليها، هل هو حب الأشقاء أم حب الاشتهاء؟ لم يفكر كلاهما سواء، هي تتساوى عنده مثل الخرساء، يتمنى الجنس، أسرع في خلع بنطاله، قذف بكل ما يستره من أشياء، كان مُصرًا على فعل ما يُحب، هن ينظرن إليه في ترحاب، رحلت نظرات التأنيب أو العقاب، لا يرى غير تلك العيون المائلة إلى أن ينال ما يريد!

التفت إلى طلقات الرصاص تنطلق من حوله، لم يهتم، يريد غايته من الشهوة وجنون الاشتهاء والشبع، اقترب نداء الإنذار بالقتل! حراسة الشاطئ تقترب منه، لا سبيل من النجاة. انتبه إلى يداه ترمى على وجه رمال الشاطئ، أفاق من غفوته، لم يجد حوله غير أمواج البحر وسكون الشاطئ!

* * *

هبطت على درجات السلم، لم تضغط على زر الإنارة، تريد الاختباء من أعين المتلصصين على معرفة المزيد من أخبارها، لم تنجح في إقناع "لطفي" بالرحيل للسكن في مكان آخر, أو حتى الرحيل من الإسكندرية وليس من الأنفوشي، لا ينصت لها، يرجئ الرحيل إلى الأيام القادمة.

مرت الشهور- وما زالت أخبار ابنتها "ثريا" على ألسنة أهل الحارة والجيران، حتى أحبابها، هم سواء في التمتع بالجديد من الأخبار, دائمًا ترجئ الخروج إلى الليل لشراء ما يلزمها من احتياجات، أصابها الملل من الطعام الجاف والمعلبات، تُغنيها عن الخروج لعدة أيام، لكن لا مفر من مواجهة هؤلاء الناس، يكفيها ساعات الليل لقضاء مهمتها من شراء ما يحتاجه البيت من كل شيء، تبتعد عن الأنفوشي، ترحل إلى سوق العطارين، هناك لا أحد يعرفها ويعرف مصيبتها. ما زالت حوانيت الأرمن تتعامل معها بكل سخاء، هم يعرفون قدر الجمال الذي لم يرحل منها، تتألق بجسدها وشعرها الأسود، لم يغزوه إلا شعيرات قليلة من الشيب الفضي، يرحب بها الخواجة ، يُقدم لها كل ما تفقده مع أقرب

الناس إليها "لطفي"، تنصت إلى باسيليوس، يُغريها بالسفر خارج مصر، هناك باليونان يعرفون قدر جمالها وحلاوة جسدها:

ـ لا فرق بينك وراقصات ونجمات السينما.

كم تسعد بتلك الكلمات، هي تزهو بجمال وحلاوة جسدها، تشكره على كلماته الرقيقة في المدح والثناء، عليها الآن تكملة مَسيرة الطلبات من سوق عمر باشا بمحطة مصر, شيطانها يُراودها، يلح عليها، حاولت أن تصد أفكاره الشيطانية من الذهاب إلى "جميلة" شقيقة زوجها "لطفي"، خطوات قليلة تصل بها إلى محرم بك، كم من الشهور لم يتواصل "لطفي" مع أهله وشقيقته.

اقتربت أكثر الآن، تقف تحت شرفة ونوافذ "جميلة"، هل تصعد أم تكتفي وتصبر حتى يظهر أحدهم أو "جميلة" من النافذة؟ سقط الطعام من يدها، اختبأت عن الخارج من البيت، "لطفي" بلحمه وشحمه وهندامه المتواضع! لم تصبر، أسرعت نحوه، أمسكت بعنقه، لم يقدر على الإفلات من يديها، أطلقت صرخاتها، لم تبال بالسائرين أو بمن بالشرفات! جاءت فرصتها في رد الكيل بكيلين إليه، كفى تأنق أمام أهله وشقيقته التي تودعه من النافذة، أشارت إليها:

ـ هذا زوجي وبعلي الذي لم يصونني ويحفظني ويحنو علينا، هو الذي أماتني وأحياني. كم من المرات أُعذب وأهان وأركع له.

أشارت إلى "جميلة":

ـ إياك أن تدخلي، إياك أن تهربي. شاهدي ماذا فعل شقيقك بنا، إياك أن تدخلي.. أضاع كل شيء من شرف وكرامة وعزة وأولها أنا، فرّق الأحبة، ضيعنا لفكرة حلمه الذي حتى الآن لم يقدر على أن يحققه! حبيبة عينيه الثريا "ثريا"، لم يفعل شيء لها غير أن يتركها في شباك الرزيلة، بل وصل الحال لأكثر من ذلك، تشوى على الكهرباء، وتموت عارية زانية نجسة هاربة من أحبابها وقرة عينيها أولادها! هو زعيم بدون زعامة، هو القوي بدون قوة، هو المحارب من غير أسلحة..

التفتت إلى جميلة، ما زالت تقف بالشرفة، لكن ليس وحدها، أبناؤها معها..

ـ أتشاهدون خالكم النظيف العفيف الجميل, هو قبيح في كل شيء، حتى بين ثنايا الفراش, هو مفلس حتى وإن مُلأت حافظته بالنقود، هو الناقم على كل شيء..

حاول "لطفي" الفكاك من يدها، لم يفلح، ما زالت يدها قابضة على قفاه! التف حولهم الرجال والنساء والصبية،

حاولت تفادِ قذف الحجارة، أفلت "لطفي" من يدها هو الآخر، أخذ يصد عنها الأذى، حماها بجسده! التفت إلى شقيقته وإلى الجمع من حوله، لم يهتز أمام ضحكاتهم وفرحتهم بالمشهد الحزين، أسرع بحبيبته "شريفة"، يبعدها ويهدئ من رَوعها من الضحكات التي كانت أشد قسوة من حجارة الصبية, يصم أذانه عن أذى الكلمات ومتابعة هؤلاء الناس الذين لا يعرفون إلا شيئًا واحدًا هو أن يسخروا من عباد الله، وإن كانوا مجانين!

* * *

في استحياء يصطحب امرأته للعودة إلى الإسكندرية مرة أخرى، كم تشبه المرة الأولى بالبُعد عن والد امرأته, تفرق وهروب إلى مناطق متفرقة خوفًا من ملاحقة الأمن لرب الأسرة الشيخ.

الآن حادثة المنصة تهز العالم كله وتُزلزل الأرض من تحت أقدام أهل مصر، اغتيال بطل العبور في عيد النصر وتحرير سيناء، حاول إقناع الشيخ:

ـ الأمن لن ينظر إليك، أنت رجل مسن، كهل العظام لن تفيدهم في شيء.

لا يرضخ لتلك النصيحة، كلمات مُوجزة شديدة الإقناع:

ـ الحادثة ليست بتلك البساطة، قتل الزعيم السادات مصيبة المصائب وحادثة القرن.

وكان الحل هو الفرار والرحيل هو الآخر إلى الإسكندرية، نفذ نصائح الشيخ بالحرف الواحد من خلع حجاب امرأته والتبرج إلى أقصى درجة حتى تمر تلك الأيام على خير وتنتهي المطاردة، هاهو عائد مرة أخرى إلى محطة قطارات رمسيس والسفر بالدرجة الثالثة، هكذا هي تعليمات الشيخ، لم ينسى شراء علبة التبغ، ولا مانع من إشعالها داخل القطار, حركات تمويه وتضليل لعيون الأمن والعدالة، كما عليه الصبر, العيون تتلصص على امرأته داخل القطار, تفحصها من أخمص قدميها حتى شعرها التي لم تعمله غير ضفيرة خلف رأسها.

يزداد خوفه كلما اقترب القطار من الإسكندرية، كيف سيتم اللقاء مع أبوه "لطفي" وأمه "شريفة" بعد ما وقعت مصيبة شقيقته "ثريا"؟ وكيف حال شقيقه "الملوم" وزوجته "بيحة" الفاتنة؟ لا حيلة له غير أن يقطن معهم في مسكنهم الضيق، لا يستطيع النزول في أحد فنادق الإسكندرية، عيون الأمن تتحرى في كل شيء وعن أي شيء، الغرباء هم تحت عين التحري

بالفنادق، لا سبيل للمغامرة، كم تمنى أن يطول عمر الخالة "نرجس" والنزول بسكنها، لكن هذا هو المُقدر والمكتوب.

التفت إلى امرأته، يغلبها النعاس, أمالت على كتفه، أسرع بإخطارها أن القطار يدخل الآن إلى محطة سيدي جابر، نسيم البحر يطل مع الهواء ينعشه، تراجع في النزول بمحطة سيدي جابر، كان يريد زيادة التمويه من مراقبة رجال الأمن، عليه الاستعداد للنزول بمحطة مصر، لا ذنب له في كل ما جرى، ما هو إلا زوج لابنة ذلك الشيخ، وعمله الحكومي يمنحه الطمأنينة من الزج في أي شبهات تحوم حوله، أمن العمل يعلم عنه كل كبيرة وصغيرة فلا داع للخوف، الخوف كله على امرأته ابنة الشيخ الهارب من ملاحقة رجال الأمن.

هدأ بعد الخروج من بوابات محطة القطارات، لا أحد يتابعه، كان يشعر بالحنين إلى الإسكندرية وما بها من كل ما هو جميل، رائحة البحر تطل عليه، يتمنى الوصول إلى شاطئ محطة الرمل، لا مفر، السفر أرهق امرأته، يشعر بها، هي لا ذنب لها في كل ما يجرى من أحداث، عليه الوصول إلى بيت العائلة الأنفوشي.

لم يبخل في الوصول بالعربات الخاصة، كان عليه المناورة مع السائق، هم غرباء عن الإسكندرية، من مدينة

السيد البدوي بطنطا قادمين، لم تفلح كذبته مع السائق، هو من أهل طنطا، بل من المجاورين للسيد البدوي، لم يتمكن من الرد على السائق من أي منطقة هو، حاول إقناع السائق أنه لم يمكث بها غير قليل من الأيام، استجابة لامرأته لزيارة المقام البدوي، فسحة من الوقت للراحة من صعيد مصر، والآن هم في طريق تكملة رحلة الترفيه والسياحة بشواطئ الإسكندرية، تجاهل تكملة الردود على التطفل من السائق، التفت إلى شاطئ الأنفوشي، السائق ما زال يعرض خدماته من عرض شواطئ أخرى، لم ينصت إليه، كلمات من الشكر، وتكملة دفع الحساب، لم يجرؤ في مناقشته، الأجرة هي مثل ما يقدمها أي راكب من الإسكندرية، سعد "علي" بغضب السائق الذي رحل دون كلمات الشكر.

ابتسم وأشار إلى حبيبته، يطل "لطفي" من خلال النافذة، سرد نصيحته الأخيرة إلى امرأته:

ـ لا حديث عن الشيخ الوالد، نحن في زيارة فقط إليهم.

لم يكمل الصعود على درجات السلم، يُسحب من قفاه هو وامرأته من رجال الأمن!

* * *

رجعت من مهمتها خائبة، تجتر ويلات الفشل ومن مَن؟! من شقيقها "صابر"، لم تفلح في أن يمد لها يد العون في محاولة الإفراج عن ولدها "علي" وزوجته! لم يهتم وكم من نهرها وعقابها في محاولة التواصل مع شقيقة زوجته راقصة الملاهي الليلية التي تملك صولجان القوة في معاشرتها لمعالي مسئولي البلد والسادة من عظماء مصر، زبائنها في لياليها الحمراء.

كانت تعرف كل التفاصيل عن تلك الفاتنة الراقصة، بل كانت دائمًا تشعر بمدى احترام الراقصة لشخصها ونسبها وحسبها، علاوة على أنها شقيقة زوج أختها، لم تستطع معرفة أين تسكن وأين عملها الليلي؟

ملاهي شاطئ الإسكندرية تشتعل في الصيف وفي الشتاء، لا راحة في طريق اللذة واشتهاء الحرام! تلك هي الإسكندرية، معشوقة لكل صاحب هوى وطالب مزاج! بحرها ورملتها تُخفي العجائب من الحب!

هي نفسها من أولئك المحبين لها العاشقين لكل حفنة رمال ولكل قطرة ماء ولكل نسمة هوا.

"لطفي" زوجها باءت محاولته هو أيضًا بالفشل مع صاحبه رجل الأمن المهم جامد الملامح بطئ الكلمات ذو العين

الواحدة، لم يقدر على التعاون في هذا الأمر، لا سبيل إلى المحاولة إلا بمعاودة الوصال مع رجل الأمن المُستغل في وقتها بالماضي وعشقها لحبه الذي رحل من سنين، محاولة مجنونة لفك أسر ولدها "علي" وزوجته، هل تذهب للمحاولة؟

محاولة الماضي في فك أسر "لطفي" جاءت بالعار عليها، والذي ما زال يلاحقها حتى الآن، تردد وخوف ولعنة لتلك السنين التي عاشتها مع "لطفي" ونسبه ونسله الأعوج في كل شيء!

خارت قواها وفشلت عزائمها ولم تجد المعين لها في أحوالها الذاهبة إلى السواد في كل شيء، هي تخطو بخطواتها وحيدة كما كانت دائمًا من أيام صباها مع أمها وشقيقها "صابر"، لم تشعر بحرارة الشمس، هي في متاهات الألم تخطو ولا تمل.

اقتربت من مبنى الأمن، هنا العقيد الذي داس شرفها وأضاع حبها لـ"لطفي" وأتى إليها بالعار بين أقرب الناس إليها، أسرتها التي في طريق الزوال، لم تشعر بالرهبة، هي تعرف مقدمات الاقتراب من بوابة الأمن، أتى إليها الحارس، حاولت أن تعرف هل هو نفس الحارس الذي استقبلها بالسنوات الماضية.. لم ينظر إليها إلا لحظات قليلة، تأتِ المفاجأة! هو

يعرفها، لم ينسى حكايتها، لم تقدر على التحدث, هو يتحدث إليها بكلماته اللاذعة:

ـ العقيد تعيشي أنت، رحل من الدنيا من سنوات مضت.

لم تصبر بالوقوف أو التحدث معه، التفت حولها، لا أحد يرى أو يشاهد ذلك الحديث وسخرية الحارس! أسرعت بالرحيل، لتبدأ في البحث عن سبل أخرى لنجدتها وفك أسر وليدها "علي" وزوجته من الحبس.

* * *

لا حيلة لها في عمل أي شيء، محاولات باءت بالفشل مع حبيبها، قمرها الذي لا يغيب ولا ينقص، فراشها ينتفض فزعًا من لياليه الفارغة من الحب، يبعد عنها بقدر أنفاسها غير البعيدة عن أنفاسه، أين رحل الحب وأين رحل القمر؟ ندى المساء يغيب عن فراشها الموجوع بظمأ اللذة، لم تكن تدري, تمنعها بمطارحة الغرام في ليالي مضت، تفعل به كل تلك الأفاعيل من الهجر! هو الغائب بالليل والنهار, تساؤلات لا تجد لها إجابات، من أين تأتِ بالإجابات؟

البحث عن كل هذا يدفعها أن تخطو بخطوات التائه المُريد لشواطئ الراحة، "عنايات" الراقصة هي غايتها ومرادها،

راغب هي بغيتها لتنال إجابات الحيرة التي تمتلكها، فرصتها الأخيرة في معرفة ما يدور برأس حبيبها "الملوم"، لن يهدأ لها بال ولن تستقر أنفاسها إلا حين تعرف ما خفي من أمر حبيبها، نعم الأحوال حولها هي مقدمات لما يجرِ من أحداث الغربة والجفاء والبُعد عن كل همسات الحب، حادثة "ثريا"، واعتقال "علي" وزوجته، ليست بنهاية العالم، الدنيا كلها تسير ومن ضمنها مسيرة الغرام، بل هي تسير بأسرع ما يمكن، الجنس من أكثر الأبواب اتساعًا للتنفس من خبايا الأيام والسنين.

بذلت من الجهد والخداع في الخروج من بوابة مراقبة "شريفة"، "لطفي" دائمًا بالخارج لا يأتي إلا متأخرًا في المساء، "شريفة" على قناعة من سبب خروجها من البيت، زيارة أولياء الله الصالحين؛ عسى أن يأتي الله بفرج الحَمل، كذبة بيضاء خادعة تضحك بداخلها منها، حبيبها لا يريد (وأوأة) الرضيع، يعشق السكون كما يعشق ليالي اللذة، تؤيده في مرماه وبغيته، لا تريد أن يتدلى صدرها كما تدلى صدر "شريفة"، تعجب دائمًا من جسدها الذي لا يشيخ! ما زالت "شريفة" فرسة تتحدى السِباق! شعرها ما زال يزهو بلون الليل.

راجعت هديتها للراقصة، منديل التل بخرزه الأزرق والعلكة، كم تحبها "عنايات"، تمضغها بفمها الواسع ذو الشفاه الغليظة الحمراء، عليها أن تستعد بإجابتها إليها عن أحوال "شريفة"، هي في حيرة من أمر "ثريا" ورحيلها! هل الراقصة ستكتفِ أم تطلب المزيد عن "ثريا" وفضيحة الحادثة؟ ليس لديها أي شيء تخفيه، هي أيضًا لا تعرف إلا القليل.

لم تهنأ بأحوال راغب بحارتها ومساكنها القديمة، تريد أن تنهِ مهمتها بقليل من الوقت، هواء الأنفوشي تشتاق إليه كما يشتاق المحبين إلى ذكرياته الراحلة، كم يعذبها "الملوم" بفراقه حبها وجفاف فراشه.

عليها الإسراع في مقابلة الراقصة، هي تعرف من الحلول الكثير في مثل تلك الحالات، هي الخبيرة بكل فاتح لشهية اللذة والحب والحياة في آن. اقتربت من الحارة، لم تستح من المرور بجانب شادر العزاء وتلاوة القرآن! التفتت إلى نوافذ وشرفات بيت "عنايات" مغلقة! بيت يسكنه شيء خاص! لم تتوقف بالصعود على درجات السلم.

انتبهت إلى النداء، لم تقدر على الوقوف، جلست القرفصاء على درجات السلم، يرتعش جسدها من الخبر..

الراقصة "عنايات" رحلت اليوم وتم دفنها!

ما عليها الآن إلا الرحيل من راغب، لم تتفوه بأي كلمات لجيران الراقصة، اكتفت بشراب بعض الماء، هبطت درجات السلم، تحاول بقدر الإمكان صد بكاءها، خبر الموت سيقع على "شريفة" وقع الصاعقة! لكن كيف تخبرها وهي في زيارة الأولياء الصالحين من أجل الحمل؟ عليها أن تفكر في وسيلة أخرى ليصل خبر موت "عنايات" إلى صاحبتها "شريفة".

* * *

لم ينفد صبره بعد، ما زال يبحث عن المجهول والغائب في حادثة "ثريا" ابنة صاحبه "لطفي"، لم يقرر غلق ملف التحقيق، امرأته قدمت الكثير من خبرتها مع زوجها الراحل من الحياة، العقيد الزاني بزوجة صاحبه، رحل وترك لها الكثير من خبرات التحري والتدقيق في الجرائم، عرف منها الكثير من خبايا حادثة "ثريا".. هي لم يدفعها أحد من النافذة، لا توجد على جسدها محاولة اغتصاب، لا مقاومة ولا عنف تدفعها بالقفز من النافذة، هناك شيء واحد، هو الهروب من المواجهة لأحد من الناس، أحد هؤلاء الناس قريب منها إلى أقصى درجة من الحب أو القرابة! هل هو زوجها أم عشيقها التي هربت إليه؟

أزاح فكرة العشيق فهو قُتل قبلها بشهور، حُذف من قائمة الاتهام، لم تكتفِ امرأته بإيجاد تلك الدلائل..

هناك دليل آخر، هو نفسه غفل عنه.. ماء الحب المتواجد على جسدها، هو مفتاح فك شفرة الحادثة الغامضة.

توقف أمام مقهى السلطان حسين، عليه الراحة من خطواته ومن فكره المتعب إلى هذا الحد من الإرهاق، لم يفكر بالذهاب إلى كافتيريا ايليت بوتيت، لا يحلو الجلوس بها إلا مع صاحبه "لطفي" كما في الماضي، الماضي الذي ما زال يعطِ بسخاء من أحداث، لم يفكر بالوصول إلى صاحبه "لطفي" في الأنفوشي، هو من المشتبه بهم في أحداث "ثريا"، عليه أن يبتعد عن عائلة "لطفي" و"شريفة" حتى ينتهي من إتمام التحقيق وغلق الملف.

امرأته دلته على أقصر طريق في معرفة الجاني، "الملوم" هو المشتبه الأول في هذه الأحداث، كان هو رجلها في ذلك اليوم، أوصافه في التحقيق في بيت الغانيات يؤكد، لكن كيف السبيل إليه؟!

مازلت الحالة تحفها الشكوك، ولا أدلة ولا سبيل لفقد أعز أصدقاؤه "لطفي" زعيم البروليتاريان، كم يحبه ويعتز بماضيه وزمالته بمستشفى الأمراض العقلية.

احتسى كوب آخر من الشاي، لم يدخن أو يشعل لفافة من التبغ، يكفي عقله المشتعل بما يسعى إليه من معرفة الحقيقة، لا سبيل للحصول على سائل الحب من "الملوم"، مهمة صعبة وقاسية وبعيدة المنال، هل يرجع مرة أخرى إلى امرأته لأخذ المزيد من الوصايا في إكمال مهمته؟!

الحيرة تأخذه إلى مكان آخر، التحري وبسرية عن علاقة "الملوم" بحبيبته "بيحة"، بل هل تشبعه من وسادة الحرام، أم طرق أبواب أخرى من إشباع شهوته وإفراغ حبه وارتواء عظامه؟ التحري عن خطوات "الملوم" صباحًا و مساءًا هي مفتاح فك الاشتباه والاتهام لحبيبها "الملوم"، هدأت أنفاسه، أشعل لفافة التبغ، عليه أن يعد طرق معرفة حالة الحب بين "الملوم" وحبيبته "بيحة".

* * *

نور الفجر يفجر ظلمة الليل، أكمل ارتداء هندامه في تثاقل، هو الممتنع عن تلك الزيارة، هل يذهب مُطاعًا إلى مقر الظلم مُطأطأ الرأس؟ أم يزيح هذه المهمة ويتراجع؟ يأبى أن يرضخ لأمور يكرهها من بداية مولده ضاق بها صدره ويكاد أن ينفد

صبره من رياح الظلمات تريد أن تعصف به، تدفنه بين تراب اليأس والهزيمة.

فتح أبواب الشرفة على اتساعها، يتنفس هواء الحرية التي لا تقدر قوى الشر أن تمنعها، ويتنفسها من دون رقيب ولا مُحاسِب، أمواج شاطئ الأنفوشي ما زالت ساكنة صامتة لا تخرج أمواجها، رمال الشاطئ ما زالت ملتحفة بسواد الليل، لم تفصح بعد عن لونها الأبيض، أهي مترددة مثله؟ أم تنتظر الإذن من مَن؟! هل رضخت لأوامر السلطة، لا تخرج إلا بإذن؟ أم هي مثله تتردد في كل شيء؟

التفت إلى "شريفة"، ما زالت تعد ما تستطيع حمله في حقيبتها، أخرج تصريح الزيارة، ما زال صاحبه رجل الأمن المهم جامد الملامح بطئ الكلمات يعمل على مساعدته في خطوات حياته البائسة، لم يُغلق أبواب الشرفة، عسى أن يرجع ويتنفس ما بها من هواء الشاطئ، حمل الحقيبة، عليه أن يساعد "شريفة" بقدر ما يستطيع.

كم انتبه إلى الحب بين "الملوم" و"علي" و"شريفة"، دائمًا "الملوم" له الحظ الأكبر من الدلال والحب. تغيرت الأحوال.. "الملوم" في غياب عن كل شيء، البيت والجميلة "بيحة"، هو المُفارِق الغائب ، هن في صندوق المهملات، "شريفة" تزيد

من مشاهد الحب إلى ولدها على المعتقل هو وامرأته بسجن الحضرة، تزيد من كل شيء.

اقتربا من بوابة الاستقبال، عدل "لطفي" من هندامه، رفع رأسه إلى السماء، يريد أن يتعالى على هؤلاء القوم، هو يعرفهم جيدًا، تخر قواهم أمام مَن يَتعالى، يخافون أن يكون من أصحاب سادة القوم، سعد بارتعاش الحارس أمام حركاته وتعاليه، عليه الآن الاستراحة مع "شريفة" في انتظار نداء الأسماء.

التفت إلى "شريفة" تجلس في هدوء، لا تلتفت لأحد، هي في ثبات أيضًا، تتعالى عن هذه المشاهد الزائفة في كل شيء، بطيئة إجراءات الزيارة، تنخر في كرامة مَن ينتظر الفرج، فرج السماح بالزيارة، الشعور بالمَن والحاجة يُسعد هؤلاء القوم، تزداد فرحتهم كلما تأخرت مواعيد الزيارة!

مرت الساعات، الشمس تنتصف في السماء، انتبه "لطفي"! لا أحد من أمثالهم المنتظرين تبرم أو حتى تحرك لمعرفة أسباب التأخير! هو وحده سيقوم بهذا العمل, لكن عليه كظم غيظه، الحاجة إليهم تُجبره على الصبر مع الحيلة والدهاء، لم تمنعه "شريفة" من القيام..

رسم ابتسامته التي تعرفها وتعرف مَغزاها وطريقها، ناولته علب التبغ عسى أن تعرف طريقها في تسهيل الأمور, هذا ما كان متفق عليه، كم نصحه صاحبه رجل الأمن المهم في التصرف في مثل تلك الأمور, انتشى بالنصر, الحراسة تأخذ ورقة الزيارة باهتمام مثل اهتمامهم بهذه العلب صاحبة الأمزجة بالاهتمام والتميز، أطاع الحارس، عليه العودة إلى "شريفة" وانتظار ماذا بعد؟! التفتت إلى بوابة الزيارة، يخرج إليهم المساجين من كل لون، خليط الوجوه لا يُدلل على أي شيء من الاعتقال السياسي! هب مرة أخرى إلى الحارس، لم يتحمل المفاجأة أرض الزيارة تدور من حوله، لا يشعر بشيء، حتى الفرح بالخبر السعيد.

التفت إلى امرأته استند عليها، لم يرضى بالجلوس مرة أخرى، همس إليها:

ـ تم الإفراج عنهم مساء أمس!

* * *

الحاجة إلى مطارحة الغرام تجذبه دون وعي ولا حساب، لذة إشباع حاجته هي رائدة المسيرة! لم يتراجع ويفكر بنهايات ذلك اللقاء، أي عواقب تأتِ لا يعي لها بالًا، هو المُصر على

الجنس والارتواء منه وإن جاء بالخراب، "بيحة" لا يقترب منها، اصبحت مع أمه "شريفة" في عدم اللمس أو حتى النظر إليها، هي الأخرى لا تقترب منه، تبادله شعور الهجر, أهو خصام؟ أم لماذا تقدم على تلك الحالة من الهجر؟!، لم تسامحه عن فعل النعي الزائف لم يفلح في الغوص بأعماقها كما كان في الماضي، الشهور تمر والحب في طريقه إلى الرحيل، وها هو يذهب لإرواء عطشه من حب آخر، حلاوته ما زالت تسرِ في وجدانه وإن كان مع شقيقته "ثريا" الراحلة، يتخبط في متاهات الحيرة، أهو مسحور في فعل الحرام؟ هل دُبر له سِحر؟! لكن مَن يفعل به تلك الأفاعيل؟! لا يجد تفسيرًا لما يجرِ له من أحداث!

لم يلتفت إلى تضارب الأفكار في رأسه، ما زال مصر في مسيرة فعل الحب الحرام، اطمأن إلى حافظة نقوده بها الكثير, سيكون شهريار في هذا اليوم، سيختار أحلى شهرزاد من بين غانيات ليالي الحب، لم ينسى المرور على بائعي أثير الحياة، القرص الألماني هو سيد الفراش، لم يغيب يومًا عنهـ هو دائمًا معه، كم أسعد حبيبته "بيحة" بليالي القرص، حصان جامح يسبق الريح ولا يكل ولا يتعب، "بيحة" تُرهق سريعًا من خطوات المتعة، شقيقته كانت تطلب المزيد!

اقترب من الزنقة، نعم هي زنقة بكل المعاني، زنقة الستات، لكن مَن المزنوق هو أم صاحبات الأجساد الملتهبة؟ أراح فكره، هو المزنوق المُتعطش لجمال الجنس وأساليبه المتفجرة بين الأغطية والوسائد.

التفت لأبواب المسجد، لم تُغلق بعد، أسرع إلى ميضة الوضوء، احتسى بعض الماء مع قرص الحب الألماني، لم يُسرع بالخروج، ما عليه إلا انتظار اشتعال حرارة الحب.

انتبه إلى خادم المسجد يهمس إليه:

ـ هل معك قرص آخر لنا ؟

لم يهتز من اكتشاف الخادم ، شعر بالسعادة، أخرج قرص آخر، اختطفه الخادم، تابع حركاته وهو يسرع بغلق الأبواب والنوافذ، عليه هو أيضًا الإسراع إلى منازلة الحب!

اتجه إلى بيت اللذة، صعد درجات السلم، لم يذهب إلى بيت آخر، بيوت اللذة كثيرة بزنقة الستات، لا يبتغِ غير بيت "ثريا" الراحلة، الإنارة تملأ درجات السلم.

لم يسلم من نظرات تلك المرأة، تنظر إليه تحوم من حوله، لم يعجب بها، التفت إلى الأخرى، هي أيضًا تراقبه من أحد أركان الغرفة، أشار إليها، استجابت له، لن يحيد عن غرفة

معاشرة "ثريا"، لم يشعر بلذة الجنس أو بالهياج وما يفعله قرصه الألماني!

مضى من الوقت الكثير ولم يزل في غُربة البِعاد عن النشوة التي يبتغيها ويعشقها، لم يعترض، الغانية تتركه، ما زال يُتابعها، لا يستطيع الإشارة إليها بالعودة، لها كل الحق في الرحيل، جسد ميت فشل في كل خطوات المتعة معها، لا يستجيب ولا ينظر إليها ولا يُنعشها حتى بقبلة من قبلاته الحارة مع "ثريا" الراحلة!

أشعل غليونه، عليه الاستراحة عسى أن يُعاود إضرام ما فشل في إشعاله، لم يفكر في اختيار امرأة أخرى، غانية جميلة من جميلات الريف، غجرية تأتِ من مولد من الموالد الصوفية، عليه الانتظار، هي ستُكمل مهمتها معه، ستأتي ولو بعد حين، انتبه باب الغرفة يفتح مرة أخرى، ليست من كان معها هي الغانية الأخرى التي كانت تنظر إليه وتحوم من حوله وقت حضوره ، لم يقدر من الفرار، سقط غليونه المشتعل، رجل الأمن المهم جامد الملامح بطيء الكلمات يقف في مواجهته! تمنى أن يفر حتى ولو بالقفز من النافذة، لم يجرأ، هو جبان، شقيقته "ثريا" كانت أكثر منه شجاعة في الهروب من الفضيحة.

* * *

جلس على شاطئ الأنفوشي، هواء الليل كم يشتاق إليه، الشاطئ رحل عنه رواده عند غروب الشمس ورحيل الباعة وأصحاب تأجير المظلات والمقاعد، يمنحه السكون ومراجعة أحواله من غير رقيب ولا تصنت لما يريد البوح به من تقلبات آلامه ومآسيه، حاول أن يحيا الحياة الكريمة في كل شيء، من بداية خطواته حتى الآن، لا يجد خطوة واحدة تنجح ولو لساعات قليلة، لم يفكر بالذهاب إلى زعيمه وقائده الزعيم سعد زغلول بمحطة الرمل، لا فائدة من الذهاب, الزعيم لا يقدر على فعل أي شيء.

مرت السنين وتوالت المصائب، هل هو السبب في عدم النجاح ولو مرة واحدة في حياته البائسة؟ "شريفة" من أهم أسباب فشله وسوء حالته، لم تقف ولو مرة واحدة في مؤازرة فكره والوقوف بجانبه، هي تعمل دائمًا على تحقيره أمام أبنائه والسخرية منه في كل الأحوال سواء بالليل أو النهار, الرضا منها لا يراه إلا في غرفتهم الخاصة بين خطوات الفراش ، لا سبيل إلى الرحيل، وإلى أين يرحل بعد فوات الأوان من ضعف قوته وعمره الراحل إلى الفناء؟ لن تعجبه فكرة الرحيل، لم يجد

أسماء تعطيه لحظة أمل، أسماء عفا عليها الزمن، رحل مَن رحل واختفى مَن اختفى، حتى ولده "علي" رحل للقاهرة دون كلمة وداع أو شكر عن معاناتهم معه في أيام اعتقاله! رحل إلى القاهرة مع امرأته، لماذا كل هذا الغباء منه؟ حتى امرأته لم تذكره بوالديه قبل الرحيل، تمامًا كما فعل في زواجه دون حس ولا خبر! لما كل هذه القسوة وهذا العقوق؟!

ضاقت به الدنيا رغم اتساعها وبراحها، التفت إلى قاعدة رأس التين وقصر الملك، هناك كان عمله، هم أيضًا تخلوا عنه بخروجه إلى المعاش، حِجج واهية، بلوغ سن الستين عام! أما أصحاب القبعات والنياشين تُمد لهم السنين، وإذا خرجوا على المعاش فلهم كل الاحترام ووظائف أخرى حتى ينتهِ أجلهم! شتان بينه وبينهم، هم شعب مصر المُختار ليعلون ويستمتعون ويَقهرون كل من يقف في طريقهم!

كل الطرق مُغلقة، كل السبل غائبة، الدنيا كلها ظالمة، حسرته على أحواله تستبد به، سنين عمره تذهب به إلى طريق واحد، لا مفر منه ولا يجد غيره.. الخلاص من كل شيء!

لكن بأي السبل يُتمم هذا الأمر؟!

لم يشعر بمرور الوقت وانتصاف الليل، لن يعود إلى بيته، سيظل في الشارع وعلى الشاطئ وبين الرمال، حتى يجد

ضالته وطريقه للخلاص مما تضيق به حياته كلها. لن يمل على أن يعجز عن ما يريد عمله حتى وإن كان ناقصا أو يصل به إلى الفشل، لن يلجأ إلى صاحبه رجل الأمن المهم، لن يذهب إلى شقيقته "جميلة"، أقرباء وأصدقاء لا يقدرون على فعل شيء له مما يُعانِ، ومن أول أسباب المعاناة، امرأته "شريفة"، لن يبالِ ولن يهتم أحد بردعها، اختة "جميلة" تصدها امرأته عن أي شيء من المودة أو الحب، رجل الأمن لا ترى به إلا علامات فضيحتها لفعلتها مع العقيد صاحبه، لا سبيل إليهم في أي شيء في حالته المستعصية المستمرة في العصيان.

التفت إلى شارع الحجاري، هناك يوجد الحل، ما عليه إلا الذهاب إلى هناك، هي تعمل بالليل والنهار من البيع والتجارة في المزاج، حبيبة "شريفة" الست "أم حربي"، هي حلالة العقد ومُصلحة الأحوال بين أهل الحارة، ملكة زقاق بندقة، الجميع في طاعة لأوامرها.

كتم حزنه، لم تهتم بالحديث عن "شريفة"! لم يصبر حتى نهاية اللقاء، عليه الانسحاب، هي لا تملك شيء من الحل، استجاب إليها، قطعة الحشيش في يده! لم يشكرها على هديتها التي يكره حتى أن يحملها!

التفت إلى طريق العودة، شاطئ الأنفوشي، هناك المتسع من الوقت ليصل فيه لحل مشاكله، لم ينسى القذف بقطعة الحشيش على جانب الطريق.

* * *

أراد أن تعود ليالي الحب كما في الماضي القريب، صعد بها على درجات مسجد المرسي أبو العباس المُغلق، تغيرت أحوال ساحة الأولياء الصالحين من الأضواء الفاضحة لكل من يريد أن يختفي في الظلام وعمل ما يحلو له من ألوان الغرام، "بيحة" تفعل ولا تهتم، لم تستح من ضم جسدها إليه، هو في قمة الفرح بعودة أيامه الحلوة معها، لا خوف من أي شيء، هي لا تعلم بخطوات الزنا مع "ثريا"، ولم تشعر بغيابه في تلك الليلة المشئومة، ببيت البغايا بزنقة الستات.

كم كان رجل الأمن صاحب والده إنسانًا رائعًا، كتم الخبر وأغلق التحقيق، كان على قناعة بكل ما صرح له من أحوال تلك الليلة مع شقيقته "ثريا"، هو برئ كل البراءة من قتلها، هي وحدها التي اختارت تلك الموتة وهذه النهاية، هو لا ذنب له في قتلها، كلمات رجل الأمن كانت عودة لروحه وهيامها الضال في طريق الزنا:

ـ عليك الاستغفار عما فعلت.

أقسم له بالتوبة والسير في طريق الاستقامة والعودة إلى حبيبته "بيحة"، وها هي بين أحضانه، لن يحنث بعهده وقسمه، كان يتمنى اللحاق بالمسجد قبل الغلق والجلوس في رحاب الطاعة، "بيحة" تبث أنغامها الفائتة:

ـ "الملوم" قمري الذي لا ينقص ولا يغيب.

يريد أن يجزل بالعطاء ولا يبخل في أي شيء، أخيرًا بدأت الأحوال تستقر ويعالج مرور الزمن في نسيان الماضي.

"لطفي" و"شريفة" في لهفة لأخبار سعيدة من الحمل، "بيحة" بارعة في الإيحاء والكذب كما تظن بكذبه بيضاء لا تضر، انتبه هي في طريق النوم، أمسك بيدها، ما زال في الوقت متسع.

توقف أمام مسرح شهرزاد، الأفراح والغناء على أشدها، أمسك بيدها، بارك لتشريفة الاستقبال على أبواب القاعة، زاد من التهنئة وحرارة الأكف، تمت فرحته هناك ما زالت مقاعد شاغرة، ابتسم إليها، هو يعرف كيف يتصرف في هذه الأفراح وإن كان غير مدعو، كم من المرات قضى وقته مع أصحابه بالتمتع بين الأفراح، حكى لها الواقعة الضاحكة، يدخل مع أصحابه في مسرح يتذكره جيدًا، مسرح تر وبيكو ، لم ينتبه

أصحابه لمَن هذا الفرح، يصعدان درجات السلم، يدخلان إلى قاعة المسرح وإذا بالمفاجأة، فرح من أهل النوبة، لا يوجد من البيض أحدًا، الجميع ذوي بشرة سوداء اللون، لم يسلم هو وأصحابه من العقاب الوافي من الضرب والركل والانكفاء حتى آخر درجات السلم.

انطفأت الأنوار بدأت خطوات ومشاهد الحفل من الغناء والفكاهة، كان يتمنى أن ينال مثل هذه الفرحة، ظروفه كانت هي الحاكمة في مراسم زواج، هي ومراسم العزاء سواء، تمنى الجلوس على مقاعد العُرس هو وحبيبته وهي ملكة متوجة بتاج تعشقه كل امرأة وتتمناه كل فتاة، هو يريد أن يكون ملكًا يتكئ على مقعد العرش، يُحيي الجماهير، يملأ أحاسيسه بكل ما هو جميل في تلك الليلة، لا مفر من نسيان كل تلك الأحاسيس، شيء واحد عوضه عن كل هذا.. "بيحة" في أحضانه، عودة العشق والهيام بجمالها يُنسيه كل هذا، يرحل به إلى عالم المتعة الدائمة، يلتهمها في أي وقت ويُمتعها كيفما تشاء.

التفت إليها هي الأخرى، عيناها تشع منها حرارة الحب، هي أيقونة في سياحة مع مشاهد الفرح وبهجة الترحاب بالعروسين، أضاءت القاعة أنوارها، الآن توزيع ما لذ وطاب من الحلوى، عليه الانصراف، لا حاجه للإحراج، أخذ بيد

حبيبته بهدوء، في خطوات متثاقلة لا يريد أن يلفت إليه نظر أحد من أصحاب الفرح.

هواء البحر مُنعش يُجدد النشاط، سلم يده إليها عبرا إلى الكورنيش، عليه الصبر وانتظار الخطوة القادمة من الحبيبة، استمع إليها، لم يلتفت يمينًا أو يسارًا، لا يريد أن ينهِ هذه اللحظات من الحب الذي بدأ من جديد، هو أقوى من الماضي، جمالها طاغ، على صدره شعرها الأصفر وجسدها النحيف ولون ثغرها، كلها تبهر ويركع لها أي قلب، جمال مُكتمل بالبحر من وراءها بأمواجه المتواترة وزبده الأبيض.. لوحة ربانية، لابد من الحفاظ عليها والتمسك بها.

انتبه إلى الصوت القادم من الغمام، "ليلى" الخرساء تُلوح له من بعيد، هي لا تقترب، ما زالت في ردائها الشفاف، حاول أن يصد ارتعاشه، شقيقته "ثريا" تلحق بها، تقف بجانبها، هي كحالها عارية كما رآها في المرات السابقة في بيت البغايا أو مصاحبة لفينوس في حلم الشاطئ، لا حيلة له إلا الانسحاب من هذه الكوكبة من الحب.

يمسك بيد حبيبته "بيحة"، يُقبلها في قناعة باختيارها وحبه لها يعلن لهن ، هذا حبه وعشيقته وزوجته .

التفت إلى فينوس و"ثريا":

ـ هذا قراري، كفى رجوعًا إلى الوراء.

لم يستطع الصمود أكثر من ذلك, فينوس في عراك مع "ثريا"! عليه الفرار هو خائف، لا يريد أن تؤذِ إحداهن "بيحة" حبيبته.

* * *

وقف بجانب البوابة العريضة، كم هي مرعبة، تفوح رائحة الموت من داخلها، هي وما بداخلها سواء في كل شيء، عليه الصبر حتى الدخول، كان يردد:

ـ إن ضاقت بكم الصدور فعليكم بزيارة القبور.

لا يمكنه المرور إلا في وسط المشيعين للجثامين، طقوس الدخول لها من الأسرار الكثيرة لا يعلمها إلا القليل، يسأله الحارس:

ـ لمَن الزيارة؟ ومن أي عائلة؟

لن تمر الدقائق حتى يرى تُربى المدفن في المواجهة، تنسيق عجيب بين الحارس والتربي من أجل الاسترزاق من الزائر ببضع جنيهات، هذه الأمور تُجبره أن يَندس وسط أي طابور من حاملي موتاهم داخل المدافن، جاء فرج الدخول، نفذ

خطواته بكل دقة، بل تمادى في حمل هذا الراحل الميت، اقترب من قبور العائلة، أشار إلى رجل آخر بالحمل من أجل الراحة.

وقف أمام قبور العائلة، لم يلتفت إلى قبور الرجال، أبوه يقطن في إحداها، انتبه إلى قبر أمه، برك بجانبها يتلو بعض آيات الكتاب. سرح في شقاء الأيام معها، عانت الكثير من أجل أن يُصبح رجلًا يُعتمد عليه، قبر متواضع كما كانت معه في حياة أيامها، ترضى بالقليل، لقنته كسرة الخبز، ما زال يحتفظ ببعضها في بنطاله.

التفت إلى قبر والده، شموخ العائلة يتجلى في هندسة بناؤه، رضى بعائلة أمه في قائمة البروليتاريان، لم يستجيب لحياة الجاثم في القبر، لم يعجب بحياة البذخ وتقليد البكوات والباشاوات مثل والده، قناعته بحب أمه، هو راضي كل الرضا بما مرت به من أحوال.

انتبه إلى التربي يقترب منه، لن يتراجع، عليه التصدي لابتزازه ولو بقليل مما معه من نقود وهى معه قليل، أشار إليه بالقبر المفتوح، برك على الأرض، لم يستطع تحمل الخبر، قبر شقيقته "جميلة"، هي في طريقها لمثواها الأخير!

عمد إلى تجاهل عائلته، لم يُسلم على أحد، أعطى ظهره للجميع عسى أن تتم مراسم الدفن، لم ينتظر كثيرًا حتى انتهى الدفن، التفت إلى أهله وعائلته، الجميع متواجد، هذا ابن العم المليونير وهذا المستشار وهذا الطبيب صاحب المستشفيات الخاصة وهذا وهذا ، لم يترنح ولم يكظم غيظه، غيظه الذي صبر عليه من سنين فائتة، وأحداث صاخبة وعزلة من حديد له ولأسرته، يتقزز منه الجميع، هو الفقير المعدم عامل دهان الموبيليا، الأسطى "لطفي"، أصابعه تحمل بصمة مهنته من جميع الألوان يحملها على أكفه وأصابعه!

صعد على قبر والده، أشار إلى تلك الصُحبة الخربة، لم يقدر أحد على الانسحاب، الجميع يخاف منه، يخشاه، وهذا ما تمناه عليه الآن، التكملة:

أشار إلى ابن عمه يهم بالانسحاب، أمره بالتوقف:

ـ أنت أولهم في حفل الموتى، أنت ومن في القبور.. سواء شقيقتي جميلة تحت التراب، أنا وأنت وهؤلاء الأقزام سنلحق بها وقت ما يشاء.. أنا العبد الفقير "لطفي" أتبرأ منكم، أنتم لم تصلوا حتى إلى مرتبة الجماد، هذه الحجارة أكرم منكم، بل وأشرف كذلك.. أنتم جبناء تعساء يعميكم الكبرياء!

لم يستطع أحد الرد عليه أو الانصراف، اقترب منه ابن مَن سبه وأوقفه، هو يعرفه جيدًا من الصغر، كم جلس يداعبه بالصغر، الآن يزهو ببدلته العسكرية، أشار إليه بالتوقف:

ـ هذه نهاية خطواتك لنا، لن تقترب أكثر من هذه الخطوات، لن تُخيفني بما تحمل من رتب أنت وأبوك، بل وعائلتك وليست عائلتي، أنا متبرئ منها ، اعلم وهذه نبوءتي وخبري إليكم، أنت أول مَن سيلتحق بهذا المكان.

أصابعه تشير إليهم جميعًا: أنت وأنت وأنت.. أيتها العمة المتعجرفة كم فرقتِ بين الأحبة. كم فرقتِ بيننا وسممت عمرنا.. أليس في الموت عظة وعبرة؟ أليس في هذه القبور وحشة ورجفة؟ لا تهتمون إلا بأموالكم ومتاعكم وأصحابكم.. أنا المنبوذ الغلبان أنا أنا..

لم يستطع الثبات، قبر والده يسقط به في داخل ظلمته، لم يتقدم أحد لإنقاذه أو مساعدته. رحل الجميع! سمع ضحكاتهم وهم في طريق الخروج من المدافن! ثرثرة كلماتهم تصم آذانه، تحطم آماله، لم يُكمل ما أراد إعلانه..

سعد باليد التي تدخل في القبور تُخرجه، تُربي المدفن، لم ينبس بكلمة، أدار ظهره وهو ينفض ثيابه من أتربة الموتى.

* * *

لم يرثى لحاله، عليه الصبر بما أصابه من كل شيء، رحيله من الإسكندرية دون وداع أبويه، كارثة لم يشعر بها إلا في هذا الوقت وتلك الظروف، كم هو عاق لوالديه، يخرج من المعتقل ويرحل للقاهرة دون كلمة وداع أو شكر لهم!

الخطأ يتكرر كما كان في الأعوام السابقة، يتزوج دون إخبارهم أو دعوتهم لمباركة الزواج، وها هو يُفرج عنه ويرحل دون أن يخبرهم بخروجه هو وزوجته!

الآن يشعر بالذنب، وها هي عواقب العقوق، يُفصل من عمله، هو خطر على الأمن العام! ليس له ذنب في كل تلك الأحداث، ذنبه الوحيد هو والد زوجته الشيخ الطاعن في السن، ولا يريد أن يتزحزح ويبتعد عن الجماعة الإسلامية، يُصر على كلماته:

ـ لن أهدأ حتى تُرفع راية الإسلام، ويعم العدل في أنحاء وأقاليم مصر.

يا له من عدل! يُفصل من عمله، ولا يترنح الشيخ الكبير! يُطمئنه:

ـ هناك من العمل الكثير، لا تقلق، رزقك مكتوب في السماء، ما عليك إلا الثبات وانتظاره حتى يأتي.

حبه لابنة الشيخ هو مفتاح الصبر حتى يأتي الفرج.

لم يتعود أن يكون عالة على أحد، حتى وإن كان هذا الشيخ وأسرته، لم يرى أي مظاهر من التذمر على أحواله، هو عاطل يحيا بينهم، لم يتغير شيء، الطعام والشراب والفاكهة، حتى الخروج مع امرأته والتنزه على شاطئ النيل، كل تلك الأحوال لا تُهدأ من فِكره أو تنحيه عن البحث عن عمل.

مضى شهران، ولم يُفتح له باب من أبواب الرزق، خبرته في عمله الحكومي تفشل في أن يجد مثله بالقطاع الخاص، روتين الحكومة لا يعجب القطاع الخاص، عجز عن إقناع أصحاب الأعمال بخبرته وهو يمتلك الكثير من القدرات، وتأتِ النهاية بالإجابة الملعونة:

ـ ليس لك أقرباء في جهات تفيدنا في أعمالنا، نحن نريد مَن يُسهل لنا تلك الأعمال.

إجابة صادمة قاسية عليه وعلى أمثاله الباحثين عن عمل، التفت إلى تمثال أبو الهول، وها هي الأهرامات أمامه، والسائحين في كل مكان من حوله، هذه فرصته التي غفل عنها، لغته الانجليزية هي مفتاح الفرج والتعامل مع الأجانب.

اقترب من أحد باعة التُحف، لم يرفض البائع معاونته في التحدث مع الزبائن، لم يُكمل حديثه، تلوى ذراعه وقُذف به في سيارة الأمن!

* * *

لم يُفصِح لـ"بيحة" عن اشتياقه لنغمات حبه، لذكرياته والمرور عليها من حين لآخر، هو في حذر وخوف من أن تُثنيه عن ما يدور بخاطره، قدم عذره إليها وهو في طريق الخروج، واجب العزاء لإحدى زميلاته في العمل واحتمال العودة في منتصف الليل، هو في لهفة وشوق لهذه الأمكنة، إلحاح حب الذكريات يُطغى على فِراق حبيبته والكذب عليها! عليه أن يفرد أشرعته، ينطلق مع الرياح والأمواج، يهتدي بنجوم الليل، يُطلق العنان لقلبه ليستقر كيفما يريد، سلم دفة ذكرياته لقلبه، هو القبطان وهو الآمر والناهي ومن أين يبدأ؟

قلبه يرقص، يرقص معه، يقفز بين أحجار عشه الهادئ، بيته القديم ما زال يتحدى السنوات وزمانه الذي فات من عشرات السنين، تجاعيد الشقوق هي وتجاعيد وجه أبوه "لطفي" سواء.

التفت إلى سينما الأنفوشي، تغيرت الأحوال، مسرح يعج بزغاريد النساء، زفة عروس، رحل وقارها وإعلاناتها بالنجوم العرب والأجانب، رحل الجميع، لم يبقى إلا بقايا صور محطمة منقوصة الاكتمال كما هي حالها الآن، لم يعجبه الحال.

عرج إلى شارع الحجاري، هناك أصحابه القدامى، حاول العثور عليهم، لم يجد غير شقيق "عاصم"، كم كانوا على درب الأفلام الأجنبية هائمون، سينما بلازا وسينما رمسيس ولهمبرا، فسحتهم الأسبوعية، ذكرياتهم وتمردهم على سينما الأنفوشي ورأس التين، هم في شغف إلى مشاهدة أفلام الحب والمغامرات، لا يجدوها إلا في تلك الأماكن. الحجاري تغيرت، رحل مَن رحل ومات مَن مات، حزن على صديقه الكبير "ممس" المعيد بكلية الزراعة، مات من أعوام، لحقته حبيبته ست البنات. أهل الشارع لا شاغل لهم إلا الحديث عن حب "ممس" لست البنات.

لم يصبر على سماع بقية الأخبار، شكر ووداع، عليه الاتجاه إلى... آه لم يقدر على فوات أمكنة حبه، زقاق بندقة. التفت إلى بيت فينوس الخرساء، متهالك يأذن بالسقوط! لا يسكنه أحد، كم من قبلات الغرام على درجاته !!، التفت إلى شرفتها العالية، أين هي؟ أين بسمتها ونداء حبها وحيلها؟ مشبك

الغسيل ترمي به، يلتقطه، يصعد به إليها، يتم الحب في حياء، لا تبخل عليه، تعطيه ما يشتهيه، دائمًا جسدها يخضع له بكل ما يملك من أحاسيس ونغمات مأمأة، هو يعشقها يذوب فيها، هي أحلى من كل أغاني الدنيا.. دارت الأرض تحت أقدامه، يترنح، لا يقدر على الوقوف، جلس على درجات السلم، الظلام ورائحة المكان، يريد أن تكون بجانبه، الشهور تمر ولم تأتِ إليه في ثوبها السرمدي، يريد أن يراها، يريد نسمات حبها الراحل، لا تُجيب على نداء قلبه، هو وحده في ظلمة الليل وعلى درجات حبها يجلس، أين فينوس حبه؟ أين "ليلى" الخرساء؟ لن يرحل قبل أن يُكمل معها لحظات الحب وإن كان سرمديا.

انتبه إلى القادم، "أم حربي" بائعة المزاج، لم يَسلم من كلماتها اللاذعة، هو يتلقاها كما في السنين الفائتة:

ـ يا روح أمك يا حبة عيني، أما زلت تعشقها وتتمناها. ألا تشبع؟! تزوجت ومازلت على حالك! عليك أن تنساها. هي في المدافن. اذهب إلى حضن امرأتك.

لم تبخل عليه بخبر حضور "لطفي" إليها للخلاص من "شريفة" منذ أيام:

ـ كلكم كلاب، لا تحبون إلا الفراش أنت وأبوك، هو ينكر "شريفة"، وأنت تخدع امرأتك!

لم يصبر عليها أكثر من ذلك، أسرع بالرحيل من الزقاق قبل أن يخرج عليه النهار.

* * *

لم تهتم بسقوط المطر ودخول الليل، الليل يسترها من عيون المتلصصين عليها من الجيران وأهل الشارع، حتى "لطفي" أصبحت تكرهه، تفرمن أنفاسه.

عليها قضاء بعض الوقت للراحة من عذاب مَن حولها حتى وإن سارت تحت المطر، تبتل، يلتصق ردائها بجسدها، لن تهتم، عليها الإسراع إلى شاطئ البحر، هناك على الرمال تجد مُتعتها، صفحات ذكرياتها الحلوة والمُرة.

ضاقت بها الأحوال، "لملوم" يمرح مع امرأته، "علي" لا تعرف عنه أي أخبار, زهدت في كل ما كانت تتمناه أن يدوم، فراغ الحب يدفعها إلى الشاطئ وبين الرمال، ليس عندها ما تُفضي به إلى البحر، هو ساكن مثلها بلا أمواج ولا صوت، يبخل عليها حتى برائحته التي تعشقها.

خلعت ردائها المبتل، أكملت خلع كل شيء! لا شيء يسترها! ولمَن تريد الستر؟ ما عليها إلا استقبال المطر على بدنها، تتلذذ به، يُغنيها عن مرارة أحوالها، لم تطمئن إلى ظلام المكان، تطمئن لهطول المطر, مَن المجنون الذي يفعل ما تفعله؟ هي وحدها تُصر على فعل الجنان! هي في راحة لما تفعل، أهي تسخر من نفسها، أم تريد الانتقام من حياتها البائسة؟

لن تعود إلى مَن رماها في براثن الزنا، أهو الفقر أم العشق أم ما الذي أوردها تلك المهالك؟ ضاعت ابنتها "ثريا"، حُرقت بنار العشق، خربت على بيتها بيدها لا بيد أحد، زوجها الديوث هو الذي أوردها في نار الجنس برغبته، لا أحد فتح لها أبواب الرزيلة، هو الفاتح لكل أبواب الشر، ترك لِجامها على السائب، هي مظلومة محرومة من مُتعة فراشها، لم يعرف كيف يفتح أبواب لذتها، بحثت عن الفاتح الفالح، الخادم نجح في الفتح والزيادة!

لم يعجبها انقطاع المطر, عليها ارتداء ما يسترها، فشلت في تكملة سترها، رجال الشاطئ يلتفون حولها، تعرفهم كما كانوا بالماضي يهرولون وراء امرأة الشاطئ، هي الآن تلك المرأة تفعل خطواتها، تُسرع بين الكبائن، تريد الفرار من

هؤلاء الذئاب الجائعة! سنوا أنيابهم بالحشيش وخمر الكحول، لا سبيل إلى الهرب، خارت قواها أمام شهوتهم الجامحة، هبطت على الرمال، نوافذها تُفتح طواعية، لا تقدر على الصد أو الصمود!

التفتت إلى القمر، كم هو جميل في تلك الساعة من الليل!

* * *

الدنيا كلها تدور من حوله، أركان الحجرات تكتم أنفاسه، تشل حركاته، تضغط عليه، هي والقبر لا فرق بينهما..

غياب "شريفة" يُحطم كل شيء، عذاب أربعة من الليالي السوداء، لا حيلة له في البحث عنها، لم يكل بحثه بين الشوارع والحارات صباح مساء، يفشل ولا يستطيع أخبار أحد بأحواله عنها، يكفي ما جرت عليه من عار في السنين الماضية، لن يُكرر الماضي، لن يطأطئ رأسه مرة أخرى أمام أهل حارته، يكفي ما كان من خراب ومصائب، لا يقدر أن يأخذ أنفاسه، "شريفة" تزني، و"ثريا" تزني وتحترق، وولده "علي" لا يعرف أين هو؟ وها هي الطامة الكبرى، رحيل ابنه "الملوم" ليستقر في سكن مُستقل. "بيحة" أصرت على الرحيل!

لمَن يشكو حاله؟ لا أحد، غُرف فارغة سوداء، هي التي تشتكى له عن أحوالها، لا يريد أن يستمع إليها، أين مَن يستمع إليه؟

تخلى عنه جميع أحبابه، حتى صاحبه رجل الأمن المهم رحل خارج مصر، لماذا لم يفعل مثله ويرحل هو الآخر؟ والى أين يستقر؟ دنيا لعنة على الشرفاء أمثاله، لم يصبر صاحبه على أحوال مصر بعد رحيل الزعيم المؤمن السادات، فر مع حبيبته، عرف كيف ينجو، هو يعرف ما يتوارى خلف الكواليس من أحوال، لم ينسى نصيحة آخر لقاء:

ـ عليك الراحة من فكرك وآمالك، لا فائدة من كل ما تصنع، لن يلتفت إليك أحد.

لم يلتفت إلى كلماته، هو مُصر على تكملة رسالته، الحرية هي غايته، طال عمره وكبرت آماله، وما زال يتنفس من سنين الملك والثورة من نكسة وانتصار، هو يتحمل ويصر على مواصلة أحلامه التي تنتهي في هذه اللحظات، ينهزم في عُقر داره، إشارات من الفشل تُحدد اتجاهاته وتهزم عزائمه وتحطم كل شيء!

لا سبيل إلا الرحيل، مغادرة سكنه الملعون وعائلته المنحوسة، بحث عن بنطاله القديم المرقع وقميصه العبك، لم

يلتفت إلى حذاؤه المثقوب، ليس في حاجة إليه مثل حافظة نقوده المتواضعة ببعض النقود، أخرج تحقيق شخصيته، لم يتردد في تمزيقه، قذفه في أركان الغرف، اطمأن إلى كسرة الخبز التي ما زالت قابعة في بنطاله، الآن عليه الرحيل، لم يُغلق مزلاج الباب، تركه على حاله، هبط درجات السلم في حذر، لا يريد من أحد أن يراه، يكره الجميع، كلهم سواء في القائمة.

التفت إلى شاطئ البحر، كم هو خادع استمع إليه كثيرًا, لم يدله على أي شيء من الحل، يستمع فقط، يُسجل ويقلب صفحات أمواجه لكل مَن يشكو.

لن يمر أمام أحد سيعبر إلى الشاطئ، الظلمة تساعده على السير دون حرج وهو حافي القدمين، يعرف إلى أين يذهب، إلى صاحبه وقائده وملهمه، الزعيم لا يبرح مكانه ولا يمل ولا يتعب، هو الفارس الذي تحدى الملك، جمع كل أهل مصر، ثورته تهز أحوال العالم، هو مثله يسير على خطواته.

اقترب من حديقة الزعيم سعد زغلول، انتشى بالفرح والغرور، لا يوجد أحد من مريديه تحت أقدامه، هو وحده سيكون مريده ومُرافقه، لا أحد يتحمل مثله شتاء الإسكندرية حبيبته.

صعد درجات منصة الزعيم، أخرج كسرة الخبز، قضم بعضها، لم يصبر بإنهاء مضغها، بلعها!

التفت إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، ما زالت نظرة السخرية تحتويها، لم يغضب، يكفيه ما به من هموم، أشار إليه، هز أقدامه الحافية، لم يلتفت إليه، أعاد الهز عسى أن يلتفت له، هو على حاله يزهو بجسده النحاسي، يتأنق بطربوشه الثابت فوق رأسه لا يهتز ولا يتزحزح مثل أقدامه الثابتة على قاعدة المنصة! لم يصبر, عليه أن يُحدثه.. نعم، الزعيم دائمًا يستمع له، يعرف كل أسراره وما مر من عذاب امرأته وعذاب حريته، لم ينجح في التحدث بالمزيد من أحواله.

جلس على درجات المنصة تحت أقدام حاملة غصني الزيتون، ليس للراحة، يريد أن ينصت يتلصص على حديث زعيمه مع قلعته المشلحة من كل شيء، تهزأ بها الأمواج تلطمها من كل اتجاه، هل يبدأ بها ويفضحها أمام زعيمه وقائده؟

انتفض! نظر إلى القلعة ، من هنا يبدأ حديثه، من هنا يكشفها ويفضحها، هي الملعونة عبر الزمان. التفت إلى الزعيم، ما زال لم يلتفت إليه، سيبدأ خطابه السرمدي:

ـ أنا الأسطى "لطفي" حامل رايتك مؤمن بعقيدتك أحب خطواتك..

أعشق كلماتك، منتمي إلى ثورتك..

لا تخذلني ولا تلومني ولا تفضحني.

أشار إلى المرأة حاملة غصني الزيتون، لا تعجبه نظرتها، تُشعل نيران غضبه وعليه تأديبها:

ـ لا تُخدع مثلي بما خدعتني به امرأتي، هن سواء في كل شيء، تحت أقدامك لا تتحرك من مكانك، لكن أين قلبها؟ أين عشقها؟ أين حبها؟

لا تنخدع بغصني الزيتون، هي تزين كي توقع فريستها، أنت فريستها!

لا تتحرك من على منصتك، ولا تبرح مكانك ولا تطلب المغامرة.

كبلتك بحبها كما خدعتك قلعتك بعلو أسوارها وحصونها.

أنت زعيم الأمة، فأين الأمة؟!!

فشل في جذب غصني الزيتون، هم ثابتان في كفها النحاسي، بل فشل في طرحها على أرض المنصة! جُن من

سخريتها منه ، قهقهة ضحكاتها تدوي في السماء، لا يقدر على فعل أي شيء كما فشل مع امرأته "شريفة".

التفت إلى الزعيم، أخيرًا التفت إليه وعليه تكملة خطابه السرمدي.. لن يتحفظ في كلماته، لن تكون حانية، ولن تكون مؤدبة، كفى تأدبًا وكفى حنانًا، سيصرخ بأعلى صوته، سيُسمع العالم كله ستُحفظ كلماته، ستُكتب في التاريخ بماء الذهب:

ـ خدعتنا ووعدتنا، ولم تلبي حتى نداءنا، هنا نأتي ونتوسل إليك، قلعتك مشلحة، كل ألاعيبها أن تبقى مُصانة مكرمة لا يهمها مَن هو حولها، نحن أمة مُهانة مُداسة، وأول مَن داسها قلعتك الزائفة , لم تُجب يومًا نداءك ولم تنضم إلى ثورتك.

لم يهتم بسخرية المرأة ونحاسها وضحكاتها, يكفِ الزعيم ما زال يستمع إليه بل وجه النحاسي بدأت أوداجه ترتعش، فرك أقدامه من الأتربة، صعد درجات المنصة يريد أن يصافحه، يريد أن يُحركه من هذه الدنيا الزائفة كمثل حاله، اكتشف كل شيء، لكن فات أوان كل شيء، لم يبقى إلا زعيم الأمة، وما عليه إلا أن يُوقظه من غفلته:

ـ ألا تذكرني؟ كم هتفنا بجانبك، كم أحببنا عبارتك.

سعد يحيا سعد...

يا ترى مَن خدعنا، أنت أم مَن؟! ألا ترى حالي وأحوالي؟ كم شكوت لك عنها، كم استمعت لنصائحك، وها هي أحوالي، فشلي في كل شيء. لا أنيس ولا حبيب ولا أبناء ولا أمة، هي غائبة، بل ميتة، تُجهَز لتُدفن بين الأتربة.

أخرج كسرة الخبز من بنطاله، قذفها في الهواء:

ـ أترى؟ لا أريد أي شيء من هذا الوطن، ملعونة تلك الكسرة... لن تذلني أكثر من هذا. سأبحث عن كسرة أخرى أجد لها طعم ورائحة. وكذلك وطن. لن تفيدك منصتك. لا ينصت إليك أحد!

ـ أنا مريدك جئت لأخلصك، أنا العبد الفقير "لطفي"، حامي الحمى، قاهر الغنا، زميل البؤساء، زعيم الضعفاء، ارحل معي إلى هناك...

أشار إلى الشاطئ وأمواجه السوداء، انتبه إلى الزعيم يهبط من منصته، يبصق في وجه حبيبته النحاسية، يرمي بغصني الزيتون، يخلع طربوشه النحاسي، يقبض على يده، عبرا إلى شاطئ البحر, يدوي صوته في ظلام يحتوى كل شيء...

أشارا إلى قلعته المشلحة:

ـ ملعون أنت وطن، ملعون أنت وطن.

شاركه "لطفي" وهو يتابعه:

ـ ملعون أنت وطن، ملعون أنت وطن..

قفزا بين الأمواج.

* * *